تخمينات حول حرفة التّطريز وفنونها



حياة قطاط

لو فكّرنا في تحديد مفهوم مدقّق لمصطلح التّطريز، لقلنا إنّه حرفة فنيّة ومهارة يدوية تتمثّل في زخرفة قطعة من النسيج أو الجلد باستعمال الإبرة والخيط أو السلك.

وتكون الزّخرفة إمّا مسّطحة أو ناتئة. وبذلك فإنّ العنصر الرّئيسي في فنّ التّطريز هو «التّخريمة» أو «الغرزة» التي تتمثّل في ذلك القسم من الخيط أو السّلك الذّي يظلّ بارزا على وجه القطعة المُطرّزة.

ويكون الخيط إمّا من الصّوف أو من القطن أو من الحرير أو سلكا معدنيا قد تُضاف إليه عناصر أخرى لإثراء الزّينة كاللّؤلؤ أو الصّدف أو «الشّذر»...

والتّطريز فنّ قديم عاصر الإنسان في جميع مراحل تطوّره، لارتباطه الوثيق برغبته الدّائمة في البروز على أحسن هيئة وشكل وبحثه الدّائم على الرّفاهية ولين العيش.

والتّطريز أيضا مهارة يدوية اختصّ بها الرّجال في البداية، ثمّ أقبلت عليها النساء في مرحلة موالية، تستند إلى تكوين وتعليم قد يشرع في تلقّنه المرء منذ صغر سنه ويكون ذلك بصفة عفوية في أحيان عديدة ويتطلّب هذا النّوع من المهارات الممارسة الطّويلة لبلوغ مرحلة الخبرة ومستوى الجودة والإتقان.

اهتّم الإنسان بتطريز ملابسه بجميع أنواعها: العاديّة والفاخرة والرّسمية وجهاز بيته بمختلف أصنافه من مفروشات وأغطية... هذا إلى جانب جهاز ما يركبه من دوابّ للتّنقل ونذكر بالخصوص السّروج.

وتتخذ الزّخارف المطرّزة أشكالا وكذلك ألوانا رمزية تختلف حسب الجهات، ذلك أنّ لكلّ جهة في العالم خصوصياتها التي تظلّ وليدة تجارب وحضارة خاصّة. ولإبراز أهمية اللّون في التطريز وغيره من الفنون، يمكن الإستشهاد بما قاله قويتث Goethe في هذا المعنى:



«بيت المعلمة»
متحف العادات والتقاليد الشعبية لمدينة تونس «دار بن عبد اللّه».



«رأس قوفية»

«Les couleurs agissent sur l'âme, elles peuvent y exciter des sensations, y Reposent ou nous agitent et provoquent la tristesse ou la gaieté»

«تؤثر الألوان على نفس الإنسان وتثير فيها عديد المشاعر والعواطف والأفكار التي يُمكن أن تبعث فينا الرّاحة أو التّوتر والهيجان وتحدث فينا الحزن أو الفرح».

أهمّ المراحل التاريخيّة لفنّ التطريز:

نستقي معلوماتنا حول تاريخ فنّ التطريز من النّصوص القديمة المكتوبة وكذلك من الإكتشافات الأثرية المتمثلة بالخصوص في النقائش والمنحوتات وغيرها ممّا يُعثر عليه في الحفريات أو يطفو عفويّا على سطح الأرض، من أدلّة تثبت الجذور التّاريخية القديمة لهذا الفنّ ومن أهمّ هذه المعلومات ما يلي:

- أولاً ظهور الإبرة بالخرم منذ 15 ألف سنة قبل الميلاد على الأقلّ.

- ثانيا تُثبت الإكتشافات الأثرية بالمواقع التي يعود تاريخها إلى فترة ما قبل التاريخ بكلّ من شمال أوروبا وشمالها الغربي ووسطها أن قطعان الماشية المتكونة أصلا من الخرفان والماعز كانت توفر إلى جانب الغذاء الجزّات، التي هي أصل الخيوط الأولى والأنسجة.

- ثالثا شهدت المسالك التجارية التي تمّ تصميمها - على ما يبدو- منذ العصور الحجرية القديمة تطوّرا في العصرين البرنزي والحديدي وهي مرحلة هامّة في تاريخ الإنسانيّة تفسّر بداية إنتشار الحرفة بصفة تدريجية في جميع أنحاء العالم، هذا وقد لعبت المواد الأولى والأساسية لصنع اللّباس دور العملة في التّبادل التجاري التي كانت قائمة في القديم على أساس ما يُعرف بالمقايضة، والتي كانت تتمّ بالخصوص بين الرّحل والسّكان المستقرين في أقدم مواقع العمران البشريّ التي ظهرت بالشرق. وفي هذا الصّدد تتحدث النصوص القديمة بكثرة عن الألبسة أو الأنسجة الصّوفية بآشور.

كما يُمكن بفضل نحوت سومر وبابل متابعة مراحل تطوّر فنّ التزويق الذي أصبح يشمل في فترة ما كامل الثوب جزءًا منه فقط.

وتعكس الأنسجة القديمة المُطرزة ذوقا رقيقا وحسّا مرهفا وميلا للألوان المشعّة ولا بدّ من الإشارة إلى المكانة الهامّة التي احتلّتها مادّة الأرجوان كملوّن طبيعي نفيس ونادر في العالم القديم، ممّا يُفسّر قيمة الأنسجة المتأتيّة من ذلك المكان خاصّة وأنّ اللّون الأرجواني كان لون الآلهة والملوك.

وتُثبت أقدم الطرائز التي تمّ اكتشافها بالقبور المصرية أنّ كلّ التّخريمات أو «الغرز» كانت موجودة منذ الفترة القديمة كالسّليسلات (Points de Chaînettes) وغيرها (*).

ويبدو حسب النّصوص التّاريخية القديمة أنّ المصريين سبقوا اليهود في تعاطي فنّ التّطريز بل هم الذين لقّنوهم أصوله وأسسه.

وفي الحقيقة ففي الفترة التّي شهد خلالها فنّ التّطريز في المنطقة المتوسطية إزدهارا ونموّا كان هذا الأخير قد استكمل جميع مراحل تطوّره في بلدان المشرق التي كانت تُصدّر منها الصّنائع المُطرزة إلى بلاد الإغريق وروما عبر ساحل (Phyrgie) وقد يُفسر ذلك سبب تسمية الحرفيّين في فنّ التّطريز باليونان القديم بـ «Phyrgio» ويبدو أن كلّ ما هو مطرّز بالذّهب يسّمى «Auriphygium» وهو مصدر الكلمة الفرنسية «Orfi» المقصود بها الشرائط المطرزة بالذّهب والتي كانت تُزوّق بها معاطف الكهنة وحللهم.

ـ من جهة أخرى نشير إلى الدّور الهامّ الذي لعبته القوافل القادمة من الغانج والهندوس في ترويج القطن بشمال غرب آسيا، ثمّ بمصر والذي شكّل إثر الصّوف، مادّة أساسية في كلّ من الحياكة والتّطريز.

ـ ويُنسب للهند أيضا حياكة نوع رقيق من النسيج الشّفاف المعروف بالموصلي Mousseline والذي أطلقت عليه تسميات شعرية وورومنسيّة للغاية:

- كالماء السائل L'eau courante
- النّسيج الهوائي Tissu d'air
- ضبابة المساء Brouillard du soir

وشكّل هذا النّوع من الأقمشة أرضية ملائمة لنوع خاصّ من الطرائز المتميّزة برقتها وجمالها، عُرفت بإسم رسم الإبرة Peinture d'aiguille.



فرملة غولي: «المهدية القرن العشرين»



التطريز بخيوط الحرير

ومن جهة أخرى تُنسب فكرة خلط الخيوط الملونة بالذّهب والفضّة إلى آسيا، وتتطلّب ذلك تطريق هذه المعادن النّفيسة للحصول على ورقة رقيقة، يتمّ تقطيعها في شكل صفائح صغيرة.

ساهمت روما في عهد يوليوس قيصر في إثراء هذا الفنّ التّزويقي الرّائع بمادّة نفيسة لم تكن معروفة في القارّة الأوروبية تتمثّل في الحرير، الذي بدأ إنتاجه في الصّين قبل ميلاد المسيح بمائتين وألف سنة لينتشر فيما بعد بكلّ من بلاد فارس والهند ثمّ مصر قبيل ميلاد المسيح بقليل. ثمّ حوّلت روما هذا الفنّ إلى بيزنطة في بداية العهد المسيحي ويعود الفضل إلى المعامل التي تمّ تركيزها بالعاصمة الثانية للإمبراطورية الرّومانية في تكوين الحرفيين الأوروبيين الذين مارسوا هذه المهارة خلال فترة زمنية طويلة دون التجرّد تماما من طابعها الشرقي الذي متجليّا في مظهرين:

- مظهر بيزنطي
- مظهر ساسانيّ - فارسي اكتشفه الأوروبيون بفضل الحروب الصّليبية.

وتتمثل الزخارف السّاسانية في الخطوط والأشكال المتكرّرة والدّوائر ونصف الدّوائر والمربّعات... هذا إلى جانب الحيوانات كالطّيور والفيلة والأسود... وأمكن لبيزنطة أن تتفوق عن منافسها الفارسي في المجال وان تصبح أبرز مركز لفنّ النسيج بصفة عامّة خلال القرن السّادس ميلادي، ذلك أنّ الموقع الجغرافي لبلاد فارس ومجاورتها للبقاع المركزية من آسيا وللصين (مصدر الأنسجة الحريرية) وللشّريان الرّئيسي لتجارة القوافل، أكسبها هيمنة لم تتخلّص منها بيزنطة إلاّ لمّا تتطوّر بها نشاط تربية دودة الحرير.

وساهمت المنتوجات الإسلامية في ترويج فنّ النّسيج والتّطريز في أوروبا وخاصّة في إسبانيا ونُشير في هذا الصّدد إلى الازدهار الذي شهدته إسبانيا في هذا المجال خلال القرن التّاسع ميلادي.

كما شكّلت صقلية القطب الثاني لهذا الفنّ في نفس الفترة تقريبا، خاصّة على إثر فتحها من قبل العرب المسلمين، حيث أصبحت تموّل أوروبا بالأقمشة الحريرية المُطرّزة، ومنذ القرن الثالث عشر عنها أخذت المدن الإيطالية النّيابة ونذكر من بينها بالخصوص جنوة والبندقية ... وشيئا فشيئا أصبح لكلّ مدينة طابعها الخاصّ بعد أن تخلّصت نسبيّا من التأثير الشرقي، دون أنّ يمنع ذلك تواصل التبادل الثقافي والفكري وبين مختلف روافد هذا الفنّ من جراء الحروب الصّليبية.

وإثر سقوط القسطنطينية قامت أوروبا بنيابتها في إنتاج الطّرائز التي دخلت مرحلة جديدة تمكنّت أثناءها بفضل تطوّر الأنسجة والموادّ الأوّلية من بلوغ درجة الإتقان والجودة

وأصبح لكلّ بلد أوروبيّ ميزته وطابعه الخاصّ في الميدان، هذا مع الإشارة إلى أهمية الدّور الذي لعبته الأديرة في تلقين هذا الفنّ للفتيات وفي إنتاج أروع القطع المطرّزة.

وفي عصر النهضة أصبحت الطّرائز تُشكل رسوما حقيقية على غاية من الدّقة والجمال ولا يُمكننا في هذا الصّدد أن نتغافل عن الإشارة إلى المساهمة الهامّة التي قام بها الرّسامون في تلك الفترة بتوفيرهم للطّرازين النّماذج والتّصاميم.

وخلال الفترة الحديثة ظهرت طريقة مزج خيوط الذّهب والفضّة بالمطّرزات، ممّا ساهم في الزّيادة في قيمة هذا الفنّ وإثرائه وتمّ توظيفه خلال تلك الفترة خاصّة، لتلبية حاجيات الكنيسة وبلاط الملوك من ملابس ومفروشات.

وتواصل ازدهار هذا الفنّ أثناء الفترة المعاصرة، إلا أنّه قد أصبح يشكو- في خضّم حركة النّموّ الصّناعي بأوروبّا - من منافسة المنتجات المطرّزة بالآلات.

فنّ التّطريز في البلاد التونسية:

تشهد القطع الفنيّة المعروضة بالمتاحف الوطنية والجهوية إلى جانب المجموعات الوطنيّة المودعة بالمخازن، عن تجذّر فنّ التّطريز وحرفته ببلادنا وتميّزه بالتنوّع والثراء، وذلك نتيجة تطعّمه بجميع المؤثرات الثقافية التّي كان لها دور في تشكيل تراثنا الوطني على مرّ الأزمنة والعصور التّاريخيّة، ويعود الفضل في ذلك إلى الموقع الإستراتيجي الهامّ الذي تحتلّه البلاد التونسية المطل على ضفّتي البحر الأبيض المتوسّط، ممّا جعل بلادنا أرض لقاء وتلاقح حضاريّ منذ فجر التّاريخ ويتجلّى هذا التلاقح بوضوح بالأوساط الحضرية أكثر من غيرها لتفتّحها على ثقافة الآخر.

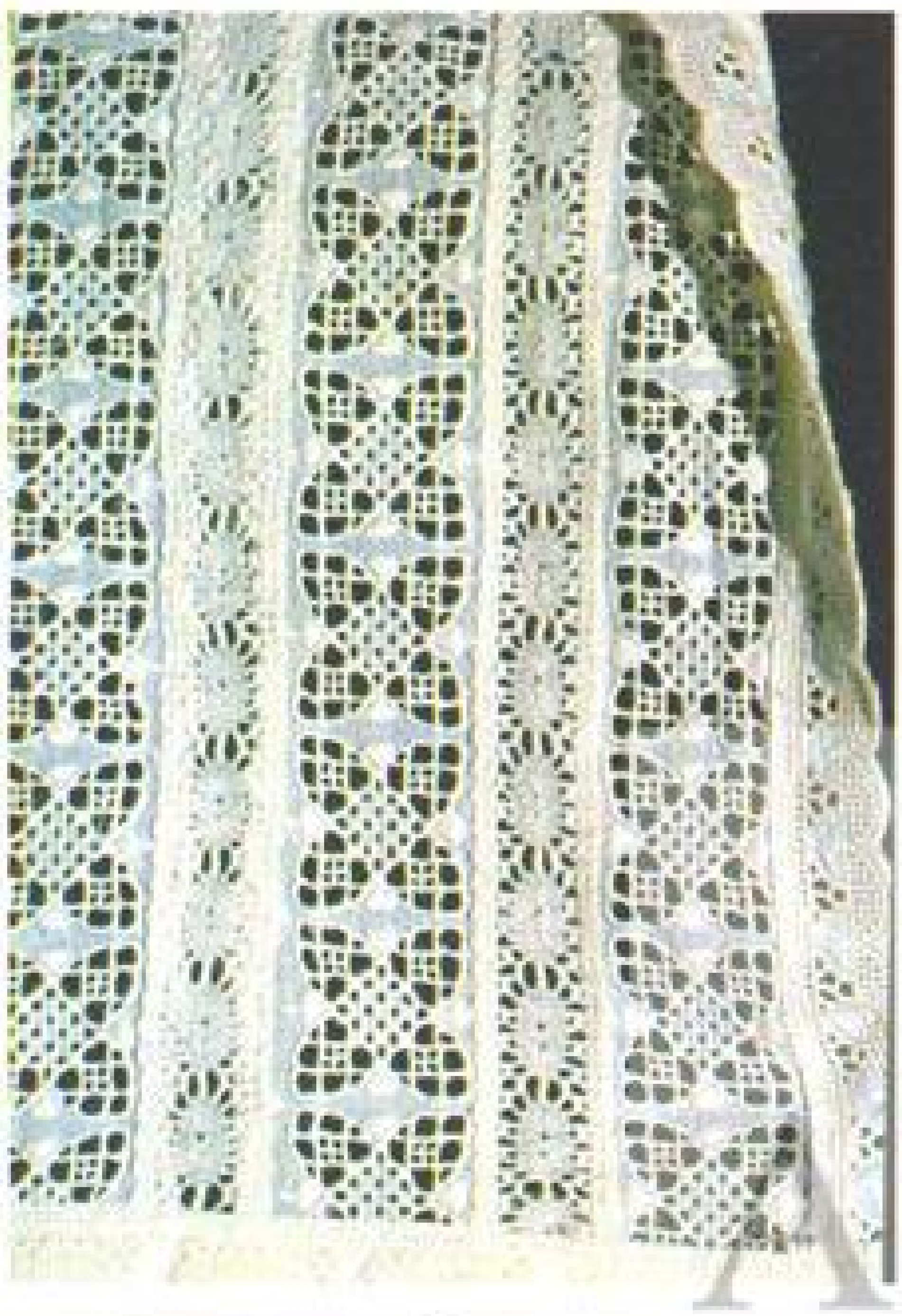
عيّنات من المطرّزات التونسية:

1 ـ «الشبكة»:

حظيت «الشبكة» أو ما يُعبّر عنه بـ «الدّنتالاّ العربيّة» خلال فترة طويلة بعناية كبيرة من قبل العائلات التونسية العريقة بكل من مدينة تونس وغيرها من مدن البلاد، حيث كان يتمّ تلقين الفتيات هذا الفنّ في «دار المعلمة»، لإعداد جهاز العرس.

وتتميّز «الشبكة» إلى جانب جمال أشكالها وزخارفها الرائعة بغرزها الرقيقة والمتينة في نفس الوقت.







عيّنات من المطرّزات التونسية: «الشبكة»

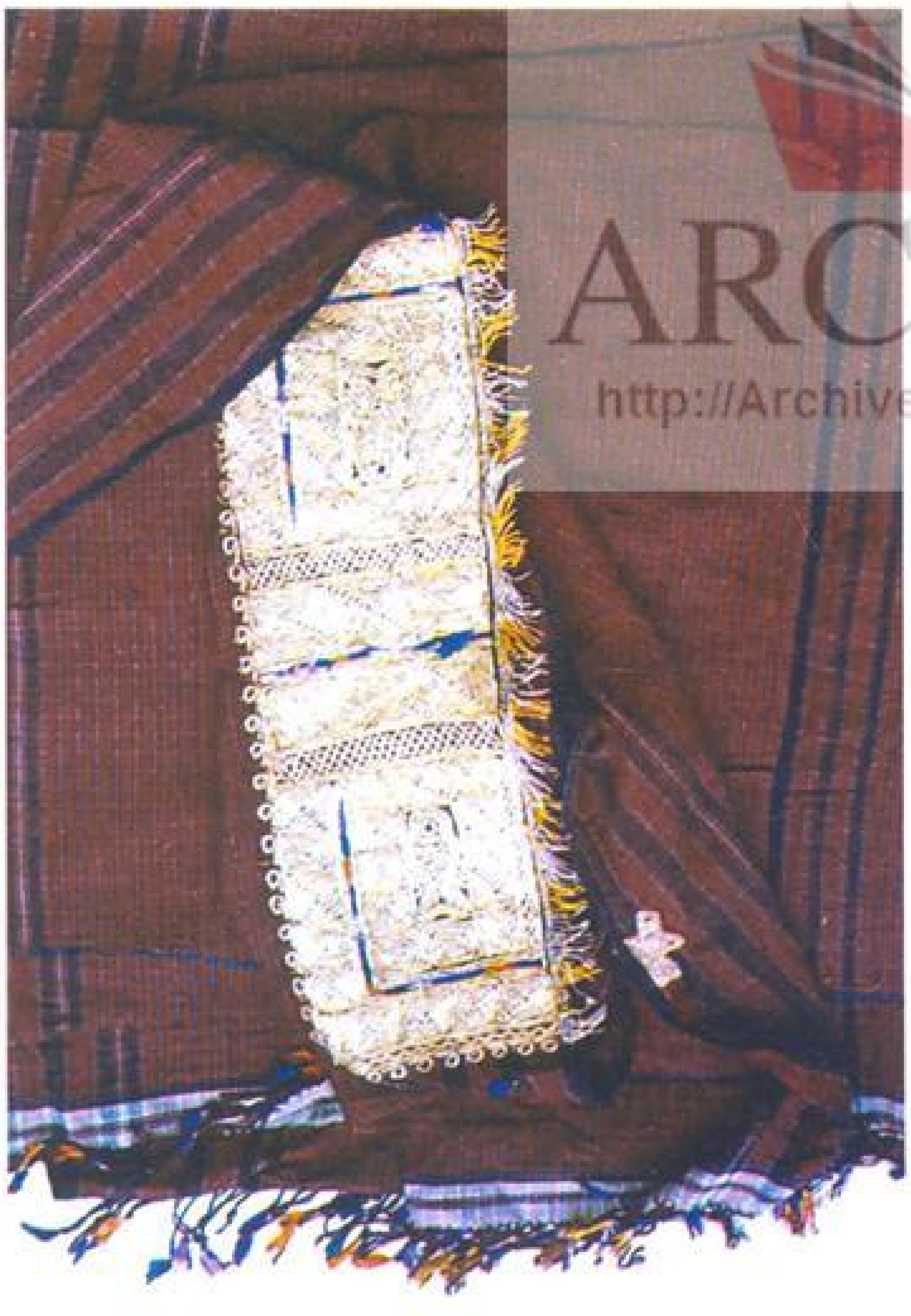
2 ـ التطريز بالأسلاك المعدنية «التلّ»:

انتشر هذا الفنّ بالمدن السّاحلية وخاصّة بالمهديّة والمكنين حيث استقرّت خلال القرنين الماضيين بعض الجاليات اليهودية التي اختصت به وببيع موادّه الأولية المتمثلة في أسلاك الذّهب والفضّة المذهبّة.





«قفا قوفية»



«خلالة موشحة»



«محرمة مرشوشة»

3 ـ التطريز بخيوط الفضة «الصّارمة»:



«عبا» مدينة تونس : القرن التاسع عشر

4 ـ التطريز بخيوط الصوف:

إنتشر هذا الفنّ المتميز باستعمال الألوان الزّاهية إلى جانب الزّخارف المربّعة، بجهة رفراف ونستشف من خلاله تأثيرا أندلسيا جليّا، جاءت به الجالية التي استقرت بالمنطقة بعد أن تمّ طردها من الأندلس خلال القرون الماضية.

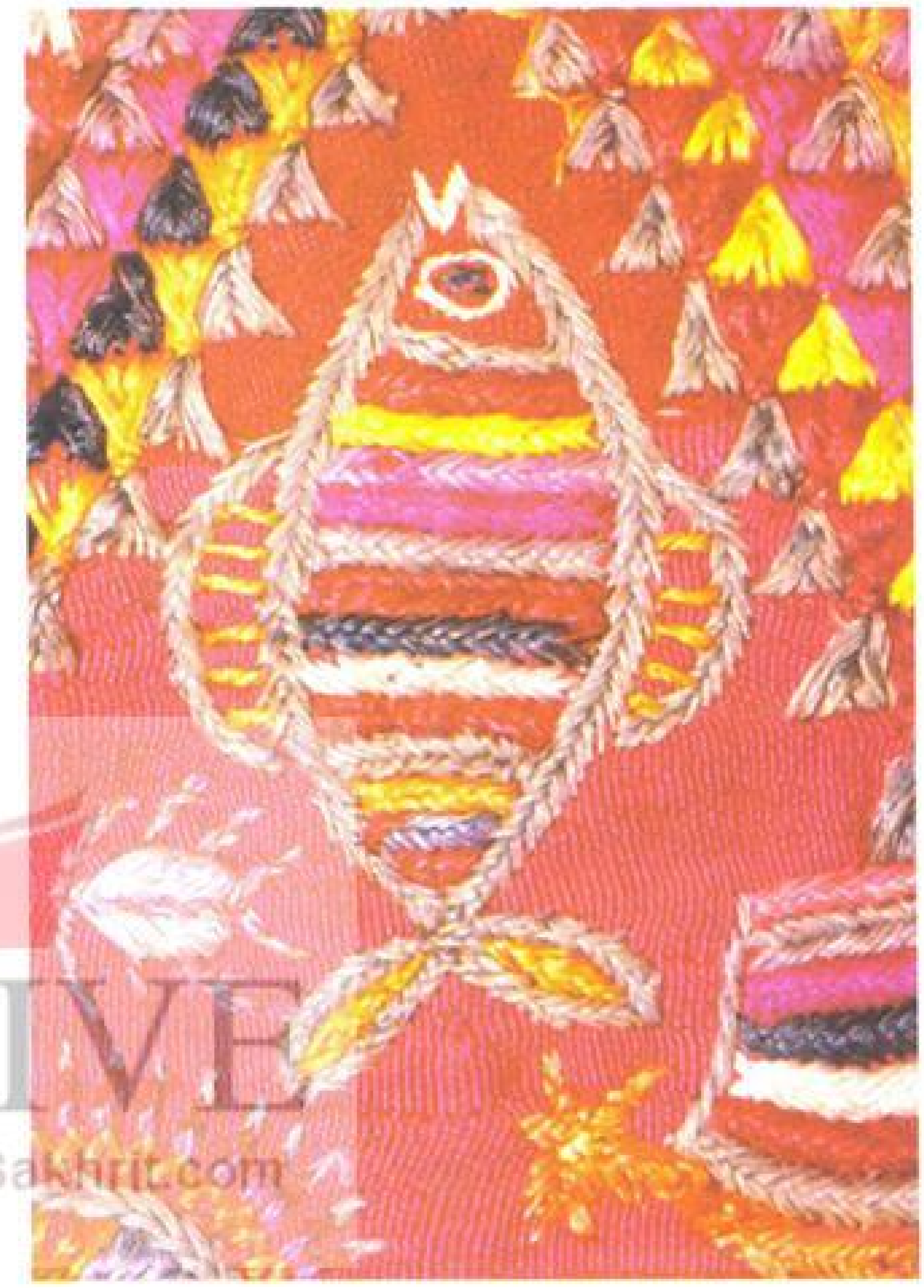




«الموشمة» لباس الأفراح بجهة رفراف: نهاية القرن التاسع عشر

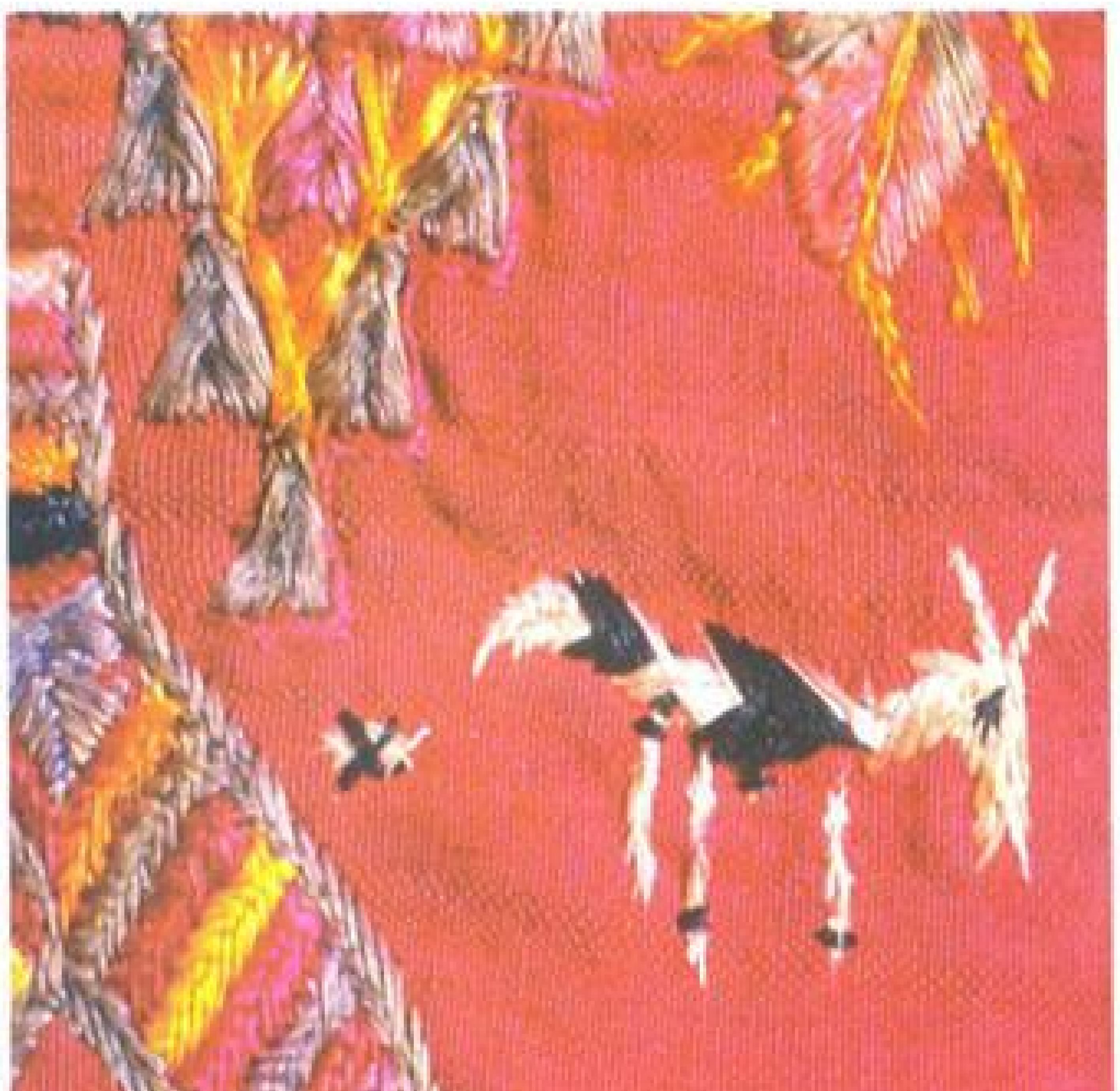
5 ـ التطريز بخيوط الحرير:

يُنبئ استعمال هذه الأشكال الزخرفية بالخيوط الحريرية الملونة كالخمسة والسّمك، الموجودة بكثرة في مختلف محامل تراثنا الوطني، عن رسوخ هاجس الخوف من الحسد والأرواح الشريرة والرّغبة الشديدة في التّصدي لشرّها بواسطة هذه التمائم.









6 ـ التطريز بـ «الشّذر»:

انتشر استعمال هذه المادّة المتميزة ببريقها وألوانها الزاهية في تطريز لباس الأفراح في عديد المدن التونسية.



«فرملة» المهدية : القرن العشرين

الخاتمة:

يحظى التّطريز كغيره من الفنون النفيسة التي نسجتها أنامل الإنسان المبدع بمكانة هامّة في التراث البشري بصفة عامّة وفي تراثنا الوطني بصفة خاصّة، حيث يعتبر كلّ نوع من هذا الفنّ شاهدا حيّا على العصر الذي ظهر فيه، باعتبار التّطريز وسيلة من بين مختلف وسائل التعبيرالتي استعملها الإنسان منذ فجر التاريخ للتعبير عن مشاعره المتناقضة ما بين الفرح والحزن وعن أمانيه وعمّا يخالج صدره من خوف وهواجس ومعتقدات، وهو تعبير ناطق بواسطة رموز، قد يصعب فكّها في بعض الأحيان. لذلك لا بدّ من مزيد العناية بهذا الفنّ وإعادة تفكيكه من جديد، لما يكتسيه من أهميّة بالغة باعتباره تراثا ماديّا وغير ماديّ في نفس الوقت، عسى أن يساهم مزيد البحث والتّمحيص فيه في الكشف عن ألغاز الماضي وسبر أغواره.

ومن جانب آخر يُمكن توظيف هذا الفنّ الرّاقي في المسيرة التنموية الشاملة التي تعيشها بلادنا اليوم في إطار حرصها الشديد على المحافظة على أصالتها بكلّ رسوخ وثبات في خضمّ العولمة والنمطيّة، باعتبار التّطريز رافدا حضاريا هامّا وعنصرا لا يتجزأ من هوّيتنا الوطنية التي تُميزنا بين الشعوب.



«فرملة» رفراف : القرن العشرين

المصادر والمراجع

-Collectif, Les Costumes traditionnels Féminins de Tunisie, Tunis 1988.

-Collectif, Noces tissés Noces brodés, parures et costumes féminins de Tunisie, Paris 1995.

-Deplanche (A), Dentelles et Broderie Tunisiennes, Paris 1931.

-Desrieux (J), La broderie sans façon une passion à découvrir point par point, Paris 1985.

-Ferrari (C), La broderie, Paris 1979.

-Revault (J), Arts Traditionnels en Tunisie, Tunis 1967.

- «Broderies Tunisiennes» dans les cahiers de la Tunisie, 1960.

-Sethom (S), «La confection du costume féminin de Hammamet», dans cahiers des A.T.P N°1, 1968.

- «La Tunique de mariage en Tunisie», dans cahiers des A.T.P N° 3 ,1969.

- Les Arts Populaires en Tunisie, Tunis 1994.

- Sugier (C), «Le thème du lion dans les arts populaires Tunisiens», dans cahiers des A.T.P N° 3 ,1969.

- Les Archives Photographiques du Musée «Dar Ben Abdallah».

الهوامش والإحالات

*) لا بدّ من الإشارة إلى وجود طنفس حائطي بمتحف ألبار و فيكتوريا Albert and Victoria بلندن مزوّق بأشجار مُطرّزة بالصّوف على نسيج من الكتّان.

صناعة الخطّ من مقوّمات الحضارة عند ابن خلدون

محمـد العلانـي

إنّ الحديث عن الخط العربي في مقدمة ابن خلدون ميدان فسيح ينبغي علينا توفير طول النفس والوقت والمناسبات المتاحة حتى نحصل على ما ينبغي ليكون الخط مرآة تنعكس عليها حضارة بلادنا ورقيها. وهاهي الفرصة قد أتيحت لي لتقديم هذه الدراسة في «صناعة الخط باعتبارها من مقومات الحضارة عند ابن خلدون» ونحن نحتفل بالمائوية السادسة لوفاة هذا الابن البار لهذه البلاد وهذه المدينة بالذات حيث لا يسعني إلا أن أردد مع العلامة المرحوم سيدي محمد الفاضل ابن عاشور عندما قال وكأنه يحتفل معنا بهذه الذكرى وفي هذه الربوع بالذات، قال :

«وأنّى لنا أن نسترد الزمان فننتقل به في هذه المدينة نفسها ستة قرون إلى الوراء بحيث تمُرّ به صور الحياة المضطربة التي مرت يومئذ، ونرى كيف تتولّد نظرياته التي قطعت إلينا رقاب القرون.»

(ومضات فكر ج2ص 174.)

هذه النظريات التي قطعت رقاب القرون حتى وصلتنا وكأنّها مازالت طازجة، نتفاعل معها تفاعلا روحيا وعقليا، ومن هذه النظريات التي أضحت أجهزة فاعلة في بناء علم العمران الخلدوني جهاز «الخط العربي» كصناعة قطعت هي نفسها رقاب القرون حتى وصلتنا وقد أعتبرت من أهم مقومات الحضارة، فهي صناعة تينعُ كلما أينعت شجرة الحضارة وأثمرت، ولكنها تذبل كلما تقلصت ظلال هذه الشجرة واعياها الدهر عن أن تلد وتنجب... تلك هي خلاصة نظرة ابن خلدون للخط وللحضارة معا كما سنراه بشيء من التفصيل، وإذا كان لابد أن نعتز بمثل هذا الرجل الخطاط فإن كل العلماء والمؤرخين المعاصرين لابن خلدون يشهدون صراحة وبدون مواربة ولا غموض بأن ابن خلدون كان - بارع الخط - ومنهم ابن حجر العسقلاني والمقريزي وغيرهما أي أن خطه كان جميلا إذ يؤكد العسقلاني مثلا بأن أستاذه ابن خلدون «اعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط حتى مهر في جميع ذلك» فخط ابن خلدون كان جميلا كجمال ورفعة معظم خصاله وصفاته، قال المقّري في نفح الطيب يصف ابن خلدون: «هو رجل فاضل، حسن الخلق، جمّ الفضائل، باهر الخصال، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، خاصّي الزي، عالي الهمّة، عزوف عن الضيم، صعب المقاد، قوي الجأش، طامح لقنن الرئاسة، خاطبا للحظ، متقدم في فنون عقلية ونقلية،

متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، مغري بالتجلة، جواد، حسن العشرة، عاكف على رعي خلال الأصالة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية».

(عن بدوي في مؤلفات ابن خلدون ص 301)

إن من أسباب جمال خط ابن خلدون هو وعيه العميق بمعنى الجمال المطلق فكيف كان يصور لنا هذا الجمال علّنا نخرج من الرتابة المتوقعة عندما يُتحدث عن ابن خلدون في أغلب الحالات. وبذلك نخشى أن ينسى جانب الطرافة والإبداع في سيرته فلنسمعه يقول مُحددا ومعرفا للجمال ومنطلقا في ذلك من مجرد ملاحظة المرئي كما يقف الواحد منا أمام لوحة خط أو منظر جميل. فماذا يحصل للناظر المتأمل لتلك اللوحة؟ يجيب ابن خلدون:

«فإذا كان المرئي متناسبا في أشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عمّا تقتضيه مادته الخاصّة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كلّ مُدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذّ بإدراك ملائمها».

فما هو سرّ ذلك كلّه ؟ يجيبنا ابن خلدون جاعلا الفطرة منطلقا وغاية فيقرر وكأنّه يدرس أسرار لوحة جميلة :

«ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إدراكه للجمال والحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته، فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة».

(المقدمة: الباب 5 في المعاش ص966 تحقيق وافي)

فإذا شهد العلماء ومعاصرو ابن خلدون بمختلف المزايا التي ذكرنا، وإذا كان هو نفسه يضعنا إزاء إنسانيتنا وفطرتنا المدركة للجمال بطبعها كما هي مدركة للفكر المستنير وتجلياته فإن شخصية ابن خلدون ومروره على مسرح الثقافة العربية والإسلامية والإنسانية، وانتاجه الغزير والمتنوع كلّ ذلك جعل من الرجل و- بمفرده - موسوعة تعذر إلى الآن الانتهاء من دراستها دراسة كاملة وموفية بغرض كلّ الباحثين على اختلاف اهتماماتهم العلمية. وهم ما انفكوا يحاولون إزاحة الستار عن سرّ الرّجل وكيف حدث أنّ زمنا رديئا - كما يصفه ابن خلدون بلوعة - هو الزمن نفسه الذي قدر على إنتاج رجل مثله، ناهيك أن بعض الباحثين الجادين ومنهم الجابري قد اعتبر المقدمة الخلدونية زهرة واحدة يتيمة مما خلفته الرشدية، يقول الجابري في كتابه «نحن والتراث» ونحن نحيي شهر التراث إذ يجدر نقل فقرة موحية منه لخّصت في نظري فكر شريحة هامة من شرائح مفكرينا سواء اعتنقنا مقولاتهم أم لا. يقول الجابري :

«هلّ حققّ الخطاب الرشدي حلمه «الواقعي»؟ إنه على الرغم من تحول رياح التقدم نحو أوروبا حاملة معها الخطاب الرشدي الذي سيعاد إلقاؤه هناك مرات ومرات لمدّة قرون... فلقد أثمرت العقلانية الواقعية النقدية الرشدية في موطنه المغرب والأندلس زهرة واحدة على الأقل مازال أريجها يحتفظ برائحتها الزكية وروحه الرشدية إلى اليوم: إنها مقدمة ابن خلدون...»

فكيف تفاعل الجابري مع هذا الأريج وكيف فسّر خلافة الخلدونية على ضوء انتسابها للرشدية. يجيب وقد وضعنا بين اليأس والرجاء:

«لقد شاهد ابن خلدون رياح التقدم تتحول إلى بلاد الروم فاقتنع بأنّ زمن الحلم قد انتهى وأن المهمة المطروحة «الآن» في فحص الذي مضى لاستخلاص الدروس و«العبر». وبالفعل فمقدمة ابن خلدون درس للعقل من العقل، وعبرة للتاريخ من التاريخ، إنها خطاب من الماضي إلى المستقبل».

(الجابري نحن والتراث ص 43)

أجل فالمقدمة الخلدونية هي كما رآها الجابري ولا شك ولكن مع ذلك هي - وقبل كل شيء - البنت الشرعية لثقافة تراكمية أصيلة وتليدة همها الأول والأخير بناءٌ وتشييدٌ متينان لمستقبل الإنسانية ككل،

فلم تقتصر على جنس واحد أو قوميّة معينة بل كان اتجاه عطائها الثري كل الإنسانية بدليل أن المقدمة ذاتها تمكنت من احتلال مكانة في المجتمع العلمي بأغلب الأقطار إذ استشهد بها وأشاد بها توينبي وريغن ولينين والبنك العالمي في ميدان باب المعاش خاصة الذي يعتبر مبحثا ثريا للاقتصاد السياسي، ولذلك تبوأت مركزا مميزا في تاريخ وواقع العقل البشري فهي درس للعقل من العقل. هذا العقل الذي سنراه فيما يلي عمادا لمعظم النظريات والفحوص المعرفية في ميدان الخط وإذا كانت الخلدونية زهرة واحدة أنبتتها الرشدية رغم ما حفّ بالاثنتين معا من قحط حضاري أخذ ينهش المجتمعات العربية شرقا وغربا إذ ساد التراجع المعرفي العام كما نعاه ابن خلدون. واستمر بعده ذلك التراجع إلى فجر النهضة على يد الأفغاني ومحمد عبده وخير الدين فإنّ موقفنا نحن منهما أي الرشدية والخلدونية ومن المصير نفسه كموقف من يلقي نظرتين فاحصتين على الواقع، إحداهما إلى الوراء وينبغي ألاّ تطول، وثانيتهما نظرة إلى الأمام بل نظرات ترصد خطانا وكأننا نقلد ذلك العداء الماهر الذكي الذي يعمد إلى تسجيل بعض الخطوات التراجعية - التكتيكية - المدروسة إلى الوراء لينطلق بعدها وبقوّة ونجاح نحو السباق بسرعة فيفوز على أقرانه لأنّه حذق سرّ اللعبة ففاز. وكأنّي بابن خلدون يقلد هذا العدّاء الماهر، فها هو يسترجع لنا حتى صباه محاولا مزج بعض نظرياته الجادة على العمران بوقفات تذكارية زادته في نظري حرصا على قراءة الماضي على ما فيه لأجل المستقبل الذي يرنو إليه المجتمع، كما زادته يقينا بأنّ مُفارقات القوة والضعف والبناء والهدم ينبغي أن تراعى عند دراسة أي مجتمع وذلك عندما قال :

«إننا نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير».

ويعلل ذلك في شبه حسرة ولوعة على ما شاهده في صباه فيقول : «لأنّ الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم والبناء على خلاف الأصل» فماذا شاهد ابن خلدون في صباه وماذا اختزنت ذاكرته التي ألهمته -بمعية فحصه للواقع- من أحداث وقعت فجعلها كآليات لتقنين علمه الجديد في العمران البشري والاجتماع الإنساني، واستنباط أحكامه المختلفة عليها. إنّه يقول وكأنّه يجيبنا :

«وكذلك حنايا المعلقة إلى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم، ويستجيد الصنّاع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الأيام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها إلا بعد عصب الريق (شدة التعب) وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في أيام صباي كثيرا والله خلقكم وما تعملون».

(ص 836 من المقدمة تحقيق وافي)

فالرجل يعي ما يقول : بناء ضخم يحتار معاصروه من البنائين في خلخلة صخوره المتماسكة. فهو على بساطة ما ذكره وعلى تلقائية ما شهده مرارا (لا ما شاهده) من تلك المحافل التي وصفها بالمشهورة. أي تلك العمليات قد تكررت وتذكرها ووعاها عندما أنهى فصله الممتاز والذي عنونه بـ (فصل في أنّ الهياكل العظيمة جدا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة) ضمن الباب الرابع من المقدمة (في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق) وقد علّق (علي عبد الواحد وافي) على هذا العنوان بقوله : «عرض ابن خلدون في هذا الكتاب لما سماه العلامة دوركايم المورفولوجيا الاجتماعية أي علم البنية الاجتماعية. ولم يدر دوركايم وجماعته أنهم قد سبقهم ابن خلدون في ذلك بأكثر من خمسة قرون».

(ص 824 تعليقة عدد 1084).

ألا نتفق أننا كلنا مازلنا نحتفظ بأدق التفاصيل عن بعض الأحداث التي وقعت في صبانا وطفولتنا وأن هذه الأحداث هي التي تشكل بعض حاضرنا، وربّما أسهمت في تشييد مستقبلنا. وهكذا كان ابن خلدون، لقد اختزن في ذاكرته أحداثا وصورا ومشاهد جعلها كالدليل على نظرياته المشهورة في علم العمران موظّفا بذلك عقله الخلاّق إذ أنّ خطابه هو من العقل إلى

العقل حسبما قيل ولذلك فإن المرحوم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور قد انطلق بصدق وبعقل من واقع ابن خلدون في فصل عنوانه «رأي ابن خلدون في وسطه الاجتماعي» بأن ابن تونس العظيم الذي تسود ذكراه اليوم هذه المدينةالخضراء لحقيق بالمنزلة العليا من ذاكرتها إذا لاحظنا ما لنشأته فيها من الأثر الكبير في تكوين آرائه التي خلد بها والتي كانت تقصد مباشرة إلى صور الحياة التي أحاطت بنشأته.
(ص 173 من ومضات فكر ج2)

أجل إنها صور مختلفة سواء أكانت بجوار الحنايا أو غيرها أو بين عرصات جامع الزيتونة وفي حلقات العلم فيه وفي غيره أو في دواوين السلاطين والقادة وذوي الشأن من كلّ شريحة من شرائح المجتمع. فكيف تجلت هذه الصورة من خلال كثير من فصول المقدمة عن الخط وصبغته العمرانية ووظيفته الحضارية، إذ ينبغي تسجيل حقيقة منهجية هامة وهي أن ابن خلدون تحدث عن الخط وشؤونه في أكثر من باب وأكثر من فصل وذلك في سياق تحاليله الاجتماعية التي سنراه كيف يُعمل عقله المجرد في الكثير من منعطفاتها المعرفية، وسأقتصر على المواطن التي ذكر فيها الخط كعامل حضاري وثقافي في هذه الفصول من بابين :

أولا : من باب الصنائع والمعاش والفصول هي 30 31-32-33.

ثانيا : من باب العلوم والفصول هي 35-40-45

أما أهم هذه الفصول السبعة وأطولها من بابي المعاش والعلوم والذي يعنينا اليوم فهو الفصل 30 من باب المعاش وعنوانه «في أن الخط والكتابة من جملة الصنائع» إذ عرض فيه ابن خلدون وبأسلوبه المميز لحوالي اثنتي عشرة مسألة تتعلق بالخط كمرآة للحضارة التونسية والمغربية والأندلسية والمشرقية في عهدها -عهد الازدهار وعهد الذبول والانهيار- هذا الذبول الذي رصده الرجل رصدا متأنيا وقويا وموغلا في كشف ما كان مستورا لدى الملاحظ العادي وبذلك يكون ابن خلدون [بحق في موضع الراصد الفذ لتلك العطفة من التاريخ] على حد وصف غاستون بوتول في كتابه ابن خلدون «فلسفته الاجتماعية» (ص 11).

وأيضا فهو الذي بدت فيه شمولية النظرة الخلدونية من ناحية وعمق تمسكه بالعقل المجرد في البحث من ناحية أخرى كما سنرى وكما أكده ساطع الحصري في [أنه من أحسن الفصول التي تتجلى فيه نزعة ابن خلدون الفكرية في جمع المعلومات المتعلقة بمختلف أنواع النشاط البشري وعرضها بنظرة تاريخية اجتماعية]
(ساطع الحصري دراسات عن مقدمة ابن خلدون طبعة موسعة سنة 1967 ص 509)

ففي هذا الفصل يحشد ابن خلدون تعاريف علمية للخط كصناعة شريفة مفلسفا وبنزعة وضعية مكانة هذه الصناعة فيقول خاصة :

«الخط رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس. فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية. وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان، وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى بلد البعيد. فتقضى الحاجات وقد دُفعت مؤونة المباشرة لها، ويُطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع».
(المقدمة ص 949)

لقد عمدت لنقل كامل تعريف ابن خلدون للخط وهو تعريف زاخر بالمعلومات كما رأينا. وقد كانت إشادة ساطع الحصري بهذا الفصل -ظاهرة- كما رأينا أيضا لكن فوجئت وأنا أتابع الحصري في وصفه، فوجئت به يقول هكذا: [ونحن نعتقد بأن إظهار آثار هذه النزعة الفكرية الاجتماعية في موضوع ساذج كموضوع الخط الذي لا يبدو وثيق الصلة بالمسائل الاجتماعية ولا يظهر كثير الأهمية من الوجهة التاريخية...إلخ] قلت فوجئت بهذه النظرة الحُصرية لمكانة الخط في ثقافتنا وتاريخنا،

والحال أن الحصري يعرض علينا ذلك التعريف العميق الجذور في مفاهيم ثقافتنا تلك والتي أدرجها ابن خلدون ضمن أوائل هذا الفصل الذي وصفه الحصري نفسه بأنه «أحسن الفصول» وأن الخط صناعة شريفة وبأنه [لا يكون إلا بالتعلمّ وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات (التنافس والتباري فيها) والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع وقد قدّمنا أنّ هذا شأنها وأنها تابعـة للعمران].

(المقدمة ص 949)

فكيف توهّم الحصري في جعل موضوع الخط - موضوعا ساذجا - في حين أنه هو نفسه نقل بقية التعريف الخلدوني للخط والذي جاء فيه إشادة ابن خلدون بجودة تعليم للخط بمصر نفسها عندما قال :

«ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا، لاستحكام الصنعة فيها كما يحكي لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضدُ لديه رتبة العلم والحس في التعلم فتأتي ملكته على أتم الوجوه. وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووُفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال.

(المقدمة ص 949. تحقيق وافي)

فإزاء كل ما عرضناه من عروض خلدونية عن الخط، وإذا تذكرنا أنه مشهود له بالبراعة في الخط وهي ظاهرة موحية. وإذا علمنا أنه يؤكد بأن الخط صناعة شريفة فكيف ساغ للحصري بأن يصف موضوع الخط بالسذاجة في حين أن المختصين في تعليم الخط بمصر وقتها كانوا يلقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف. أكلّ هذا من قبيل السذاجة ياترى؟ أحكام وقوانين وصناعة شريفة...

على كلّ لا ننسى أن مثل هذه النصوص الغريبة أحيانا حررت في ظروف معينة وملابسات معروفة خاصة تلك النداءات الحادة التي تنادي بإبدال الخط العربي بغيره حتى يتم لنا الرقي الذي ينشده أصحاب مثل هذه النظريات. وحتى لو كان الحصري معارضا لها فإن النظريات هي كالنبتة التي تنمو ضمن فصيلة معينة أي أنّ المناخ العام ربّما يحكم أحيانا على البعض فيتيهون ويجتهدون في عمليات ازدهار المفارقات.

ومعذرة عن هذه الوقفة التي ربّما ذكرتنا بوقفات أخرى نسجت خيوطها حول ابن خلدون. ولكن هيّا بنا مع صاحب المقدمة وهو يعرض علينا آراءه حول موضوع الخط الذي يعنينا، ولنسأل كيف كانت طرق تعليم الخط بموطن ابن خلدون وبقية المغرب والأندلس عموما؟ إنه يحكي العكس مما سمعه عن الطرق المتبعة بمصر فهو يقول مثلا :

وليس الشأن في تعلم الخط بالأندلس والمغرب كذلك في تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم، وإنّما يتعلم بمحاكاة الخط في كتابة الكلمات جملة ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجادة ويتمكن في بنائه الملكة فيُسمى مجيدا».

(ص 950 المقدمة)

وهنا أيضا يتهم ابن خلدون بشيء آخر وهو الخطأ فكيف كان ذلك ونحن نعلم أننا كلّنا خطاؤون، لقد لاحظت أن الدكتور علي عبد الواحد وافي وهو في مقدمة من حقّق المقدمة تحقيقا مناسبا معينا على البحث يعلق على هذه الفقرة الأخيرة من تحليل ابن خلدون لطرق تعليم الخط بالمغرب يقول وافي :

«ومن هذا يتبين خطأ ابن خلدون في تفضيله لطريقة المصريين في عهده وهي الطريقة التي تبدأ بالحروف في تعليم الهجاء في حين أن الطريقة الحديثة المعمول بها هي ما كان يطبقها أهل المغرب والأندلس وهي ما نسميها بالطريقة الشاملة أو الجملية (جشتالت).

(ملخص التعليقة عدد 1275 ض950)

أجل لقد ثبت إلى حد الآن وحسب علمي وتجاربي

أن الطريقة الشاملة هي أجدى وأنها هي السائدة في معظم الربوع رغم ما طرأ عليها من تغيرات جزئية، لكن هل فضل ابن خلدون طريقة المصريين على طرق بلاده حتى ظهر خطؤه، يبدو لي أن الإجابة ربّما تكون طويلة ولكن لأقتصر على وصف ابن خلدون للطريقتين وصفا ملخصا:

فطريقة المصريين : نابعة من ازدهار الحضارة، تلقي على المتعلم قوانين وأحكام في وضع كلّ حرف. تعتضد لديه رتبة العلم والحس في التعليم وتأتي ملكته على أتم الوجوه.

أما طريقة المغرب والأندلس : فيكفي أنها تعتمد (محاكاة الخط في كتابة الكلمات والجمل ويكفي من نتائجها أن يكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجادة . وتتمكن في بنائه الملكة فيسمى مجيدا). ص 950

فأين يبدو الخطأ والغاية هي الإجادة في الحالتين المصرية والمغاربية، كما أن الطريقتين تشتركان في أن هناك معلما حاذقا يُعلم شؤون الخط. أما إذا فهم من إشادة ابن خلدون تعليم الخط بالمشرق على أنه سجّل ازدهار الحضارة هناك أكثر من بلده، فإنّ ابن خلدون لم يقصد المفاضلة وإنّما قصد وصف الأشياء لذاتها وحسب، وهو الذي ما فتئ يذكرنا بأنّ عمله الأساسي والمركزي هو وصف الشيء لذاته وحسب طبعه. خصوصا الكتابة والحساب وهو موضوع ثري سنطرقه عن قرب مفضلين اتباع نفس خطوات ابن خلدون التي كان من أهمها وصفه التاريخي المعمق والحضاري للخط العربي سالكا نفس المسلك المؤدي إلى ربط جودة الخط بالرقي الحضاري إذ أن الخط العربي قد بلغ مبالغة من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لمّا بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري. بينما نجد الخط عند المناذرة دون ذلك وهو الخط الذي انتقل من الحيرة إلى أهل الطائف وقريش بالذات، وبدون أن نتوغل مع ابن خلدون في سلسلة الروايات عن عبد الله بن عباس مما رواه ابن فروخ القيرواني الفاسي الأندلسي كما ينسبه ابن خلدون عن أبيه قال : قلت لعبد الله بن عباس يا معشر قريش خبروني عن هذا الكتاب (عن هذه الكتابة أي الرسم العربي) هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ؟، قال نعم. ولكن ابن خلدون يدخل بنا بعد طرحه المسألة الحضارية وربطها بجودة الخط من عدمها عبر تطور الخط العربي عموما. يدخل بنا بحثا طريفا يتعلق بخطوط الصحابة وكتبة المصاحف الأولى فيقول:

وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة وبعدهم عن الصنائع».

(المقدمة ص 952)

وتتناغم خطوات ابن خلدون في هذا السياق مؤكدا ما قرره آنفا ومعتمدا على رأيه الواضح في أن صناعة الخط لا تزدهر إلاّ في إطار الحضارة حتىّ أن خطوط الصحابة أنفسهم - كما يقول هو - غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها . وبعد عرض كثير من الأمثلة والرد على الاعتقادات السائدة في أنهم كانوا مُحكمين لصناعة الخط يردّ على من يتوهمون أن ذلك ربّما ينقص من مكانة الصحابة فيقول :

وما حملهم على ذلك إلاّ اعتقادهم أنّ في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط، وحسبوا أنّ الخط كمال فنزّهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة في رسمه وذلك ليس بصحيح».

(المقدمة ص 955)

وتتناسق خطوات ابن خلدون في هذا المجال مثيرا مسألة شبه عقائدية إزاء الصحابة والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نفسه فيوضح قائلا :

«واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم، إذ الخط

من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر والكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس، وقد كان صلى الله عليه وسلم أميا وكان ذلك كمالا في حقه. وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها. وليست الأمية كمالا في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فإنّ الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا».

(المقدمة ص 955)

وتتوالى الأيام ويتطور الزمن كما تتجدد الحاجات ويترقى الخط بانتشار الإسلام، يقول ابن خلدون :

«ثم لمّا جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا تعلمه وتداولوه فترقت الإجادة فيه واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة الإتقان».

وبعد أن يصف ابن خلدون تطور تحسن الخط وتقدمه في البلاد التي فتحها العرب الذين مارسوا الحضارة شيئا فشيئا يؤكد على شمول جمالية الخط بأغلب البلاد الإسلامية فيقول :

«وطمأ بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كلّ قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه.»

(المقدمة ص 956)

لكن للتاريخ دورات وللحضارات معالم تتوقف عندها وتنحل أواصر الخلافة، يقول ابن خلدون :

«فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل العلم إلى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقها بها نافقة». ويلتفت ابن خلدون إلى بلده المغرب والأندلس فيقول : «وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك المغرب بها ومن خلفهم البربر وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الإفريقي ونُسي خط القيروان والمهدية بنسيان صنائعهما، وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس وبقي رسم في بلاد الجريد».

إنّ نص ابن خلدون ناطق وجلي ومختصر في وصف آخر ما وصله الخط المواكب لمسيرة الحضارة دوما فهو ينعى المسيرتين مسيرة الخط والحضارة معا قائلا في النهاية :

حتى إذا تقلص ظلّ الدولة الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران. إلى أن يقول « - وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمُتصفحها منها إلاّ العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيه من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة. ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول».

(المقدمة ص 985)

وفي آخر هذا الفصل وبعد عرضه لأُرجوزة شعرية مطولة وموجهة لمن يريد تعلم الخطّ حررها ابن البواب البغدادي كان أول بيت فيها :

يا من يريد إجادة التحرير

ويروم حسن الخط والتصوير

وآخرها :

وارغب لكفك أن تخط بنانها

خيرا تخلفه بدار غـرور

فجميع فعل المرء يلقاه غدا

عند التقاء كتابه المنشور

وبعد هذا القصيد الذي احتوى على كثير من التوجيهات المتعلقة بالخط ابتداء من اختيار نوعية القصب لصناعة الأقلام إلى كيفية خلط الحبر بـ «المغرة» - نوع من الطين - وتخميرها، واختيار أحسن الورق، إلى آخر القصيد الشهير عند الخطاطين.

بعد هذا القصيد يتولى صاحب المقدمة توجيه بعض النصائح الفنية لا يتقنها إلا خطاط بارع كابن خلدون الذي يقول: «فالخط المُجوّد كماله أن تكون دلالته واضحة بإبانة حروفه المتواضعة وإجادة وضعها ورسمها».

وبعد أن يشير إلى بعض الخطوط المخصوصة ببعض الكتاب كاستعمالها إشارات لبعض المفاهيم المتبادلة بينهم، ينهي الفصل بالحديث عن - فك المعمّى- وهو نوع من الخطوط التي تدخل فيما نسميه اليوم بـ « مفتاح الشفرات» ويقول [وللناس في ذلك دواوين مشهورة] (ص 961).

لكن ابن خلدون لم يقتصر على هذا الفصل الثمين بل إنه تعرض للخط وشؤونه في أكثر من فصل لاحقا في باب المعاش أو باب العلوم.

ففي فصل صناعة الوراقة يؤكد أنه «قد ذهبت هذه الرسوم - ما يتعلق بصناعة الورق التي تطورت عند العرب - يقول قد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله» لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله. كما يشير إلى صورة القلم عند وصفه لبعض الآلات الموسيقية في فصل صناعة الغناء بأنها في شكل بري القلم (ص966).

لكن أهم هذه الفصول اللاحقة والتي تتوزع في جنباتها شؤون الخط هو الفصل 33 «في أن الصنائع تُكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب»، فإذا تذكرنا قولة الجابري التي تصف المقدمة بأنها خطاب من العقل إلى العقل فإن هذا الفصل يكاد ينطق بسرّ هذه المقولة ويشرحها شرحا موفيا ولذلك سأنقل بعض لمساتها الموحية باعتماد ابن خلدون على العقل وعلى العقل وحده فلنسمعه يقول مثلا :

«فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد العقل، والملكة الصناعية تفيد عقلا لأنها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل، ومعاشرة أبناء الجنس، وتحصيل الآداب في مخالطتهم، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلّها قوانين تنتظم علوما فيحصل منها زيادة عقل. والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع، وبيانه أن في الكتابة انتقالا من الحروف الخطية على الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس وذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل». (ص972)

ثم لا ننسى حقيقة منهجية تنم عن عبقرية هذا الرجل الذي حرّر هذا الفصل في آخر باب المعاش (الاقتصاد السياسي) فهو كالجسر بين هذا الباب والباب الموالي في «العلوم». ولا شك أنّ العقل واستعمالاته المختلفة قدر مشترك بين ميدانين أساسيين في بناء أي مجتمع متحضر وهما الاقتصاد والعلم. فكأنّ ابن خلدون عمد إلى جعل هذا الفصل كالمعبر أو كالجسر العقلي ليلفت نظر الأجيال بعده أن للاقتصاد والعلم مكانة ممتازة في بناء الحضارة، إذ العقل المجرد يؤمن بذلك ويقرّه.

إبداع الخطّ العربيّ من خلال نقود إفريقية

خالد بن رمضان

من المؤكّد أنّ الغرب الإسلامي في العهد الوسيط ليس له نفس الثروة التي يملكها الشرق من قطع أثرية حاملة لنقائش خطية والتي تشكل بفضل تدرجها التاريخي ميدانا ثريا لدراسة تاريخ الكتابة العربية وتطورها.

لقد ضاع تماما عدد كبير من الكتابات الشاهدية والتذكارية وغيرها خصوصا في القرون الأولى للهجرة. وجملة الكتابات المعروفة قد وجد أغلبها في إفريقية وهي آتية من مقابر القيروان والمنستير والمهدية وتونس، ويرجع ذلك بالطبع إلى المجهودات الكبيرة التي بذلها الأستاذ سليمان بن مصطفى زبيس في تجميع هذه الشواهد وإعادة ترميمها وتشخيصها وتصنيفها ودراستها. وقد أبرزت الأعمال الجليلة لهذا الأثري أنّ هذه المجموعات جديرة حقا بالدراسة لأنّها تجلب انتباهنا لأساليب كتابة النقائش وتعدّد أشكال حروف الخط العربي فيها.

ولكن في خضم هذه المجموعات الأثرية والوثائقية، ولأسباب عديدة، انصرف المورّخون عن دراسة المسكوكات دراسة معمّقة وخاصّة بالنسبة للكتابات التي تحملها على وجهيها رغم توفّر صفات الوثائق الرسمية للدولة في المسكوكات، فالقطعة النقدية تحمل كتابات ورسوما وعلامات اختيرت ونقشت بكل عناية وبأفضل الأساليب.

ورغم كل العوائق التي تحول دون استعمالها كوثيقة تاريخية مثل صغر الحجم وصعوبة قراءة كتاباتها وعدم الاطلاع عليها والتي تفسر نفور المؤرّخين منها، تبقى القطعة النقدية من أفضل ما يعتمد عليه في مجال إرساء الحقبات تاريخ الكتابة العربية وتطورها بإفريقية والسبب في ذلك يتمثّل في توفّر المجموعات النقدية بصفة شاملة لجميع فترات تاريخنا العربي الإسلامي دون انقطاع.

والموضوع الذي نريد عرضه في هذه الدراسة هو في الحقيقة ليس بالغريب على الأثريين العرب والمستشرقين. وإنّما نريد أن نمعن النظر في مراحل تطوّره من خلال تقييم شامل لأكبر المجموعات المتحفية العالمية وبالتالي تتاح لنا فرصة تجزيء تاريخ الكتابات على النقود كلّما برز تغيير ملحوظ في أشكال الحروف التي تكون عادة على الأوجه الثلاثة : الأولى والوسطى والمنتهى أو الأخيرة.

هذا ما توحي به القراءة في جمالية الخط العربي. فالخطّاط هو فنان أو رسام يبذل جهدا لرسم شكل مثالي في نطاق نمط فني بصفة تعكس ما يخالج نفسه من أفكار هي في الواقع مرآة تعكس حيوية وخصوبة حضارة وسطه الاجتماعي.

فعلى هذا المنوال نشأ الخط الكوفي بأنواعه - مورق مزهر ومظفور ومربع - والخط اللين مثلما يتم وصفهما من خلال النقود الإفريقية ابتداء من ولاية موسى بن نصير إلى سقوط الدولة الحفصية.

بعد أن تمّت حركة الفتوحات وانتقلت عاصمة الخلافة من الكوفة - عند مقتل الإمام علي سنة 40 هـ / 660م - إلى دمشق التي أصبحت مركزا للخلافة وعاصمة للدولة العربية الأموية، أصبح العرب يولون اهتماما متزايدا للحياة الدنيوية، وهذا ما انجر عنه تقدّم ملحوظ في النحت والزخرفة والخط. ويرجع ذلك إلى ما قدمته زمرة من الفنانين والحرفيين والمنتمين إلى الأمم المفتوحة الذين مثلوا همزة وصل بين فني الفرس وبيزنطة والفن الإسلامي الناشئ. واتسم هذا المزيج الفني بصفة خاصة متمثلة في إعطاء الخط المنزلة الأولى وهذا ما تبرزه الآثار المختلفة التي تحمل كتابات سواء كانت على المعالم والتحف أو المصاحف والنقود أو غيرها. كما تمكننا وفرتها من تتبع تطور الخط العربي في العصر الأموي.

أمّا بالنسبة للحروف المستعملة في عهد الخلفاء الراشدين فقد أجمع الدارسون على تسميتها بالخط الكوفي نسبة لمدينة الكوفة التي لعبت دورا سياسيا هاما أثناء خلافة علي (رضي الله عنه) ما بين 35 و40 هـ حيث استعمل هذا الخط في أعمال التدوين.

وللخط الكوفي أقلام عديدة لها أصلان: اليابس (أو المبسوط) واللين (أو المنقور) فأوّل مستخدم في النقش على المواد الصلبة كالأحجار والأخشاب والمعادن والثاني مستعمل في كتابة المصاحف الكبرى.

وما يمكن ملاحظته من دراسة الحروف العربية ولاّة الأمويين بإفريقية، أنه الخط المنقوش في النقود عن دار ضرب القيروان، دنانير ذهبية كانت دراهم فضية أو فلوسا نحاسية يتميز باتخاذ أشكال مستقيمة لا تخلو من الزخرفة وهي متمثّلة في اتخاذ التقويس الطفيف للزوايا الحادة.

وممّا يجدر ملاحظته من الوهلة الأولى هو أنّه لا يمكن بأي حال فهم التطوّر الخطي الفنّي من خلال النقود دون الأخذ بعين الاعتبار التطوّر الذي يحصل في ميدان الكتابات الأخرى من شواهد قبور ونقوش تذكارية ورقوق مصاحف تم نشرها.

وتبدأ دراستنا بإعطاء مفهومنا للخط «وسيلة شكلية مرسومة لتأليف منظومة كلامية مقروءة على أساس لغوي أبجدي تعتمد على مجموعة من الحروف منسّقة التنظيم».

وبالمقارنة مع الكتابات الأخرى الإغريقية واللاتينية التي عرفت تطوّرا في حرفها منذ زمن بعيد، فإنّ الكتابة العربية رغم قصر تاريخها، تميّزت بتجاهلها للناحية الصوتية - أي عدم اندماج الإشارة الصوتية في الحرف-وهذا يتطلب مجهودا تصوريا لاستكمال الصورة المنطوقة للحرف.

إنه تطوّر الأشكال والأطرزة التي عرف بها الخط العربي ظهر تحت تأثير الفكر الإسلامي، فالإسلام هو العامل الجوهري في انتشاره وشيوعه وبقائه وقد عرف هذا الخط تطوّرا حسب تقنيات وأساليب وقيم جمالية يطلق عليها إسم قواعد الخط العربي وهي جملة من التحوّلات الكتابية: كل حرف له تحولاته الذاتية تدخل في نطاق مجموعة من الحروف في الكلمة الواحدة، والكلمات والعبارات بل وحتّى الجمل المدوّنة ككل. وما آلت إليه الأشكال المختلفة للخطوط كانت له أسباب ترجع إلى مؤثرات دينية وفنية وحضارية مثل الخط الكوفي بأنواعه والخطوط اللينة.

وللإجابة عن سؤال مؤثّرات وأسباب التطوّر المستمر للخط العربي، لا بدّ من الرجوع إلى ذكر العديد منها:

- الوظيفة اللغوية باعتبارها تحفظ من تشويه قراءة القرآن وذلك بالاعتماد على علم قواعد الخط الذي جاء على يد أبي أسود الدؤلي ويحيى بن عاصم (العصر الأموي) والخليل بن أحمد الفراهيدي (العصر العباسي).

- الوظيفة الحرفية.

- الوظيفة المتمثلة في التحكّم في الخامة التي يستخدم فيها الخط وتحت تأثير الفكر الديني (التوحيد والتجريد) واعتمادا على القواعد النحوية والبلاغية للغة، تكوّنت قيم جديدة للفكر اللغوي كانت منطلقا لاستنباط أشكال هندسية جيدة تعبر عن جانب تجريدي لجميع الحروف المرسومة فالحرف هو الجسد وقراءة أسلوب الرسم هو الروح.



اللّوحة الأولى : دينار أموي 117 هـ .



درهم أموي 117 هـ .

جدول الحروف 1

ظهر الألف الأولى ذو حنية سفلية على اليمين والألف والوسطى يرتبط مع الحرف الذي قبله.

أمّا حرف الباء وأخواته (تـ، ثـ، يـ، نـ) فهو مرسوم على مستوى الخط القاعدي يبتدئ بخط عمود يصل نصف طول الألف. ومجموعة حرف الجيم تتكوّن من خط منحن يشقّ الخط القاعدي. ونلاحظ التشابه بين مجموعتي حروف «الدال والكاف» بتقوير لقائم الدال واستوائه في شكل الكاف.

وفي ختام هذه المرحلة، نستخلص أنّ الخط الكوفي حقق تطوّرا تمثّل بالخصوص في الخروج مما ورثه من الخط النبطي - حنية الحروف وحدة الزوايا -.

فجلّ أشكال الحروف الأموية تكون متناسقة رغم سمكها وقصرها النسبيين كما يطرح جدول الحروف العربي في العصر الأموي مشكلة تشابه العديد من الحروف المجموعة من الحروف : باء أو جيم أو طاء أو راء.

وما سيوجد من حل لهذه المشكلة أو غيرها يشكّل في حدّ ذاته دخولا إلى مرحلة جديدة من أهدافها الأساسية مضاعفة الإثراء التقني والفني لهذا الخط الذي لا يفوق عمره القرن الواحد.

العهد العباسي :

بعد تغلّب العباسيين على الأمويين سنة 132 هـ / 749 م، اعتلى الخليفة أبو العباس عبد الله السفاح كرسي الحكم وانتقلت السلطة من الشام إلى العراق.

وممّا يلاحظ أنّ دراسة تطوّر الخط خلال القرن الثاني للهجرة صعبة وذلك راجع لقلة الكتابات الشاهدية أو التذكارية، وجملة الكتابات المعروفة وجد أغلبها في المباني ووجد البعض الآخر على أستار الكعبة.

ومن حسن الخط أنه المجموعات النقدية لهذه الفترة تتسم بالاستمرارية بحيث تشكّل النقود العباسية مصادر تاريخية أساسية وباستثناء التغيير الخفيف الحاصل في نص الكتابات، فإنّ أوجه الشبه عديدة فيما يخصّ الخط المستعمل: أي البساطة وحسن هندسة الحروف وتصريفها.



درهم عباسي 161 هـ .

فهذه الأشكال مماثلة للحروف الأموية حيث طوالع الحروف مستقيمة وزواياها مقرنة وخط قاعدتها مستوى بالتالي يكون التمييز بين الخط الكوفي الأموي ومثيله العباسي صعبا لولا وجود بعض الفوارق التي تختص

بها مجموعتا حرف الدال وحرف الكاف اللتان تسجلان تمديدا أفقيا للحرف الذي يقارب ضعف رسمه العادي.

وأخيرا، يبقى القرن الثاني للهجرة مرحلة انتقال رسخت في أذهان الخطاطين أصول الكتابة، كلما تأكّدت فيها صفات الكوفي بتحسين هندسة الحروف وترصيفها.

العهد الأغلبي:

إنّ الفكرة السائدة لدى جميع المختصين بفن الخط هو أنّ القرن الثالث للهجرة شهد تطوّرا كبيرا. وبداية هذا القرن توافق ظهور الدولة الأغلبية التي رغم تمتعها باستقلالية سياسية عن العاصمة بغداد عرفت نفس الظروف التي ساعدت على التطور الحضاري والعلمي والأدبي الذي يشهد به ما عرفه ميدان الخط من حيوية، إذ سجلت أسماء أكثر من عشرة مجودين للخط مثل الضحاك بن عجلان والأحول المحرر وخالد بن أبي الهياج وخنشام البصري وغيرهم من الذين اهتموا بتجويد خطوط المصاحف القرآنية. وقد شمل هذا التجويد كذلك الكتابات التذكارية التي تظهر بوضوح في دنانير ودراهم الأمراء الأغالبة.



دينار أغلبي 192 هـ.

جدول 2

تميّزت أشكال الحروف الأغلبية بظهور زخرفة من خصائصها:

النصف دائرة في أعلى الأحرف القائمة والقصيرة.

وتقويس قائم لبعض الحروف مثل الطاء والكاف والدال.

ولم يسجّل جدول أشكال حروف النقود الأغلبية أي تغيير عما وصف آنفا ما عدا ما جاء به دينار سنة 291 هـ / 903 م الذي يشكل استثناء هاما في هذه المجموعة لما اتصف به من عناية خاصّة في نقشه، إذ تطوّرت الأشكال وأطراف الحروف إلى التوريق البسيط وإلى فصين كما ظهر التزهير في أكثر من حرف.

العهد الفاطمي:

عرف الخط العربي في عهد الفاطميين تطوّرا ملحوظا يختلف عما جاء من قبل نظرا لما سجل من تجدّد في رسم الحروف ولواحقها الزخرفية ابتداء من سنة 324 هـ / إلى سنة 401 هـ وقد تم ذلك وفق عدّة مراحل (336، 339، 342، 387، 401، 413، 436، 441).

وهي مجموعة هائلة من الأساليب التي يمكن الحكم عليها بالتجديد والارتقاء طيلة القرن الرابع. كما أنّ أغلب ما أنتج في القرن الموالي أدّت لواحقه الزخرفية إلى نتائج سلبية والسبب في ذلك راجع إلى الأحداث التاريخية التي عاشتها إفريقية قبل رحيل الفواطم إلى الشرق حيث كانت الكتابات والنقوش المستعملة من فنانين ممتازين يكافئون على أعمالهم على أحسن وجه من طرف العائلة المالكة.

بينما ظهر الدينار الأوّل الفاطمي سنة 296 هـ مقلدا الدينار الأغلبي، أتى دينار 324 هـ./ 935م ليؤكّد الخروج من بساطة الخط الكوفي الأولي. وقد وجه اهتمام الفنانين إلى إتقان الزّخارف الكتابية باستغلال ما تتيحه الخطوط الرأسية والأفقية وأطراف الحروف النهائية من فرص إبداع. وبفضل ما تحتويه هذه المجموعة من الدنانير الفاطمية في القرن الرابع والنصف الأول من القرن الموالي، يمكن تمييز نماذج من أنواع الخط الكوفي ذي النهايات العلوية المزخرفة والكوفي المورق

والمزهر. فجملة ما استعمل من زخارف في هذه الدنانير يمكن حصره في عدّة مراحل:

324 : ظهور الحروف القصيرة برؤوس عريضة، ولواحق زخرفية منتهية بثلاث أوراق.

336 : قوائم سميكة وزهرة ذات فصين.

339 : الحروف ولها عرفات عالية ومنتهية بفصين.

343 : الحروف الصغيرة تأخذ انحناء إلى اليسار كما ينقص عرضها من الأعلى إلى الأسفل أي تفلطح.

387 : القوائم لها رأس دائري - لواحق منتهية بزهرة مثلثة الأوراق.

436 : الحروف صغيرة تنتهي في الأعلى بفصين والحروف الأخيرة لها لواحق صاعدة وتدور إلي اليمين وتنتهي بفصين.



دينار فاطمي 344 هـ.

جدول أشكال الحروف الفاطمية 3

ويظهر من تتبع النقود الفاطمية الزيرية خلال القرن الخامس للهجرة أن تطور الخط الكوفي على نوعيه المورق والمزهر تواصل في نسق سريع وأنيق فهي تمتاز بحسن رسم حروفها وبترتيب كلماتها وهذا يبرزه الاستعمال المتزايد للواحق الزخرفية للحرف الذي يمثل مظهرا حيا بتحريفاته وتثبيته وتصعيده وميله يمينا أو يسارا.

عهد الموحدين والأحفاص:

رأينا فيما سبق كيف انتشر استخدام الخط الكوفي طيلة الخمسة قرون الأولى على وجهي النقود الإفريقية، ونذكر أن هذا النمط تطوّر بصفة خاصّة بالشام في العهد الأموي قبل أن ينتقل إلى مدينة بغداد في العصر العباسي ليواصل تطوّره الجمالي على أيدي الخلفاء الفاطميين بالقيروان والمهدية ثم القاهرة.

وعند حلول منتصف القرن السادس، ظهرت النقود الموحدية بالخط اللين.



دينار حفصي 683 - 698 هـ.



درهم حفصي

جدول الحروف 4 - 5

وما يختصّ به هذا الخط اللين هو غياب الخط القاعدي واستقلال كلمة بخط مائل تكتب حوله الحروف التي تكون مرتبطة ببعضها البعض إذ كانت قصيرة ولها تقوسات طويلة في الحروف المطرفة بصفة تملأ بها المساحات الفارغة.

وما يلاحظ فيما يخصّ هذا الخط هو غياب قاعدة مضبوطة لرسم الحروف، فجاءت أشكال الحرف الواحد مختلفة حسب موضعه في الكلمة بل وحسب الخطاط الذي رسمه بكل حرية، فيكون الحرف قصيرا وغليظا ومختلف الأشكال.

وفي الختام، تشهد هذه الدراسة الوجيزة لنقوش النقود الإفريقية منذ بدايتها الأولى واستجلاء مظاهرها

في عصورها المتتالية، مزدهرة كانت أو متدهورة، على مدى أهميّتها في مجال تاريخ الخط. كما يمكن إبراز أبعاد تاريخية أخرى تأثّرت بها، ومنها السياسية والدينية والفكرية والتقنية. فلا يقتصر مصمم القطعة النقدية على العمل بصفة آلية بل له حتما روابط قوية من نظم وتقاليد تقنية وفنية تجعل بينه وبين الفنانين الآخرين علاقات مكانية وزمانية تؤثّر على الإنتاج. وهو في الحقيقة في منزلة تقليد لما تم إبداعه من أشكال وحروف في المصاحف القرآنية والنقوش الشاهدية والتذكارية التي تحظى بعناية فنية كما أن موادها (الرق، الكاغذ، جلد، رخام، إلخ) وحجمها لها تأثير مباشر على طريقة النقش أو النحت أو الكتابة، فالمادة المستعملة وأبعاد القطعة تفسر إلى حد بعيد الإمكانيات الفنية والتقنية التي أتيحت للناحت أو النقاش. . . .

وما قُدّم هنا إنّما هو صورة تقريبية لمراحل الخط العربي بإفريقية وفق تسلسل زمني متواصل، معتمدة على صفات القطعة النقدية وكذلك على نقائصها وهي لا تبعد كليا عن الحقائق التاريخية التي عرفها فن الخط على حدة وذلك قصد إبراز خصائها التي يمكن اعتمادها في دراسة تأليفية جامعة.

فمتاحفنا ومعالمنا ومكتباتنا تزخر بالآثار والتحف التي توحي بالمكانة المرموقة للحضارة العربية التونسية الإسلامية التي تألقت في سمائها مصابيح الدين والفكر والعلم والفن.

الأبواب في الأمثال والأقوال الشّعبيّة

سهام القلال

نتولى تقديم المادة القولية بجزئيها من أمثال وأقوال، استقيناها من أفواه الرواة والإخباريين من كبار السنّ ومن مختلف الأوساط والفئات الاجتماعية كما سمعناها بدون أدنى تصرّف. لا نعتبر أن نشأة هذه الأمثال والأقوال كانت حتما بصفاقس، ولا أنها تخصّ هذه المدينة فقط، بدليل وجود أمثال وأقوال مماثلة أو مشابهة لما سيرد في هذا البحث من حيث تركيبتها أو / ومعناها بمدن أخرى من البلاد التونسية، لكن ما يهمنا أنها متداولة بمدينة صفاقس، وبالتالي لها محتوى ومدلول يهمّ المجتمع المحلي بهذه المدينة، وفي أعقاب جمع وتدوين الأمثال والأقوال التي يرد بها لفظ الباب. سنحاول تبويبها بحسب المعاني التي يرمي إليها هذا اللفظ والحفر في أهم ما تتضمنه هذه المعاني من دلالات ما بين الواقعية والمجاز. وما تحمله من تصورات وتمثلات لمفهوم الباب ووظائفه، إذ هي تخرج بالباب من بعده المادي المحسوس ليس باعتباره مكوّنا من مكونات العمارة فقط وإنما بماله من أهمية في المخيال الشعبي (1).

يتركب المثل من حيث بناؤه اللغوي من جزئين: يمثل الجزء الأول الطرح والجزء الثاني جواب الطرح والطرح هو بمثابة مسند. يطرح الموضوع والمسند إليه هو جواب هذا الموضوع.

تُميّز هذه التركيبة الثنائية كل الأمثال تقريبا وهي ترد أو تقال وفق إيقاع موزون به سجع في مستوى صوتي. تربط ما بين الطرح والجواب أي المسند والمسند إليه، وفي الأمثال علاقة تماثل أو تكامل أو تعارض أو تضاد التركيبة والمعنى، والمثل هو القول السائر والمتعارف عليه بين عامة الناس وخاصتهم.

يأتي المثل للتعبير عن خلاصة تجربة أو رمز لموقف أو كناية عن شيء ما وعادة ما يلاقي المثل القبول والاستحسان لدى معظم الناس، لأنه كلام موجز اللفظ وموجه يحسن إصابة المعنى. يصبح متداولا على الألسن ويصير جزءا حيا من مخزون ذاكرة المجتمع وثقافته، أما القول فهو كلام مأثور سائر يتضمن إثبات معنى أو قيمة محددة ويعتمد على غرار المثل على الترادف أو التتابع السببي أو الإثبات والتأكيد في تقديم معناه، لكن ما يفرقُ بين القول والمثل أساسا هو الاختلاف في التركيبة اللغوية. يستند المثل ضرورة إلى الطرح والجواب والإيقاع الصوتي الذي يربط بينهما، أما القول فيعتمد هذه التركيبة الثنائية لكن الإيقاع الصوتي به لا يكون في أغلب الأحيان موزونا (2).

تقدم الأمثال الشعبية السائدة والأقوال المأثورة السائرة (3) التي يرد بها لفظ الباب الكلمة المفتاح أي الكلمة الأساسية والمحورية المعبرة طبق السياق اللغوي والمعنوي الذي تقال فيه معاني الانفتاح والانغلاق. تبرز هذه الثنائية في صور متعددة حتى يكاد ينفرد كل منها بمعنى محدد، وتجدر الإشارة إلى أن معنى الانغلاق ورد في الأمثال دون الأقوال التي تم جمعها.

تحيلنا الأمثال إلى المعاني المتنوعة للانغلاق وإلى درجات الغلق ومستوياته حسب صوره المجازية المتعددة، وبالتالي دلالاته المختلفة من خلال استعمال هذه المصطلحات -سكّر- و-سد- حيث تكون الدعوة مباشرة لإغلاق الباب من خلال مصطلح سكر الباب وتكون ملحة وشديدة من خلال كلمة -سد-. وترد الدعوة إلى إغلاق الباب للوصول إلى قيمة إيجابية في مجتمع تقليدي يكون للواعز الديني أمر أساسي في ثقافته، وبذلك يخرج الباب من صورته الواقعية إلى صورته المجازية ليصبح الحد الفاصل ما بين ما هو مسموح به اجتماعيا وأخلاقيا ودينيا وما هو مرفوض في معنى التحرّي في التكسب وتجنب التبذير وإدخال المال الحرام إلى الدار، هذا ما يفيده المثل:

-سكّر باب دارك على غبرة الفي-. يرد فعل- سكّر- هنا في صيغة الأمر، في قالب خطاب موجه إلى الآخر. يحثّه على إغلاق بابه وهي دعوة ملحة. تستمد إيجابياتها من بعدها المحافظ على اتقاء معصية الله في التكسب. تنطلق هذه الدعوة من خصوصية الواقع الذي نشأت فيه، وبالتالي يؤكد هذا المثل على قيمة أساسية ويثبتها من خلال هذه الدعوة الملحة إلى إغلاق باب الدار. لا تشمل الدعوة إلى إغلاق الباب والتأكيد عليها كافة الأبواب على إطلاقها بل هي مرتبطة بباب معين، هذا الضبط في ماهية الباب يوجه معنى وغاية الانغلاق. يتضمّن إغلاق الباب بعد الحماية لدفع الأذى أو الشر. يرد في صورة مجازية على غرار هذا المثل:

-الباب إلّي يجيك منه الريح سدّه وأستريح، فالباب محدد بهذا المثل وهو الباب الذي يكون مصدر الريح ولذلك يجب غلقه طلبا للراحة وهو معنى مجازي يفيد البحث عن الأمن والحماية. يعبّر إغلاق الباب عن الانتقال من مرحلة إلى أخرى. تشترط الأولى بالثانية ضرورة ولا يجب الخلط بينهما، ففي هذا المثل:

- ما تقول خذيت كان ما تسكر باب البيت-. يرد معنى التتابع في ارتباط وضع بآخر حيث يكون في الجزء الأول- ما تقول خذيت- وهي الوضعية الأولى التي يطرحها المثل- كان ما تسكر باب البيت-. وهو الجواب عن الطرح وبذلك يكون إغلاق الباب تتويجا لمرحلة أولى لبداية أخرى، ولكنها ترتبط بالأولى كشرط لازم لتحقيقها. تأتي صورة إغلاق الباب كخيار أكيد لا مفر منه ردّا على وضع ما يكون فيه الباب المغلق الحل الأنسب لضمان نوع من التواصل مع الآخر، وبذلك تكون الدعوة إلى إغلاق الباب ذات مضمون توجيهي، إرشادي، ترتبط بما تمليه قيم المجتمع التقليدي، فالمثل القائل:

- إعمل كيف جارك وإلاّ سكر باب دارك-. تبرز بها صورة غلق الباب لتعكس لنا خصوصية التعامل الاجتماعي ما بين الأجوار. وقد تتجاوز الدعوة إلى إغلاق الباب سواء كانت جريئة وحازمة أو ملحة أو في ارتباطها بشرط محدد أو وضع ما إلى تقديم الأفضلية المطلقة لصورة الباب المغلق، في قالب حقيقة واضحة لا خلاف فيها، مفادها أن الباب المغلق لا بديل عنه. ففي هذا المثل:

- باب مسكر ولا كرية مشومة- تبرز الإيجابية المطلقة لصورة الباب المغلق مقارنة بفتحه لكرائه.

إذن تتنوع صورة الباب المغلق المجازية بهذه الأمثال وتتعدد تمثلاتها ودلالاتها انطلاقا من تصورات الناس لمفهوم الباب ووظائفه من خلال الدعوة إلى إغلاق الباب أو الأمر بذلك بإلحاح أو الإقرار التام بالأفضلية المطلقة في إغلاقه.

إن تأكيد هذه الأمثال على القيم والمعاني الإيجابية لصورة الباب المغلق المجازية تعكس أحد أوجه ثقافة المجتمع التقليدي، الذي تعد به فكرة الانغلاق جوهرية وأساسية في تعامله مع الآخر ومع محيطه. فالمسكن التقليدي منغلق على نفسه ولا ينفتح على الخارج إلا بواسطة منفذ وحيد. تتحدد بالتالي علاقته مع الآخر في حدود منطق المحافظة على أقصى قدر من التستر والحميمية. تقترن بهذه الأمثال التي تفرزها ثقافة هذا المجتمع فكرة الانغلاق بمعنى الحفاظ على قيم اجتماعية وأخلاقية وضرورة إثباتها.

تقابل هذه الأمثال مجموعة من الأقوال. تطرح صورة الباب المفتوح، ولئن كانت الدعوة إلى إغلاق الباب صريحة ومباشرة في صيغة الأمر أو ذات طابع توجيهي، إرشادي في ارتباطها بوضع محدد، أو شرط ما أو بسبب أكيد يدفع إليها. تكون صورة الباب المفتوح بالأقوال معطى بديهيا دون قيد أو شرط يدعو لذلك، ولئن تمحورت كذلك دعوة الانغلاق حول باب البيت أو باب الدار. تستمد صورة الانغلاق أساسا من الباب بنعته كعنصر معماري، بينما يقترن معنى الانفتاح بأبواب أخرى. يقال:

- باب لله- و- باب العرش- و- أبواب السما- في بعدها المجرّد. تنقلب بذلك الصورة تماما، ويتباين المعنى. يصبح الانفتاح مرادفا لمصدر الخير والرزق في صور مجازية متنوعة على غرار قول:

- الباب محلول والرزق على الله- وقول: - تحّلت أبواب السما بالماء-. يرد معنى الحلّ بهذين القولين باعتباره مصدرا لجلب الرزق والماء، والماء هو رمز الخير في الثقافة الشعبية. يأتي لفظ الباب بالقول الأخير في صيغة الجمع للدلالة على كثرة الصور المجازية. تستمد معناها من إيجابية وثراء صورة الباب المفتوح. نتبيّن إحدى هذه الصور في قول:

- باب الله باب الفاتح الكريم-. حيث يرد لفظ الباب مرّتين لإثبات معنى المماثلة بين- باب الله- و- باب الفاتح الكريم-. يرتبط بالتالي معنى الانفتاح بباب محدد وهو باب الله الذي يرد في صيغة الفرد ولكنه يفيد في تصور قائله معنى الوفرة، فكل باب مفتوح هو باب الله. يقصد هذا الباب المؤمن في كل توجه إلى الله وفي كل طلب إليه في أي زمن كان. يراه مفتوحا أمامه ويخشى انغلاقه. يقترن معنى الانفتاح من خلال الأقوال التي تمّ جمعها بمعنى الرزق والماء والكرم، ممّا يعكس لنا جانبا من ثقافة المجتمع. يربط معنى الانفتاح أساسا بالكسب المادي. توظّف هنا صورة انفتاح الباب للدلالة على معنى البحث عن الكسب، التي لا تكون إلا من باب الله ومن باب السّماء. لا تتعارض في حقيقة الأمر مع الدعوة إلى إغلاقه للحفاظ على قيم إيجابية. ينادي بها المجتمع التقليدي، لكن مع اختلاف في المعنى المجازي. تقترن به صورة الانفتاح وصورة الانغلاق.

تسمع هذه الأقوال التي تطرح صورة الباب المفتوح عند كل بداية في ارتباطها بمفهوم الاستفتاح. تقترن بمعنى الكسب المادي في المناداة للبيع. يشرع الدلاّل عند كل صباح بالدعوة إلى فتح الباب لانطلاق الكسب. تأتي هذه الأقوال عادة عند الصباح، وعند الشروع في إنجاز فعل ما أو الإقدام على مهمّة قد تكون صعبة، وهو إقرار بالتالي بأن كل طلب يقترن بضرورة فتح الباب. تتعدد صيغ استعمال لفظ الباب في الأمثال والأقوال السائرة من خلال نعتها. تتنوع صورها المجازية وهو ما يعكس ثراء دلالاتها في الذاكرة الشعبية. تتلون صورة الباب مع كل قول. تتطرق إلى جانب آخر متفرّد، فالذاكرة الشعبية الحافظة لهذه الأقوال. تستمد من مكنونها تصورات متنوعة. يأتي الباب في معنى النهاية من خلال مضمون هذا القول:

- إن شاء الله قد الصحّة قد العمر حتى باب القبر.

يرد- باب القبر- هنا في مفهوم المنتهي من كل شيء وعلامة النهاية. يتناقض هذا المعنى بهذا القول مع صورة انفتاح الباب، الذي يقترن بمعنى البداية والانطلاق في الأقوال السالفة الذكر. يتباين مفهوم الباب في صورة مجازية أخرى. يصبح رمزا للاتساع والكبر والأهمية القصوى أحيانا على غرار قول:

- قسم العروس والعروسة عل باب العرش-. يتوكّل على باب العرش الكبير باعتباره رمزا للخير والبركة. يكاد يتماثل في نفس المقصد للدلالة على معنى الاتساع والأهمية من خلال المثل القائل:

- حلّو غمزة ردهالو باب الجبلي-. يستمد معنى الاتساع من كبر باب الجبلي في حدّ ذاته استنادا إلى أهمية أقيسته المادية الحقيقية و- الغمزة- هي إشارة العين القليلة الانفتاح. يقابلها في معنى الاتساع - باب الجبلي-. تتضمّن كلمة الباب معنى التميّز. تدل على نوعية الانتماء الاجتماعي من خلال الوصف الذي يليها، حيث يكون وصف إطار الباب وزخرفته إشارة

إلى مدى ثراء أصحاب هذا الدور. ويصبح الباب علامة دالّة على التميز الاجتماعي على مثال قول:

- باب دار أكابرية بالكذال المنقوش والدقاقتين والببّوش-. أصبح سائرا على كل أبواب دور المدينة، كناية عن مدى ثراء زخرفها.

إذن تتعدد المعاني حول لفظ الباب بهذه الأمثال والأقوال الواردة. تتنوع الدلالات التي تتضمنها ما بين الواقعية والمجاز. يكون الباب في معنى البداية والمنطلق كما يدل على النهاية. يتضمن صور الانغلاق التي تقابلها تمثّلات الانفتاح. يحتوي لفظ الباب كذلك مفهوم الاتساع والأهمية في أبعادها المجازية والحقيقية والمادية. تستمد هذه التعابير المتعددة من البيئة الثقافية بالمجتمع التقليدي لتعكس سلوكاته وقيمه وتمثلاته. وتدل على تنوع مفاهيم الباب في الذاكرة الشعبية.

يُروى أنه كانت بسور المدينة أبوابٌ صغيرة ومحدودة الأقيسة. تكاد لا تعرف لدى عامة الناس، لكن ظلّت أصداء وجودها إلى الزمن الحالي، مفادها أنّ أعيان وقيّاد المدينة كانوا يلجؤون إليها للخروج من المدينة في تستر تام عند الحصار أو انعدام الأمن وتسمى- بواب غدر-. عرّف أبو بكر عبد الكافي بثلاثة أبواب منها، يسمّى الواحد منها باب غدر، وهو باب كان بالقصبة من الجهة الغربية بسور المدينة، وباب ثان كان شرقي باب الديوان، وباب ثالث كان بشرقي باب الجبلي (4). أثبتت أشغال ترميم القصبة وجود آثار لأحدها. نرجح أن أبواب الغدر، قد تكون ضمن ما يروى من قصص وأساطير. تحوم حول فتحات وأبواب سور المدينة. تتردد على ألسنة الناس كصدى لبعض الأحداث والصراعات. عاشتها المدينة في بعض فترات تاريخها، وضمن الأقوال التي ترد عن دواعي فتحها وظروفه والواقع الذي ارتبطت به ما يعطي لهذه الأبواب أهميتها من حيث رمزيتها وأبعادها الدلالية المتعددة المصاحبة لها.

نتبّن من خلال هذه المقاربة المتواضعة لما تمّ جمعه من أمثال وأقوال، بأن دراسة هذه المادة الإخبارية تعدّ مدخلا أنثربولوجيا ثريا لتناول بنية ثقافة المجتمع التقليدي من مختلف الجوانب، من خلال تنوع دلالات الصور المجازية لكلمة الباب في المخيال الشعبي.

الهوامش والإحالات

1) أيوب (عبد الرحمان)، الذاكرة و اللهجات، مجلة افريقية، سلسلة الفنون و التقاليد الشعبية عدد 12، المعهد الوطني للتراث 1998.

2) انظر: محاضرة حول التراث الشعبي ألقاها الناصر البقلوطي في دورة تدريبية لمديري و منشطي دور الثقافة، جوان 2001.

3) للإطلاع على نماذج من الأمثال الشعبية التونسية أنظر: الخميري (الطاهر)، منتخبات من الأمثال العامية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967. (الزواري) علي (والشرفي) يوسف(معجم الكلمات والتقاليد الشعبية بصفاقس، مطبعة سوجيك، صفاقس، 1998.

BALEGH (Hedi), PROVERBES TUNISIENS, Editions La Presse, Janvier, 1993.

4) عبد الكافي (أبو بكر)، تاريخ صفاقس، الحياة العمرانية، الجزء الثاني، تعاضدية الطباعة والنشر، 1966، ص 58.

أهمّيّة التّراث الشّعبيّ بولاية سليانة وكيفيّة استغلاله في التّنمية السّياحيّة

سنية الحمزاوي

يعد التراث محور الرهانات المتعددة والأساسية باعتباره تراثا مشتركا بين أفراد المجموعة ذا أهمية كبرى بالنسبة للسياحة وجزءا لا يتجزأ من حياتنا.

ولكسب هذه الرهانات ينبغي القيام بتحليل الوضع الراهن من أجل التفكير في كيفية تثمين التراث التونسي من خلال السياحة. كما أن الميراث المادي واللامادي في مختلف أشكاله (معالم ومواقع أثرية، تقاليد وفنون شعبية) هو مزيج يمثل أساس الهوية الوطنية والإقليمية والمحلية، يمكن استخدامه واستغلاله للرقي بالسياحة الثقافية وتنميتها تنمية مستديمة.

إن استراتيجية التنمية المستديمة تثري في نفس الوقت هاجس المحافظة على التراث الطبيعي والثقافي من ناحية وإعادة إحياء التراث من ناحية أخرى كما أنها تمكن من احترام التنوع والاختلاف الثقافي بين الشعوب.

إن التقرير الدولي الذي أصدرته منظمة الأونسكو عن التنوع الثقافي عام 2001 يرنو إلى المحافظة عليه واعتباره كنزا حيا ومتجددا، إذ أن التنوع الثقافي لا يجب أن يكون تراثا جامدا بل آلية تضمن البقاء البشري.

ويؤكد التقرير على أن الثقافة هي مجموعة الملامح الروحية والمادية والفكرية الفعالة والتي تجسم المجتمع أو مجموعة بشرية، ويأخذ مفهوم الثقافة بعدا مزدوجا : الهوية والاقتصاد.

أما مفهوم التراث فلا يقتصر على المتاحف والمعالم الأثرية فحسب بل يجب أن يمتد إلى التراث العلمي والبحري والطبيعي والفني خاصة منه التراث الشعبي.

وتأخذ الثقافة أشكالا متنوعة على مر الزمان والمكان وهذا التنوع يتجسد في أصالة وتعدد الهويات التي تصبغ المجموعات والمجتمعات المكونة للبشرية، وهو بذلك يعتبر منبع التبادل والاكتشاف والإبداع. فالتنوع الثقافي هو بالنسبة للنوع البشري أساسي كالتنوع البيولوجي في سنة الحياة. وفي هذا السياق يشكل تراثا بشريا مشتركا بحيث يجب أن يكون حاضرا أو متعارفا عليه عند الأجيال الحاضرة والقادمة.

إن طابع الديناميكية الناتج عن التعددية الثقافية يكون فرصة للتبادل الثقافي وفتح الأفق للقدرات الخلاقة التي تغذي الحياة العامة، فكل إبداع له جذور تقليدية ثقافية كما أنه يتطلع أيضا الى التواصل مع الآخرين. لهذا يجب الحفاظ على التراث وإبرازه بمختلف أشكاله

ونقله إلى الأجيال القادمة كشاهد على التجربة والطموح البشري، وذلك بهدف إثراء الإبداع في مختلف أشكاله وتحقيق الحوار بين الثقافات. هذا يعني بأنه يتوجب على كل شعب أن يترك شاهدا ما على حياته اليومية لكي يثبت وجوده وليعبر عن قدراته الخلاقة ويحافظ على أثره في التاريخ.

يجسم التراث باعتباره حاويا للذكريات القيمة الرمزية للهويات الثقافية ومرجعا لصياغة مستقبل المجتمعات. ويحتوي التراث الثقافي الشعبي على الملامح التقليدية الثقافية الحية التي تشمل التقاليد والتعابير اللفظية بما فيها اللغات والفنون الاستعراضية والمهارات في مجال الصناعات التقليدية.

تعتبر السياحة اليوم من أولى النشاطات العالمية الاقتصادية، وهي أيضا عنصر للتبادل الثقافي يلقي على كاهل الأطراف المعنية مسؤولية كبيرة وهي إظهار الاختلاف الثقافي وإرساء الحوار بخلق تفاعل ثقافي. وتلعب السياحة دورا هاما في التعريف بتراثنا الثقافي وجعله في متناول الجميع، فبدون سياحة لا يوجد تنوع ثقافي ملموس بشكل جمالي ولا يوجد تفهم للقيم التي يحتويها ويعبر عنها.

إن عملية بعث المسالك السياحية لفائدة الزوار المتأتية من جميع أنحاء العالم يجب أن تشمل علاوة عن المعالم المعروفة مواقع اكتشفت حديثا أو أخرى لم تكن مقترحة من قبل، حيث لا يؤول مصيرها إلى النسيان ويتحقق ذلك بالتعاون مع الوكالات السياحية.

إن اقتراح مسالك ثقافية وسياحية ببلادنا من شأنها أن تمكن الزوار من اكتشاف تراث معماري وموسيقي وحرفي متشابه أو مختلف عما عهدوه. كما أن اللجوء إلى وسائل الإعلام الحديثة بما فيها الإنترنت تقرب العموم من التراث الثقافي وتجعله في متناول الجميع إلا أنه ينبغي الاعتناء عناية خاصة بالمعلومة والتفسيرات الموضوعة على ذمة الناس.

يتحقق في ميدان السياحة الحوار بين الثقافات من خلال التفاعل بين الزائر والمضيف، والموقع والمعالم والآثار الموجودة ويقول Claude Levi-strauss ما معناه : «التنوع ناتج عن تواصل الجماعات وليس عن انعزالها» والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : كيف يمكن للسياحة أن تستغل التراث الشعبي بولاية سليانة لتحقيق نمو دائم مبني على المعرفة وإبراز قيمة التراث الثقافي؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يستحسن تقديم ولاية سليانة والتعريف بمكتسباتها.

تمتد ولاية سليانة على 4642 كم أي ما يساوي 3% من مساحة الجمهورية التونسية وتتميز الجهة بموقعها الجغرافي المميز، فهي تمثل مركزا للتبادل التجاري لسبع ولايات تحيط بها على الشكل التالي : من الشمال الشرقي ولاية باجة، من الشمال الغربي ولاية جندوبة، الكاف غربا، زغوان والقيروان شرقا، القصرين وسيدي بوزيد جنوبا.

ولقد وقع تدعيم هذا المكسب الجغرافي للولاية بشبكة طرقات كثيفة في نطاق مشروع إعادة تهيئة هذه الشبكة وتعزيز بنيتها التحتية وإنجاز مشاريع تنمية مثل بعث وحدة الشغل عن بعد في مجال الاتصالات والإنترنت، وتأسيس معهد عال للعلوم والدراسات التكنولوجية.

وتتمتع هذه الولاية بثروة طبيعية وخصائص بيئية متميزة بروعة المناظر الطبيعية وكثرة وتنوع الأشجار والنباتات الغابية وتواجد المياه المعدنية بجوفها وتوفر الحيوانات البرية. لذا تمثل الجهة موقعا هاما للرقي بمشاريع سياحية وما يتبعها كالصناعات التقليدية وذلك بفضل مواقعها الأثرية والبيئية وفنونها وتقاليدها الشعبية. ومن بين هذه المواقع التي تمثل ذخرا لولاية سليانة نجد بقايا مدن وقرى وضيعات فلاحية ومنشآت مائية وآبارا وحنايا وسواقي ومقابر جلمودية. كما نجد بها مواقع أثرية بمكثر و زامة وقبر الكليب واللاس وكسرى. فهذه الجهة إذن مجهزة لتحقيق تحوّل فعّال إذا ما وقع استغلال مكتسباتها وتم وضع استراتيجية تنموية ناجعة ترمي لإبراز تراثها المادي واللامادي.

وبفضل موقعها الجغرافي تطمح ولاية سليانة أن تلعب دورا هاما في تطوير النشاط السياحي : كالسياحة الثقافية الواعدة المدعمة بروعة آثارها وحضارتها العتيقة، السياحة الطبيعية والبيئية من خلال المناطق الخضراء والتضاريس المميزة زيادة على الصيد البري. وتجدر الإشارة هنا أن المواقع التاريخية بهذه الجهة تشكل تراثا ثريا يعود إلى فجر ما قبل التاريخ وصولا إلى الحقبة الإسلامية. وهذه الآثار هي أروع دليل على الحضارات التي توالت على هذه المنطقة (بونية، رومانية، نوميدية، بيزنطية، إسلامية...) ولحفريات تشهد على تواجد الإنسان البدائي وذلك من خلال الشواهد البدائية، المغارات والدلمان. كما أن الجهود التي بذلتها الدولة لأجل تطوير البنية التحتية وشبكة الطرقات سهلت على السائح الاطلاع على هذا الذخر الممتع وسوف نرى تزايدا في عدد السياح مرتبطا ارتباطا وثيقا بإنشاء متحف ولاية سليانة.

إن غابات سليانة الخضراء والنقية تشكل فضاءا ملائما لتعاطي العديد من الأنشطة : نزهات، اكتشاف وجولات إلى ينابيع الماء والجداول، نقاهة حقيقية وهواء عليل بعيد عن التلوث، فضاء للصيد البري حسب المواسم : كصيد الخنازير البرية، الحجل، الأرانب البرية، السمان، وطيور أخرى.

وفي ما يتعلق بالتراث اللامادي يجب تكريس الجهود لتحقيق دراسة شاملة علما أنه من الممكن العثور على اختلافات في العادات من تجمع سكاني لآخر.

هذه الدراسة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار المعطيات التالية :

1 - الحرفيين من خلال منتوجهم وأدوات عملهم : فالميراث الفني لحرفيّي سليانة لم يعد متداولا لدى الأجيال الجديدة، كما كان الحال عليه في المجتمع التقليدي، حيث كانت هذه المهارات ضرورة معيشية، كما تقلص عدد الحرفيين بسبب الاستغناء على منتوجهم في الحياة اليومية واستبدالها بمنتوجات حاملة للحداثة. ومن بين مهن الحرفيين الريفيين نساء كانوا أو رجالا نذكر هنا :

- حرفيي النسيج : النداف - الحائك - الحبال - الغزالة.

- حرفيي الحجر والأرض والتربة : نحات الحجارة، حرفيي الأردواز، الخزاف، البناء، صانع الآجر.

- الزجاج : صانع الزجاج

- حرفيي المعادن : الحداد، النحاس، صانع الأقفال

- حرفيي الخشب : الحطاب، النجار، السلال.

- حرفيي الجلود : السراج، الإسكافي....

2 - هندسة المنزل التقليدي : إن ملامح منظومة الفضاء الخاص والعمومي تحددها الممارسات الاجتماعية والثقافية لكل مجتمع وهي تسمح بدراسة أسلوب الحياة اليومية والاحتفالات والأعياد كما تحدد هندسة المنزل التقليدي بالنسبة للعادات الغذائية مكان اقتناء المأكولات وخزنها وطرق تحضيرها واستهلاكها.

3 - المطبخ وأدواته : إن السلوكيات الغذائية اليومية تعبر عن طرق تحويل المواد الغذائية سواء كان ذلك لخزنها أو لتحضير الأطباق، كما تعبر عن طرق استهلاكها وإعادة استخدام المتبقي. أما السلوكيات الغذائية الطقوسية فهي تبرز خصوصيات المنطقة والرمزية التي تحملها مختلف الأطباق. تمثل أدوات المطبخ إرثا شعبيا يضبط مختلف أنواعها ويحدد استخداماتها في ولاية سليانة.

4 - الثياب والملبس : بما في ذلك الملابس اليومية خلال فصول السنة، ملابس الشعائر والاحتفالات الدينية لمختلف الأعمار، وكذلك حافظات الملابس كالصناديق الخشبية.

5 - أدوات الحمام والزينة : نذكر من بينها الابريق،

الدلو، قفاز الحمام والصابون المستخدم ومستلزمات الحمام النسائي والزينة في الحياة اليومية وفي المناسبات وأدوات الحلاقة لدى الرجال.

6 - الحلي : يمكن تصنيف الحلي والمجوهرات وقطع الزينة النسائية حسب استخدامها ورموزها والمفاهيم التي تشير إليها.

7 - الموسيقى والرقص والغناء : بما في ذلك الآلات الموسيقية المستخدمة بالمنطقة بالإضافة إلى أهازيج الفرح وأغاني الحزن والتعبير الجسدي من خلال الرقص ورمزيته.

8 - الصيد وأدواته : ومنها معدات الصيد والأسلحة وكمالياتها وأساليب صيانتها وكذلك مختلف طرق الصيد.

9 - معدات العمل والمعايير وأدوات القيس : وذلك في ميدان الفلاحة والتجارة ومختلف الأعمال والمهن مع تحديد ووصف المعدات المستخدمة.

10 ـ المصابيح وأجهزة الإنارة المستعملة في المنطقة.

11 - الألعاب واللعب من سن الطفولة حتى الكبر والقصص والأساطير.

12 - الممارسات العلاجية والتطبيب : يوضح لنا مفهوم المرض عند الناس مختلف أساليب العلاج الشعبية والممارسات التي تتولد عنها.

13 - الشعائر والممارسات الدينية : وهي ذات علاقة وثيقة بأساليب العلاج وتستخدم لحل المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها السكان في حياتهم اليومية.

وتوجد مجالات أخرى للبحث ومكونات أخرى يجب تحديدها والتعريف بها وهذا يكون بمواصلة البحث وتطويره.

لتثمين الثقافة السياحية يجب تحقيق «الاستمرارية» وبذل الجهود في ميدان التراث المادي واللامادي استجابة لمتطلبات الاستهلاك السياحي وذلك بالتماشي مع منطق «السوق». والاستراتيجية التي يجب اتباعها هي :

ـ إعطاء الأهمية لتبادل المعارف والخبرات وتحسين ممارسات التعددية الثقافية، وتسهيل إدخال واشراك شخصيات ومجموعات من الميدان الثقافي. ويمكن تحقيق هذا بعد القيام بدراسة أثنوغرافية تهتم بعراقة هذه المنطقة.

ـ المحافظة على الإرث اللغوي أي اللهجة والتمسك بالتعابير اللفظية التي تتجسد في الأمثال الشعبية والقصص والأساطير والخرافات.

ـ تعزيز الهوية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية وهذا يتحقق بمعرفة جيدة لتراث المنطقة والمحافظة عليه. إن أخلاقيات وقيم السياحة الثقافية تفرض على كل العناصر المعنية إتاحة إمكانية الاستكشاف المفيد للسائح بالإضافة إلى فرص للتسلية والترفيه، وبذلك يتلقى التشجيع للاختلاط بمحيط اجتماعي غريب عليه لكنه أيضا يدعوه للمشاركة في حياته واكتشاف ثقافته.

ـ تحسيس العموم بقيمة تراثهم الشعبي وبأهمية هذا المكتسب.

ـ احترام وحماية المهارات في التراث الشعبي والاعتراف بقيمتها في الثقافة الوطنية والمحلية والعالمية.

ـ تشجيع «الأبجدية الرقمية» وتطوير استخدام تكنولوجيا معلوماتية واتصالات حديثة إذ أنها تعتبر منظومة تربوية بناءة ومكسبا بيداغوجيا مهما لدعم فعالية الخدمات التعليمية المتعلقة بالتراث الشعبي.

ـ إنشاء سياسة تربوية وتأهيلية في الثقافة الفنية والاتصال من أجل تحسين الخدمات العمومية في مجال الثقافة التراثية، مما يجعل مجال التراث ميدانا للخلق والإبداع خصوصا بعد إعادة نشره وتعميمه. وهذا يتحقق من خلال القيام بحملات تحسيسية للمجموعة وتقديم تظاهرات ثقافية كتنظيم «أسبوع إقليمي للتراث» لفائدة التلاميذ والطلبة وإنجاز ندوات

حوار تجمع كل الأطراف المعنية، وذلك للنهوض بتنمية الفنون الشعبية.

كل هذا لا يتحقق إلا بتضافر الجهود بين السياحة والثقافة والمحافظة على التراث بالإضافة إلى إشراك وإدماج المجتمع في تطوير السياحة وتعزيز الرقي وتحقيق مشاريع السياحة والصناعات التقليدية.

المصادر والمراجع

1) UNESCO, «Déclaration universelle de l'UNESCO sur la diversité culturelle», UNESCO 2002

2) ICOM, «Proposition pour une charte des principes pour les musées et le tourisme culturel», ICOM publications 2002

3) Chambre de commerce et d'industrie du Nord-Ouest, «Siliana», CCINO publications Intrenet 2004

4) Claude Lévi Strauss, «Anthrologie structurale», Paris 1958

مراجعات في النّقيشة المنسوبة إلى ابن أبي الرّجّال عالم الفلك القيرواني و وزير المعز بن باديس (426 هـ / 16 نوفمبر 1034 - 4 نوفمبر 1035 م)

لطفي عبد الجواد



إن الوثيقة المعنية بهذه المراجعات هي عبارة عن قطعة من نقيشة مؤرخة بسنة 426 هـ / 1034-1035م. وهي -على حد علمنا- لم تنشر بعد، وإنما كانت موضوع مداخلة قديمة للفقيد حسن حسني عبد الوهاب أشار إليها بصفة عرضية هادي روجيه إدريس في أحد هوامش كتابه عن الدولة الصنهاجية

(1). ونظرا إلى أنها تحمل اسم ابن أبي الرجال فقد اعتمد عليها أغلب الباحثين معتقدين بأنها «شاهد قبر» لتحديد تاريخ وفاة عالم الفلك المعروف ووزير المعز بن باديس ورئيس ديوان الإنشاء في بلاطه أبي الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني القيرواني.

خلال هذه المراجعة سيتم فك رموز هذا النص وتصحيح طبيعته ببيان صفته التخليدية ودحض الصفة الجنائزية عنه، وعلى تأكيد نسبته إلى هذه الشخصية المذكورة أعلاه وكذلك على دراسة كتابته المؤرخة وإدراجها في سياقها من تاريخ الفن الإسلامي في تلك الفترة.

كانت هذه النقيشة موجودة بمستودع المعهد الوطني للتراث بالقيروان (أولاد فرحان) وقد تم نقلها إلى مخازن متحف فنون الحضارة الإسلامية برقادة. ويبدو أنها كانت محفوظة منذ سبعينيات القرن الماضي بأحد مخازن معهد الفنون والآثار بمدينة تونس، وذلك حسب ما أشار اليه الشاذلي بويحيى في كتابه عن الحياة الأدبية في إفريقية (2). ولكن هناك مؤشر وحيد يمكن أن يُستدل به للحصول على هذه المعلومات يتمثل في رقم جرد مكتوب على ظهر النقيشة :271، وهو ما لم نتوصل إليه حتى الآن.

هذه النقيشة هي عبارة عن لوحة من الرخام الأبيض مستطيلة الشكل (34،5 صم x 23،7 صم) يبلغ سمكها 3،5 صم. وهي مقطوعة بطريقة منتظمة قد تدل من الوهلة الأولى على أن النص مكتوب على مجموعة من اللوحات المرمرية مثل نقيشة أسوار مدينة صبرة المنصورية (437/ 1045) والتي تتألف من ستة قوالب من الرخام. ولكن البتر الحاصل في النص وتحديدا في الحافة اليسرى للوحة (حوالي 5 صم) يدل على أنها قطعت لاحقا وأعيد استعمالها لغرض معماري غير معروف. ويظهر السطح الخلفي للوحة شديد الصقل وربما دل ذلك على أنها كانت عنصر تبليط قديم مصقول من الجهتين استعملت إحداهما لكتابة النص أو ربما دل أيضا على أنها صقلت لاحقا من أجل إعادة استعمالها كمادة بناء أو كحلية معمارية. وتجدر الإشارة إلى أن الحاجة إلى تثبيت ألواح التخليد الرخامية أو الحجرية في الجدران اقتضت في أغلب الأحيان ترك الجهة الخلفية على شكل شبه خام أو مشذب بطريقة عشوائية تؤمن الالتصاق أو التلاحم الأفضل بينها وبين مواد الربط.

وقد كتب هذا النص بخط كوفي مزهر بارز بالغ الإتقان شبيه إلى حد كبير مع كتابة نقيشة أسوار صبرة المنصورية (437/ 1045). ولم يصلنا من هذا النص سوى سطرين اثنين، تبدو الكتابة فيهما في حالة جيدة ما عدا حواشي اللوحة التي تأثرت بعملية القطع التي أدت إلى بتر نهاية الأسطر وكذلك قواعد الحروف ونهاياتها العلوية.

النص :

....

....

[............. بن] ابي الرجال الكاتـ[ـب]

[........ سـ]ـنة ست وعشريـ[ـن] واربعمائة

التعليق على الجوانب التاريخية :

هذا النص مبتور كثيرا ولم يصلنا سوى جزئه الاخير. وبالرغم من ذلك فإن كثيرا من الأدلة تساعد في التعرف على طبيعته وتؤكد أنه نص تخليدي رسمي وليس شاهدا قبريا كما ذهبت إلى ذلك المراجع المذكورة أعلاه. وأول هذه الادلة الحجم الكبير لحروف الكتابة حيث يصل ارتفاع الألف إلى

11 صم، الأمر الذي يندر وجوده في شواهد القبور وعلى الاخص المكتوب بالاسلوب البارز منها. وأما الدليل الثاني فيتعلق بخاتمة النص فهو ينتهي بالتاريخ وبطريقة غير مبتورة بل فيها إرادة ملء الفراغ من خلال تصعيد كلمة فوق أخرى («وأربعمائة» فوق كلمة «عشرين») مثلما يظهر في نقيشة أسوار صبرة المنصورية، وهو ما يجعلنا على يقين من أنها النهاية الحقيقية للنص، وهو ما يكاد يندر وجوده في شواهد القبور بصفة عامة. ولو كان الأمر كذلك لكتبت هاتان العبارتان في المستويات العادية من حقل الكتابة، ولكان النص مشفوعا بإحدى الصيغ المعروفة في هذا الشأن مثل «وهو يشهد أن لا اله إلا الله...» أو «رحم الله من قرأ ودعا له بالرحمة»... وأما الدليل القاطع فهو عدم موافقة تاريخ النقيشة مع التاريخ المستنبط لوفاة الشخصية المذكورة بها (ابن أبي الرجال) (3). فقد اعترض P. Pingree على هذا التاريخ (426 هـ) بحجة أن ابن أبي الرجال يذكر في كتابه «البارع في أخبار النجوم» أحداثا لاحقة لهذا التاريخ مثل خبر موت أحد الأمراء الكلبيين في صقلية سنة 429 / 1037 واسمي شخصين لم يعف عنهما المعز بن باديس سنة 439/ 1047-1048 وشخص آخر هرب سنة 440/ 1049 ...(4).

وبالرغم من النقص الشديد الحاصل في النص فإننا نجد كثيرا من الارتياح في نسبته إلى الأمير الصنهاجي المعز بن باديس الذي حكم فيما بين 406 و453 هـ / 1016-1062م. فالتاريخ الوارد في نهاية النقيشة ينضوي في هذه الفترة والاسم السابق لهذا التاريخ معروف، بل إن لقب الكاتب المتصل به يدل على رفعة مكانته. وقد أشرنا في مقالين سابقين عن نقائش المعز إلى اقتران هذا اللقب بخطة الوزارة وخاصة في نقائش التخليد الرسمية (5) (أحمد بن زاهر في نقيشة أسوار صبرة المنصورية والقاسم بن محمد بن أبي العرب في نقيشتي أسقف الجامع الأعظم 413-414 هـ وأبي القاسم بن أبي عبود في مقصورة المعز بن باديس 416-435 هـ، الخ ...) هذه الأسماء المشفوعة بلقب الكاتب جاءت في هذه النقائش مباشرة بعد اسم المعز بن باديس مسبوقة بعبارة «على يدي» تدليلا على توليهم الإشراف على الأشغال المذكورة أحيانا (أسوار صبرة المنصورية) والمفهومة أحيانا أخرى من خلال موضع النقيشة (أسقف جامع عقبة). فابن أبي الرجال هنا هو المشرف على الأشغال. ويمكن تصور هيكلة هذا النص المبتور على ضوء مدونة نقائش المعز التي عادة ما توفرت على صيغ مثل «البسملة» و«التصلية» وعلى آيات قرآنية وعلى عبارة «مما أمر بعمله» أو اسم الإشارة «هذا» / «هذه» ثم اسم الآمر بالأشغال بألقابه أو بدونها، ثم تأتي بعد ذلك الإشارة إلى طبيعة الأشغال والغاية من ورائها فالمشرف على الأشغال بألقابه ثم التاريخ. وتجدر الإشارة إلى أن هذه النقيشة هي الأولى زمنيا ضمن مدونة المعز التي تحمل تاريخ الاشغال (والأرجح أنه تاريخ نهاية الأشغال).

أما بالنسبة إلى طبيعة هذه الأشغال فإنه لا يمكن لنا بأي حال التعرف عليها في غياب إشارة واضحة أو على الأقل معطيات غير مباشرة مثل الموضع أو حتى المكان الأصلي للنقيشة. لكن هناك مؤشر هام يوحي به أسلوب الكتابة. فهذه الأخيرة شديدة التشابه مع كتابة أسوار صبرة المنصورية التي ستنجز بعد 11 سنة من تاريخ نصنا، وهذا التشابه الواضح يسمح بإمكانية نسبتهما إلى الورشة ذاتها بل وإلى النقاشين ذاتهم. ومن ثم يمكن حصر هذه الأشغال في إحدى الأعمال المعمارية الرسمية التي شملت مدينة صبرة المنصورية التي ستعزز وتحصن لتصبح فيما بعد «مدينة عز الإسلام». ولكن هذا الاستنتاج لا ينفي بالطبع إمكانية شمولها لأشغال أخرى بمدينة القيروان عامة. ونشير في هذا المضمار إلى أن

جملة الأحداث التي سجلتها مصادرنا في حدود التاريخ الوارد في نصنا أو حتى فيما قبله لا تساعد كثيرا على حل هذا الإشكال، وهو ما لم تجب عنه أيضا وإلى الآن الحفريات الأثرية الدائرة بالمدينة. وأما بالنسبة إلى الاسم الذي جاء في النص فقد ورد مبتورا ومقتصرا على عبارتين تؤلفان كنية هي «ابي الرجال». وتساعدنا المصادر المختلفة في هذا الباب على تخطي هذه الصعوبة، فهي تتحدث عن شخصية برزت في عالم السياسة والعلوم في الفترة التي ينضوي فيها نصنا تحمل هذا الجزء من الاسم المذكور في النص وكانت مؤهلة آنذاك للإشراف على الأعمال الإنشائية الرسمية. هذه الشخصية هي أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني القيرواني الذي يخبرنا ابن عذارى أنه كان وزير المعز ابن باديس وأنه هو الذي رباه «في حجره . . . وأدبه، ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك، ولا أهل القيروان» (6) وهو الذي حظي أيضا بوافر المدح من كثير من معاصريه وخاصة ابن رشيق القيرواني أحد أعوانه في ديوان الإنشاء وصاحب كتاب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» الذي أهداه إياه. وفي هذا المقام لن نفرد لابن أبي الرجال ترجمة نظرا للعدد الكبير من المنشورات حوله (7) ولكننا نشير إلى أن النسب المذكور في النص - «ابن أبي الرجال» - يحمله أشخاص آخرون ليست لهم علاقة بعمل التخليد الذي توحي به النقيشة. أحد هؤلاء يدعى محمود بن أبي الرجال وهو ابن أبي الحسن علي صاحب نصنا والذي كان هو الآخر كاتبا وشخصية بارزة في البلاط الزيري ولكن يستبعد أن يكون هو، وذلك بالنظر إلى علاقته المتوترة مع المعز الذي غضب عليه زمنا (8) ولم يعف عنه إلا بتدخل من الأميرة أم العلو أخت المعز(9). وبالإضافة إلى ذلك فقد حفظت لنا مقابر القيروان شاهدين أحدهما لعبد الله بن أبي الرجال المتوفى سنة 435 هـ / 1044-1043م (10) والثاني لمحمد بن أبي الرجال الهواري الرهدار المتوفى سنة 444 هـ / 1052-1053م (11). أما الأول فيمكن أن يكون أخا لأبي الحسن بالنظر إلى اشتراكهما في النسب أو أن يكون أحد أبنائه مثل محمود الذي يذكره ابن الأبار باسم محمود منسوبا إلى جده أبي الرجال ولكنها في الحقيقة كناية عن أبيه أبا الحسن علي الوزير. وأما الثاني فينتسب إلى قبيلة هوارة البربرية وهو من الرهادرة الذين امتهنوا تجارة الأقمشة الرفيعة (12). والأرجح أن لا علاقة لهذا الاخير بكاتب المعز المنتسب إلى قبيلة بني شيبان العربية (من ربيعة) والمنتمي إلى عائلة اشتغلت كثيرا بالسياسة والأدب والعلوم وبلغت من الشهرة حدا وصفت فيه «ببرامكة إفريقية» (13).

التعليق على الجانب الفني للكتابة(14):

بالرغم من البتر الحاصل في النص ومن قلة الحروف التي وصلت إلينا وكذلك من الضرر الذي حصل لبعضها فإن لهذه النقيشة أهمية بالغة لأنها نص رسمي مؤرخ من ناحية وبالنظر إلى تشابهها الكبير مع نقيشة أسوار صبرة المنصورية المذكورة أعلاه.

1 ـ نوعية الخط : كوفي مورق ومزهر.

2 ـ أسلوب الكتابة : بارزة.

3 ـ قاعدة الكتابة (15) : أفقية صلبة مع وجود كتابة على مستويين («عشرين وأربعمائة»)

4 ـ أدوات الربط بين الحروف :

ـ منعدمة (بين «الباء» و»الياء» في «أبي»)

ـ قصيرة (بين «اللام» و»الراء» في «الرجال»)

ـ حيد ½ دائري (بين «اللام» و»الكاف» في «الكاتب» والنبرة و»التاء» المربوطة في «أربعمائة»)

5 ـ وصف الحروف (16) :

1 ـ العصي (17) :

ـ مستقيم عمودي + نهاية سفلية قائمة الزاوية مقعرة ومدببة : ا (الرجال)

ـ مستقيم عمودي + نهاية علوية عريضة مقعرة ومدببة : ا (أربعمائة)

ـ مستقيم عمودي + نهاية علوية عريضة مقعرة ومدببة + نهاية سفلية على شكل بروز مدور نسبيا ومدبب : ـا (أربعمائة) / ل لـ (الرجال)

ـ منحنى : ـكـ

ب- الاجسام (18) :

ـ زاوية قائمة + نهاية علوية عريضة مقعرة ومدببة ينشأ عنها غصن ينتهي بزهرة ثلاثية متناظرة : بـ (أبي)

ـ زاوية قائمة + نهاية علوية عريضة مقعرة ومدببة : بـ (اربعمائة) / ـنـ ([سـ]نة) / يـ (عشريـ[ـن])

ـ زاوية قائمة + نهايتين علوية و سفلية عريضتين مقعرتين ومدببتين : ـت (ست)

ـ حنية وحنية معاكسة صاعدة + نهايتين علوية وسفلية عريضتين مقعرتين ومدببتين : جـ (الرجال)

3 ـ أسنان عمودية قائمة ومتدرجة + نهايات عريضة ومدببة : سـ (ست) / ـشـ (عشريـ[ـن])

ـ ورقة ثلاثية متناظرة داخلها دائرة صغيرة + بروز في القاعدة على شكل ½ دائرة : ـعـ (أربعمائة)

ـ ¼ دائرة + مستقيم أفقي + نهايتين علوية وسفلية عريضتين مقعرتين ومدببتين : عـ (عشريـ[ـن])
ـ دائرة : ـمـ (أربعمائة)

ـ ½ دائرة + سن قائمة زاوية قائمة + نهاية علوية عريضة مقعرة ومدببة : ـه (سنة)

ـ ¼ دائرة مدببة من الاعلى : و

ـ مستطيل مفتوح إلى الأسفل مدبب من الأعلى: ـي

ـ مستطيل إحدى زاويتيه منحنية : ـكـ (الكاتب)

أ ـ الذيول (19) :

ـ ¼ دائرة + نهايتين علوية و سفلية عريضتين مقعرتين ومدببتين : ر (أربعمائة) ـر (الرجال)

ـ مستقيم أفقي + نهاية عريضة ومقعرة ومدببة: و

ـ منحنى صاعد + مستقيم عمودي + زاوية قائمة + نهاية عريضة مقعرة ومدببة + غصن مورق ينتهي بزهرتين ثلاثيتي البتلات : و

من خلال هذه العناصر تعبّر النقيشة عن مدى عمق التطور الذي بلغته أساليب الكتابة العربية بإفريقية في الربع الأول من القرن الخامس للهجرة. ومن بين العلامات على ذلك الانشغال المكثف للفنان بمسالة إحداث التوازن في حقل الكتابة. وتجدر الإشارة إلى أن هذا التوازن مفقود أصلا بسبب تفاوت ارتفاعات الحروف. وأما الحلول التي استنبطها لتجاوز ذلك في تطويع الحروف القصيرة مثل الجيم والذيول مثل الواو والصعود بهما إلى أعلى معانقة مستويات الحروف المرتفعة، وكذلك من خلال ملء الفراغات إما بواسطة الزخارف المنفصلة أو الناشئة عن الحروف أو أيضا بواسطة تصعيد بعض الحروف والكلمات إلى مستوى ثان في نفس السطر (وأربعمائة). كل هذه المعطيات تكسب نصنا هذا مزيدا من الأهمية خاصة إذا ما تم إدماجه في سياق مدونة النقائش الرسمية المنسوبة إلى الأمير الصنهاجي المعز بن باديس بدءا بأشرطة أسقف ومقصورة الجامع الأعظم بالقيروان وصولا إلى نقيشة أسوار مدينة صبرة المنصورية.

الهوامش والإحالات

1) المؤلف لا يشير لا إلى تاريخ إلقائها ولا إلى مكان نشرها، أنظر :
IDRIS (Hedi-Roger), **La Berbérie orientale sous les Zirides,** publications de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien - Maisonneuve, Paris, 1962, vol. 2, p. 810, note n° 197 («Dp. Une communication de H. H. ABDULWAHAB, la pierre tombale d'Ibn Abi l-Rijâl est datée de 426 h. / 1034-1035»)

2) انظر :
BOUYAHYA (Chedly), **La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides,** Thèse de doctorat es-lettre, Tunis, S.T.D., 1972, p. 84, note n° 1 « Date portée par la stèle d'I. A. Rijâl conservée à l'Institut d'Archéologie et d'Art de Tunis. »

3) هذا التاريخ مجهول في المصادر التاريخية والأدبية.
4) انظر :
PINGREE (P.), «Ibn Abî L-Rijâl » E.I. 2 (1975), vol. III, p. 709.

5) عبد الجواد (لطفي)، «نقيشتين جديدتين بالجامع الأعظم بالقيروان»، مجلة افريقية، المعهد الوطني للتراث، العدد 20، 2004، ص. 41-49 ؛ عبد الجواد (لطفي)، «نص تخليدي جديد من الفترة الصنهاجية بالجامع الأعظم بالقيروان (7 ربيع الثاني 413/ 10 جوان 1022-25 جمادى الأولى 414/ 15 أوت 1023) الملتقى الدولي حول تاريخ القيروان، 2006، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، (تحت الطبع)
6) المراكشي (ابن عذاري)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط. 3، تحق. ج.كولان و ل. بروفنصال، الدار العربية للكتاب، تونس 1983، ج. 1، ص. 273-274.
7) انظر المراجع التالية والاحالات البيلوغرافية التي تتضمنها :
IDRIS (H.-R.), La Berbérie orientale sous les Zirides, Paris, 1962, vol. 2, p. 810 ; BOUYAHYA (Ch.), La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides, Tunis, 1972, p. 83-88 ; PINGREE (P.), « Ibn Abî L-Rijâl » E.I. 2 , vol. III, p. 709-710.

8) تواصل هذا التوتر إلى ما بعد وفاة والده، وهو ما تنبأ له به هذا الأخير.
9) ابن الابار، أعتاب الكتاب، دمشق، 1961، ص. 214.
10) انظر :
ROY (Bernard) et POINSSOT (Paule), Inscriptions arabes de Kairouan, vol. II, fasc. 2, C. Klincksieck, Paris, 1958, n° 408, p. 549-550.

11) انظر :
ROY (Bernard) et POINSSOT (Paule), inscriptions de Kairouan, 3ème partie, publiée avec le concours de S. M. ZBISS, Notes et Documents, 3ème série, vol. 5, Institut National d'Archéologie et d'Art (I. N. A. A.), Imprimerie al-ASRIA, Tunis, 1983, n° 504, p. 35.

12) حول الرهادرة انظر محفوظ (فوزي)، «رهادنة القيروان وافريقية»، مجلة افريقية، العدد 16، 1998، ص. 13-37.
13) ابن الأبار، أعتاب الكتاب، ص. 214. انظر أيضا الشاذلي بويحيى، حوليات الجامعة التونسية، 1967، عدد 4 ص. 102، رقم 2.

14) لدراسة الجوانب الفنية وقع اعتماد المنهجية التحليلية الموجودة ببرنامج معالجة النقائش العربية عبر النظام الاعلامي EPIMAC الذي استنبطه S. ORY من جامعة Aix-En-Provence بفرنسا.
15) قاعدة الكتابة خط وهمي ترسم عليه قواعد الحروف يحقق الدقة في الأفقية أو في الانحناء أو في الميلان.
16) لتحقيق النجاعة في الوصف تُجزأ هذه الحروف إجرائيا إلى ثلاثة مكونات : العصي والأجسام والذيول. هذه المعطيات تمكننا من تصنيف أولي لأشكال الحروف وطرق رسمها في فترة معينة، الأمر الذي يساعد على تتبع مختلف أطوار الكتابة. ويقع الانطلاق في هذه العملية من جدول توزيع الحروف (اللوحة رقم 5) حيث تجمع الأشكال المشتركة دون اعتبار التسلسل الأبجدي ثم يتم إجمال أهم المميزات الفنية في آخر كل عنصر يتم وصفه في شكل ملاحظات.
17) تشمل العصي نظريا الحروف التالية : ا / ط / ظ / ك / ل / لا / الـ
18) تشمل الأجسام نظريا الحروف التالية : ب ت ث / ج ح خ / د ذ / ر ز / س ش / ص ض / ع غ / ف / ق / م / ن / هـ / و / ي
19) تشمل الذيول نظريا الحروف التالية : ج ح خ / ر ز / س ش / ص ض / ع غ / ق / ل / م / ن / و / ي

دراسة عظام آدمية لأطفال موقع الياسمينة - قرطاج

سهام رودسلي الشابي

لقد تمّ العثور على هذه العظام الآدمية أثناء الحفريات التي أجراها فريق أمريكي في نطاق التعاون بين متحف قرطاج وجامعة جورجيا (Georgia) تحت إشراف الدكتورة Naomi Norman بموقع الياسمينة بقرطاج وهي تعود إلى الفترة الرومانيّة. لقد نشرنا في عدد سابق من مجلّة «Africa» دراسة معمّقة للعظام الأدميّة المنتمية للكهول والمراهقين. وتهتمّ هذه الدّراسة بالعظام الآدميّة للأطفال. لقد عثر على هذه العظام الآدميّة. كانت كل العظام مختلفة فكنت تجد الكهول مع الأطفال والذكر مع الإناث. والقبر الواحد كان يمكن أن يحتوي على أكثر من جثة وكانت بعض العظام موجودة داخل حاويات.

لقد قام الفريق الأمريكي بوضع محتوى كلّ قبر في صندوق على حدة، ولذلك عند دراستنا لهذه العظام اتبعنا نفس النظام ولقد استندنا إلى الدراسات التي قام بها كلّ من Fazekas I. Gy و Koza F. وStlookal M. و Hanàkovà H بالنسبة لتحديد السن للعظام ودراسة Ubelaker. D. H. بالنسبة لتحديد السّن عن طريق الأسنان.

الصندوق رقم II :

يحتوي على فكّ سفلي (Mondibule): تمّت إعادة إلصاق مختلف الأجزاء وتحصلنا على فك سفلي بكامل عناصره.



هذا الفك ينتمي إلى نوعية (Mésognathe) أي أنه معتدل الطول والعرض والغصن الصاعد يتميز بعرضه مقارنة مع علوّه. وتمّ تحديد السّن عند الوفاة بالإعتماد على الأسنان الموجودة على الفكّ. إنّ ضرس ضاحكة I

(1ere Prémolaire): في صدد البروز وهذا يوافق السّن عند الوفاة ما بين 9 و12 سنة. أمّا ضرس الناجذ الأيمن والأيسر (1ere molaire) فهما ظاهران وهذا يدل على أن السنّ عند الوفاة كان ما بين 9 سنوات و9 سنوات ونصف. أمّا ضرس الضاحكة II(2ème Prémolaire) فوجوده يدلّ على أن الوفاة حصلت في 12 سنة ونصف.

نقدّر السن عند الوفاة ما بين 9 و12 سنة ونصف.

الصندوق رقم III :

يحتوي على - عظمي العضد (2 humérus).



وهما ينتميان إلى شخصين مختلفين وذلك حسب مظهرهما وحجمهما، فطول الأول يبلغ 208 مم موافق لسن عند الوفاة من 10 إلى 14 سنة وطول الثاني 170 مم وهو ينتمي لطفل توفّى عن سنّ ما بين 6 إلى 8 سنوات.

- عظم الكعبرة (Radius) الأيسر وكان الطول 126 مم وهذا يناسب سنّ الوفاة ما بين 6 و7 سنوات.

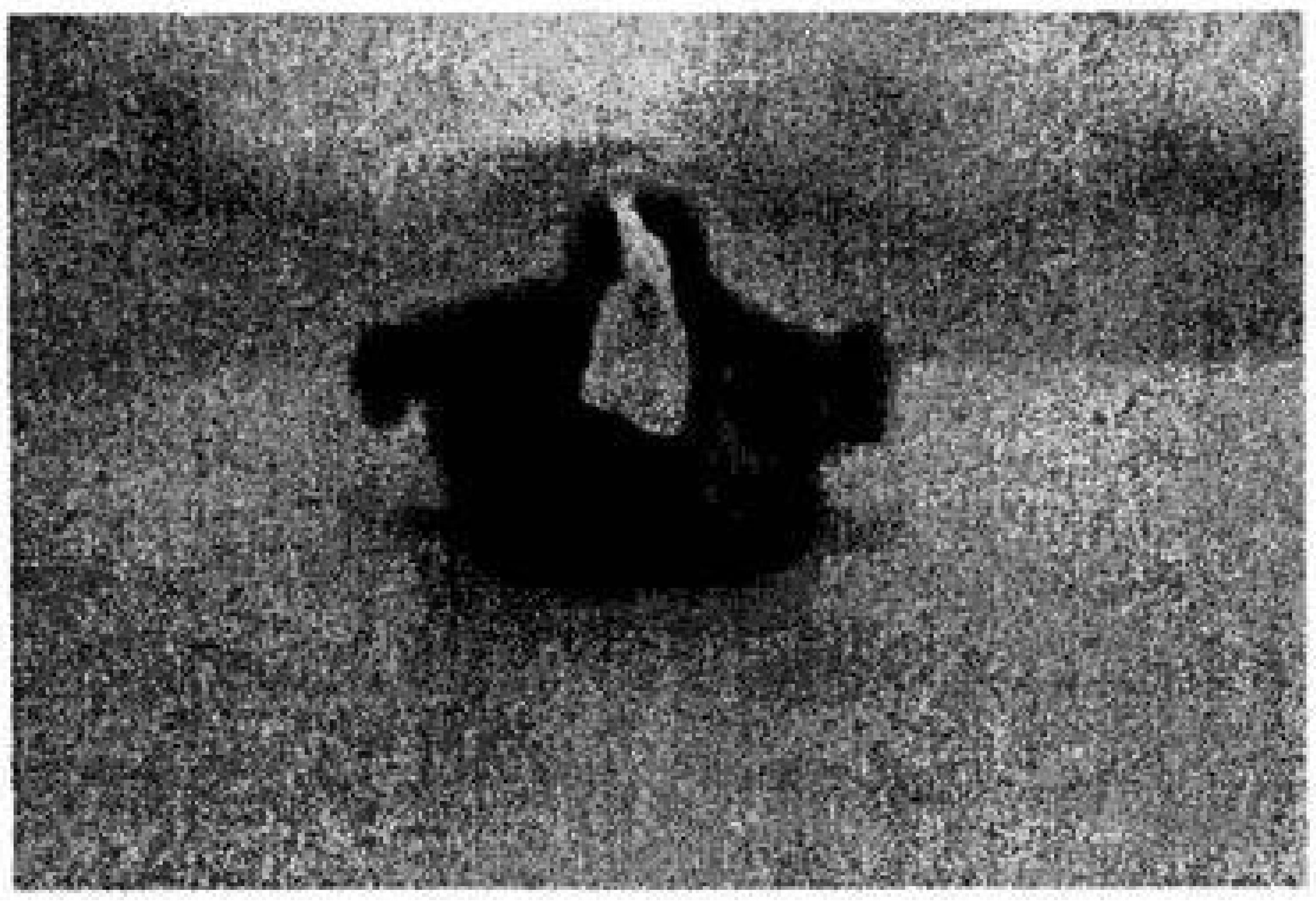
- عظما الزند الأيمن (Cubitus) يبلغ طول الأول 87 مم وهو يوافق السّن عند الوفاة ما بين 12 و18 شهرًا ويبلغ طول الثاني 173 مم يوافق وفاة الطّفل في سنّ ما بين 8 و11 سنة.

كما أن هذا الصندوق يحتوي على عظام الرّجل (Métatarse) وهي تنتمي لطفل لا يفوق سنّه عند الوفاة 12 سنة لأنّ مختلف أجزاء هذه العظام يبتدئ الالتحام في ما بينها من 12 سنة لتنتهي عند سنّ 18 إلى 22 سنة.

الصندوق رقم VIII:

يحتوي على: - جمجمة: متمثلة في مختلف أجزائها التي لم تلتصق بعد. فنجد عظم الجبين والجداري (2) (pariétaux) وعظم الصّدغي (2 temporaux) وعظم مؤخرة الرأس (Occipital). هذه الجمجمة تنتمي لطفل صغير وذلك اعتمادا على مظهرها وحجمها ونحافتها وبالإعتماد على المقاييس فهذه الجمجمة من نوع (Dolichocrâne) أي طويلة وذات جبين عريض (Eurymétope).

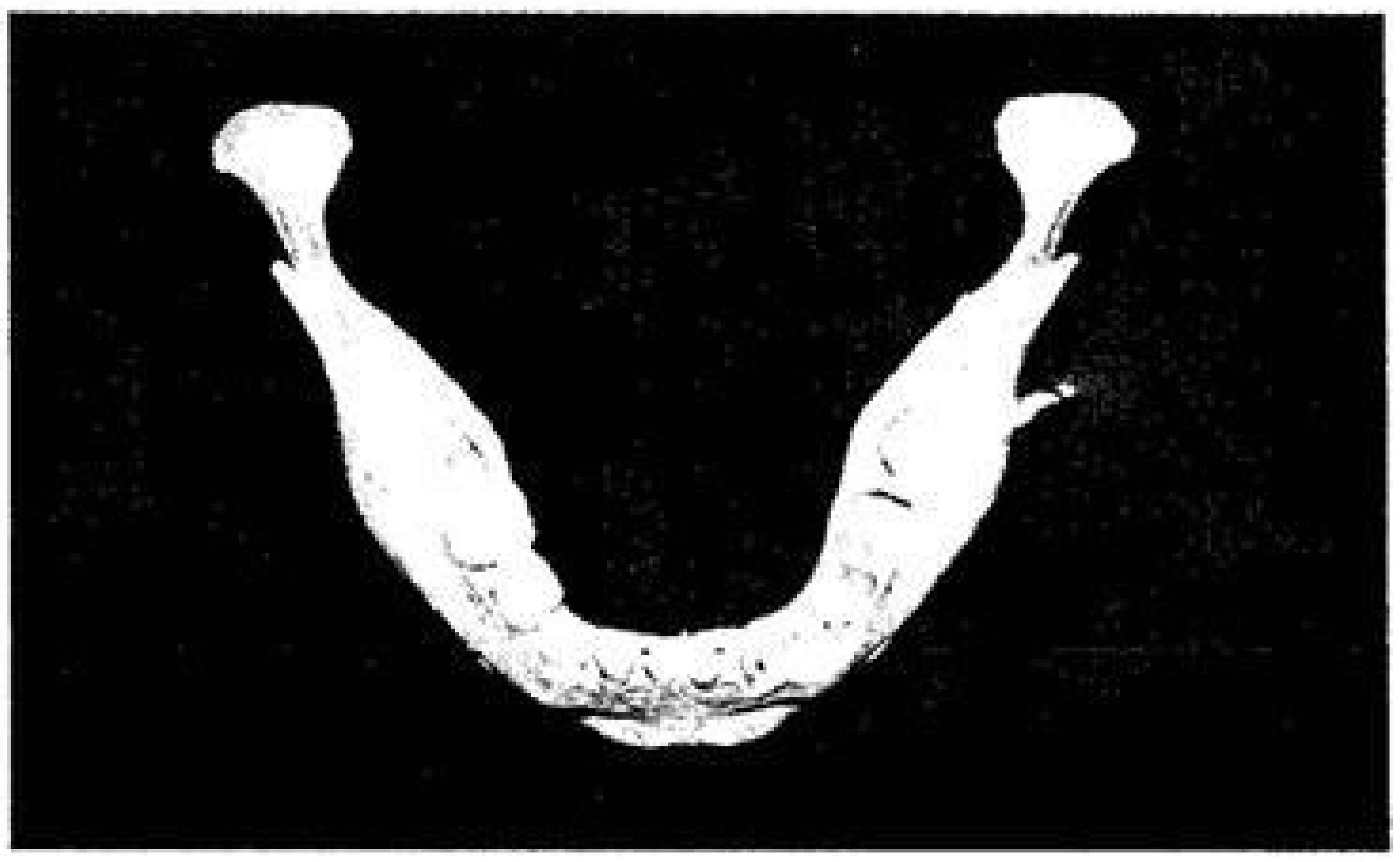
- الفك العلوي (Maxillaire supérieur).



صغير الحجم، نلاحظ أن فتحة الأنف على شكل (cœur renversé) وأن سقف الفم طويل وعميق. ووجود ضرس الضاحك I،II الوقتية من الجانبين

والضرس الناجذ I في صدد البروز. هذا دليل على صغر السّن عند الوفاة : حوالي 6 سنوات.

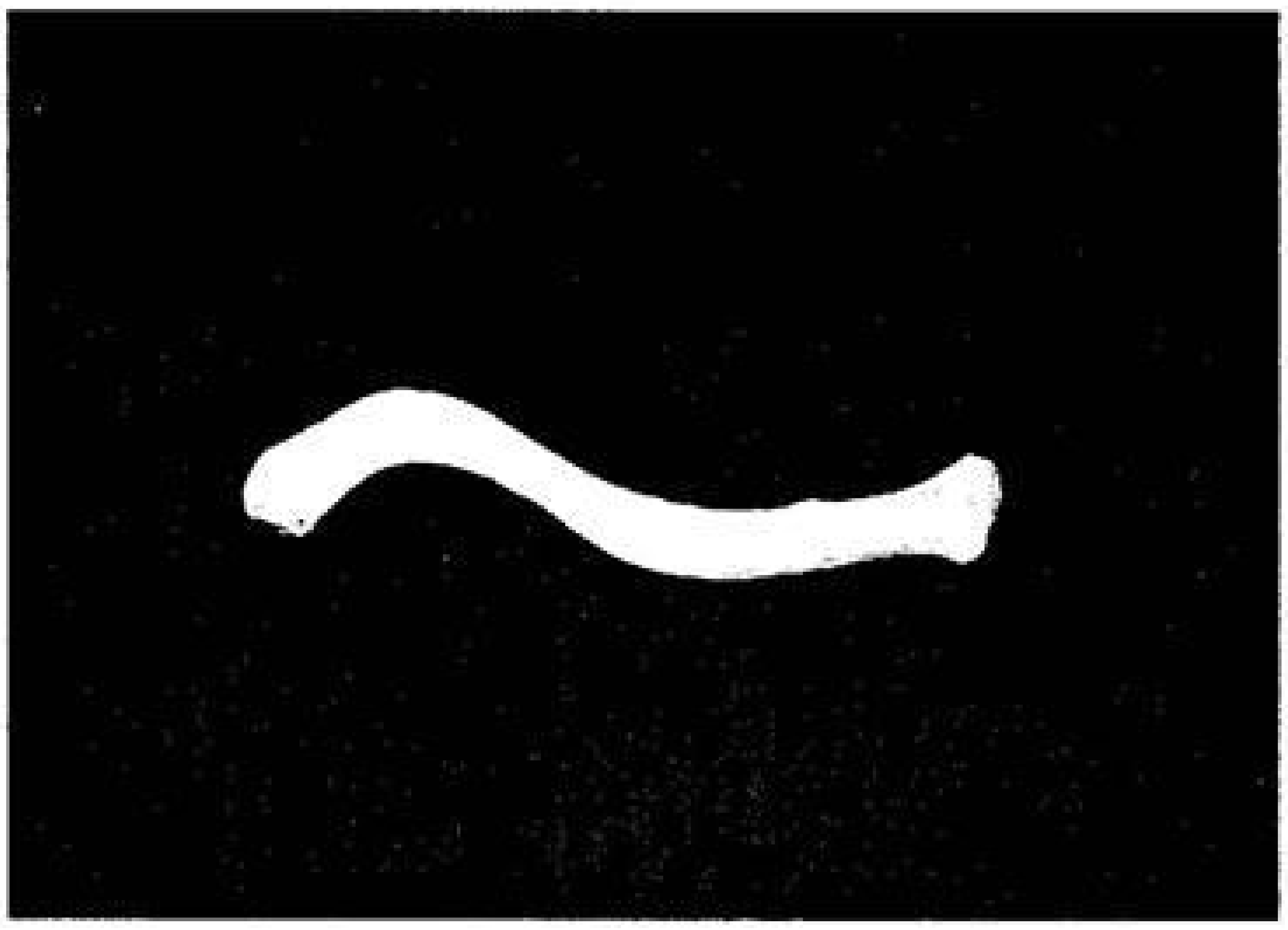
- الفك السفلي :



الذقن منشطر (Bifide) الغصن الصاعد ملقى إلى الخلف وهو عريض وقليل العلو. وهذا الفك ينتمي إلى نوع (Brachygnathe) عريض مقارنة مع طوله. وجود ضرس الضاحكة I،II من الجانب الأيمن وضرس الناجذ II في صدد البروز وهذا يدل على أن السن عند الوفاة كان حوالي 12 سنة.

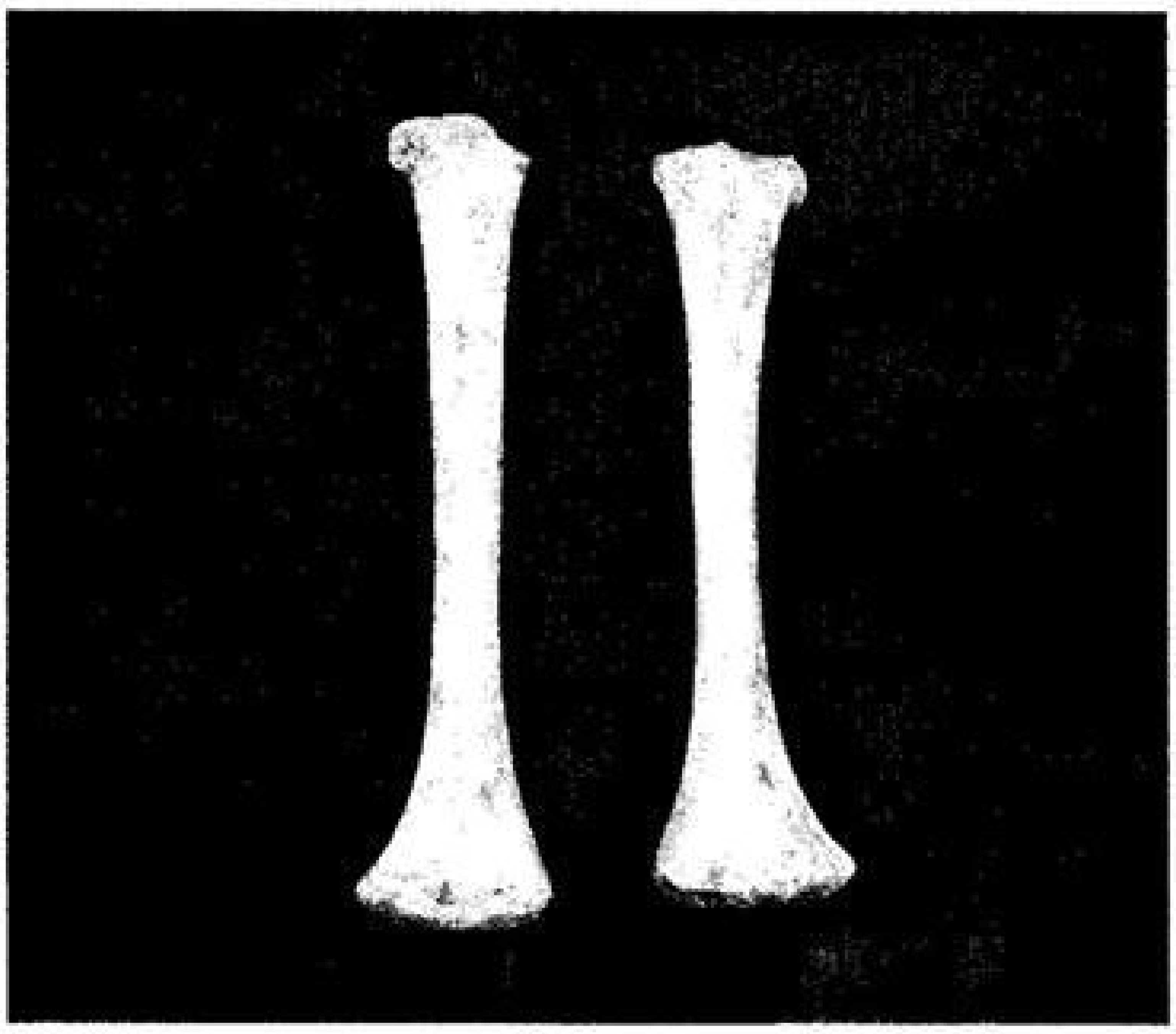
- عظم الكتف (Omoplate) : جزء من هذا العظم نحافته وشكله يدلاّن على صغر السنّ عند الوفاة.

- عظم الناحرة (Clavicule) (صورة.5) :



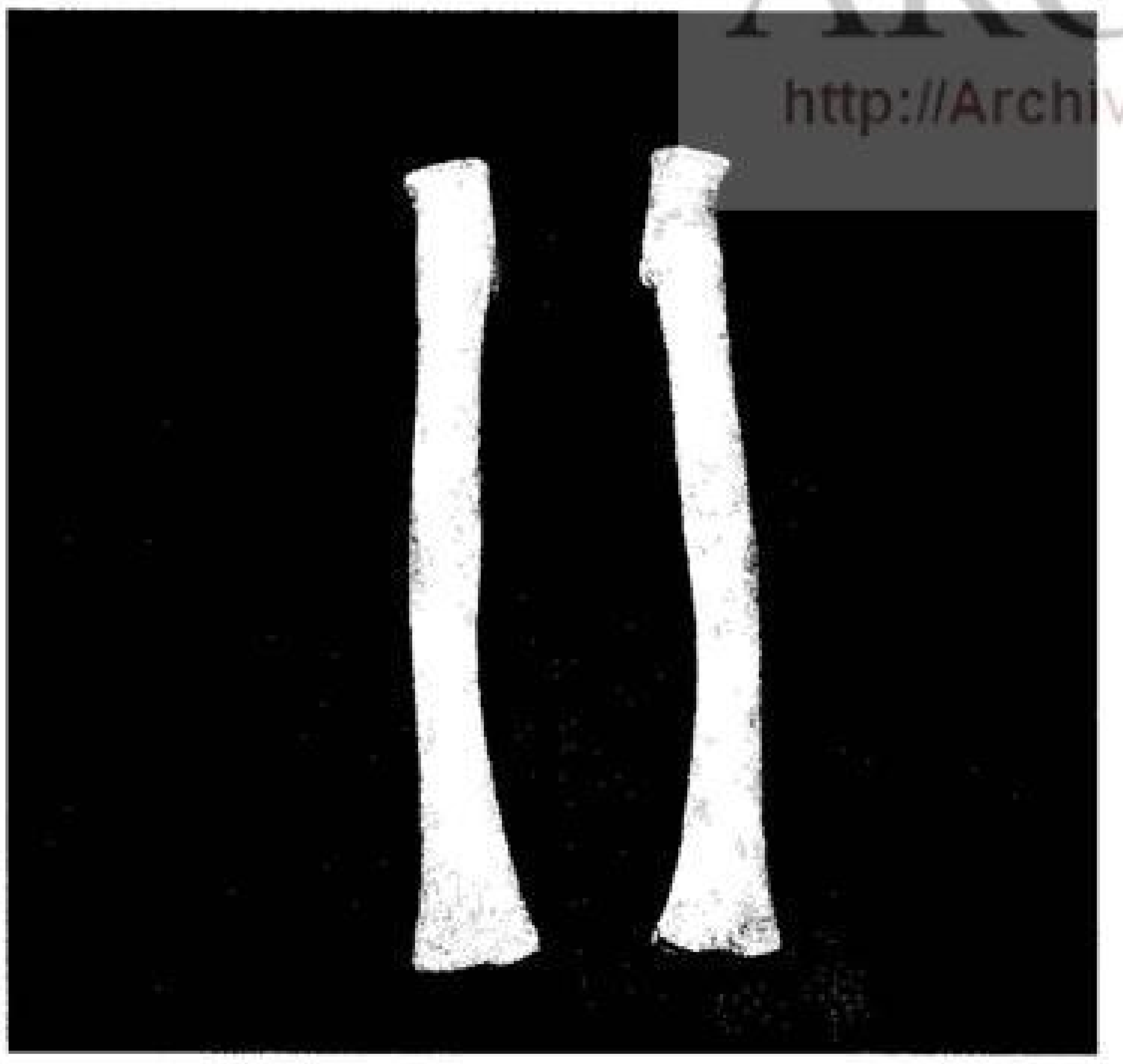
هذا العظم نحيف وصغير الحجم.

- عظم العضد الأيمن والأيسر :



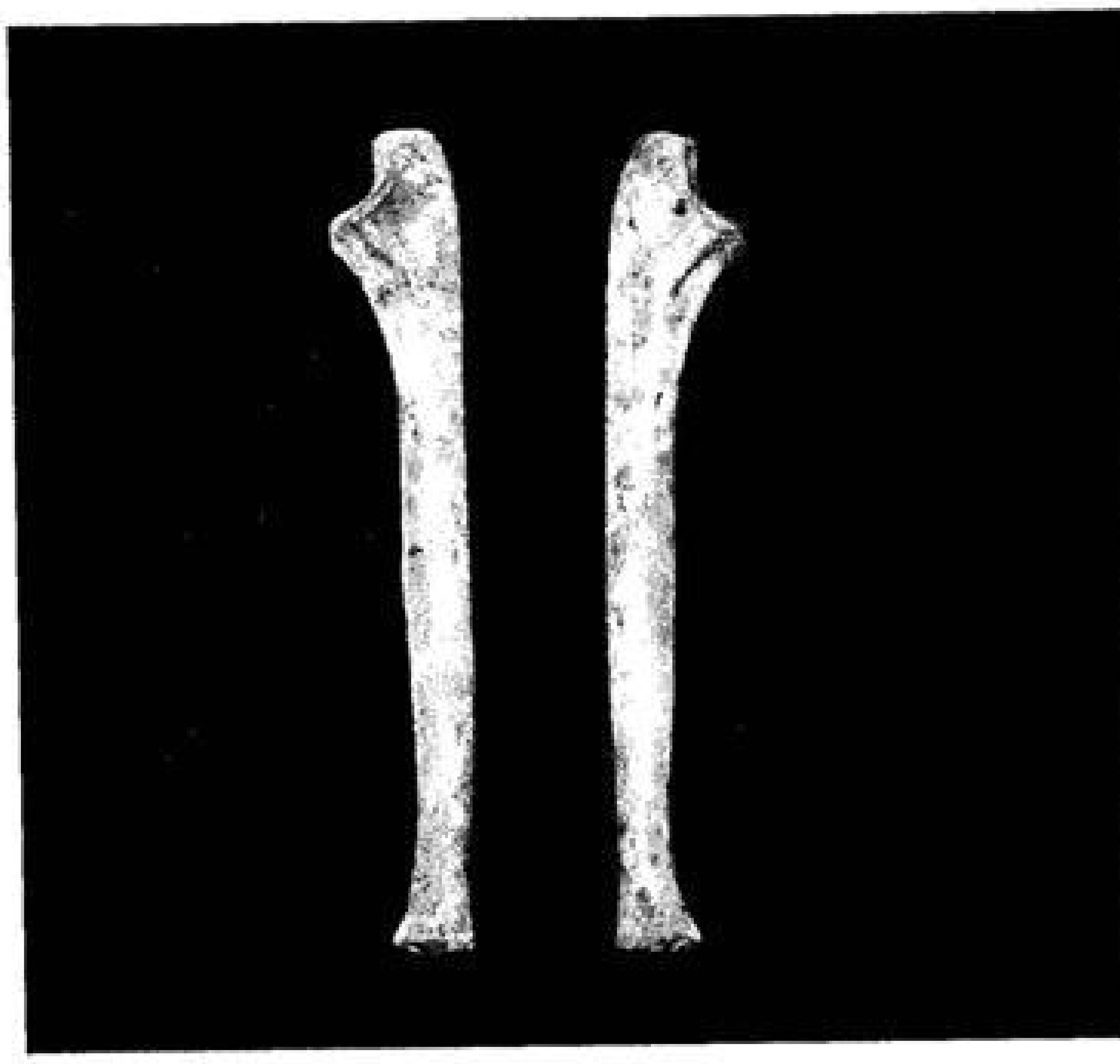
طول كلّ واحد منهما يبلغ 112 مم وهذا يدلّ على أن السّن عند الوفاة ما بين 12 و18 شهرا.

- عظم الكعبرة الأيمن والأيسر:



يبلغ طولها 93 مم وهو يوافق السنّ عند الوفاة 30 شهرا.

- عظم الزند الأيمن والأيسر :



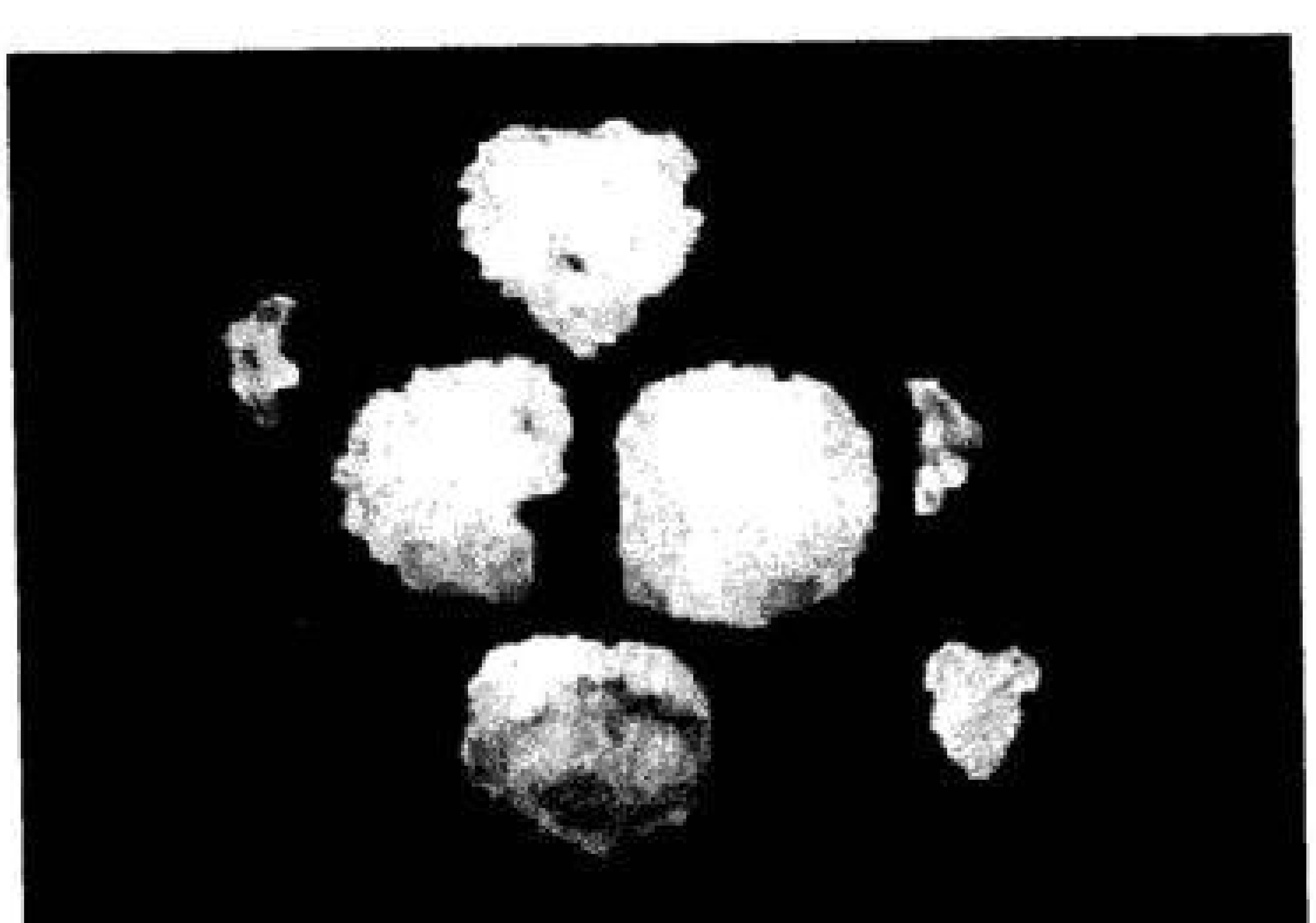
يبلغ طولها 102 مم وهو يدلّ على أنّ الطفل توفّي عن سّن تناهز 30 شهرا.

الصندوق رقم IX يحتوي على :

- قطع من الجمجمة تتمثل في أجزاء من الجداري وهي رقيقة.
- الفك السفلي في حالة رديئة، نلاحظ أن القاطعة الوسطى في صدد البروز ووجود أنّ الضرس الناجذ I النهائي موجود هذا يدل على أن السن عند الوفاة يناهز 7 إلى 8 سنوات.
- عظم الكتف الأيمن والأيسر (Omoplate) حجمها ونحافتها يدلاّن على أنهما ينتميان إلى طفل صغير السّن عند الوفاة.
- عظم القصّ (Sternum) ممثل في خمسة أجزاء لم يتم بعد الالتحام بينها.
- عظم العضد الأيمن والأيسر؛ لقد ألصقنا مختلف الأجزاء وتحصلنا على هذه العظام. ويبلغ طول الأيمن 171 مم والأيسر 170 مم وهذا الطول يوافق السّن عند الوفاة ما بين 6 و8 سنوات.
- عظم الكعبرة : جزء صغير من هذا العظم.
- عظم الزند الأيمن والأيسر : يبلغ طولها 137 مم و138 مم وهذا دليل على أن سنّ الوفاة ما بين 6 إلى 7 سنوات.
- عظام اليد (10 Métacarpes) و(12 Carpes).
- العظم الحرفقي (Os coxal) متكوّن من 3 أجزاء يمنى ويسرى وهي ليست ملتحمة وصغيرة الحجم. الإلتحام يبتدئ عادة من 14 سنة في أدنى حّد و18 على أقصى حّد.
- عظم الفخض الأيمن والأيسر (Fémur) : لكنها على شكل قطع وهي كانت تنتمي إلى طفل صغير.
- عظم الساق الأكبر الأيمن والأيسر (Tibia) : أجزاء من هذه العظام لم يتم بعد الإلتحام بينها.
- عظم الشظيّة الأيمن (Péroné) : ينتمي إلى طفل صغير يبلغ طوله 184 مم.
- عظام الرّجل : عظم الكاحل الأيمن والأيسر، المنحدر الأيمن والأيسر و10 عظام (Tarse) و10 (Métatarse).

الصندوق رقم X : يحتوي على :

- جمجمة



تمثلها جملة من القطع تمثل مختلف أجزاء الجمجمة. حجمها ونحافتها تدلّ على أنّها تنتمي إلى طفل صغير السّن.

- الفكّ العلوي : فتحة الأنف على شكل (Ellipsoïde). سقف الفم صغير نلاحظ وجود ضرس الضاحكة المؤقتة I، II اليمنى واليسرى، الناب الأيمن والقاطعة الوسطى والجانبيّة اليسرى. ونقدر إسناد السّن عند الوفاة ما بين 5 و6 سنوات.

- الفكّ السفلي : تنقصه الأغصان الصاعدة. الذقن منشطر والأرتفق (Symphyse) بارزة. وجود الأسنان الوقتية التالية القاطعة الناب والضاحكة. أمّا الناجذة فهي ما زالت لم تبرز بعد. هذا يدلّ على أن السنّ عند الوفاة يوافق 5 سنوات.

- عظم الكتف الأيمن والأيسر:



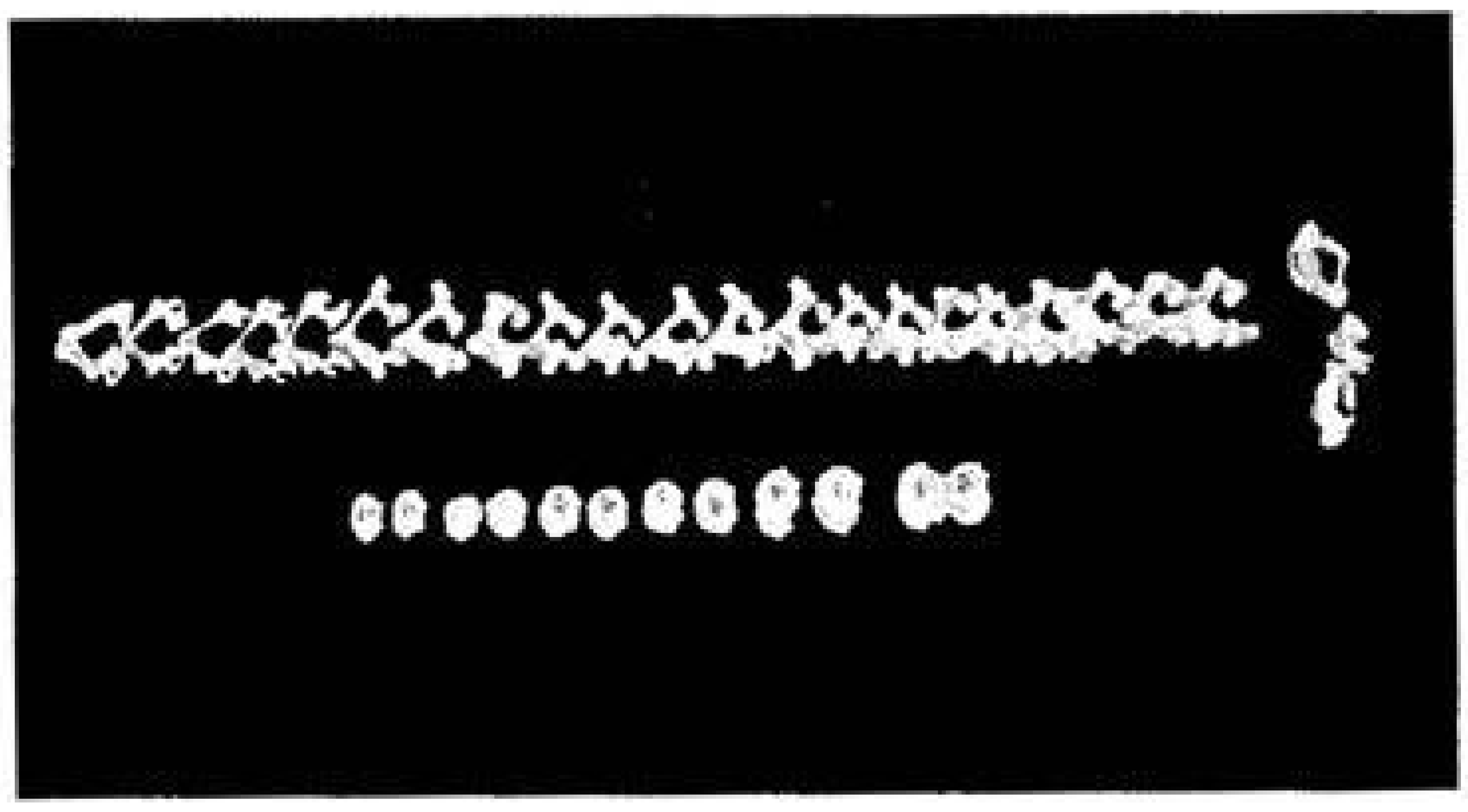
ينتميان إلى طفل صغير السّن.

- عظم العضد الأيمن والأيسر : يبلغ طولها 121 مم وهذا يوافق السّن عند الوفاة ما بين 2 و3 سنوات.

- عظم الكعبرة الأيمن والأيسر (Radius) : تنقصهما أجزاء فلم نتمكّن من قيس الطول لتحديد السّن عند الوفاة لكن حجمها ونحافتها تدلاّن على صغره.

- عظم الزند الأيمن والأيسر (Cubitus): يبلغ طولهما 99 مم وهذا يوافق السّن عند الوفاة ما بين 24 و30 شهرا.

- العمود الفقري (Colonne Vertébrale):



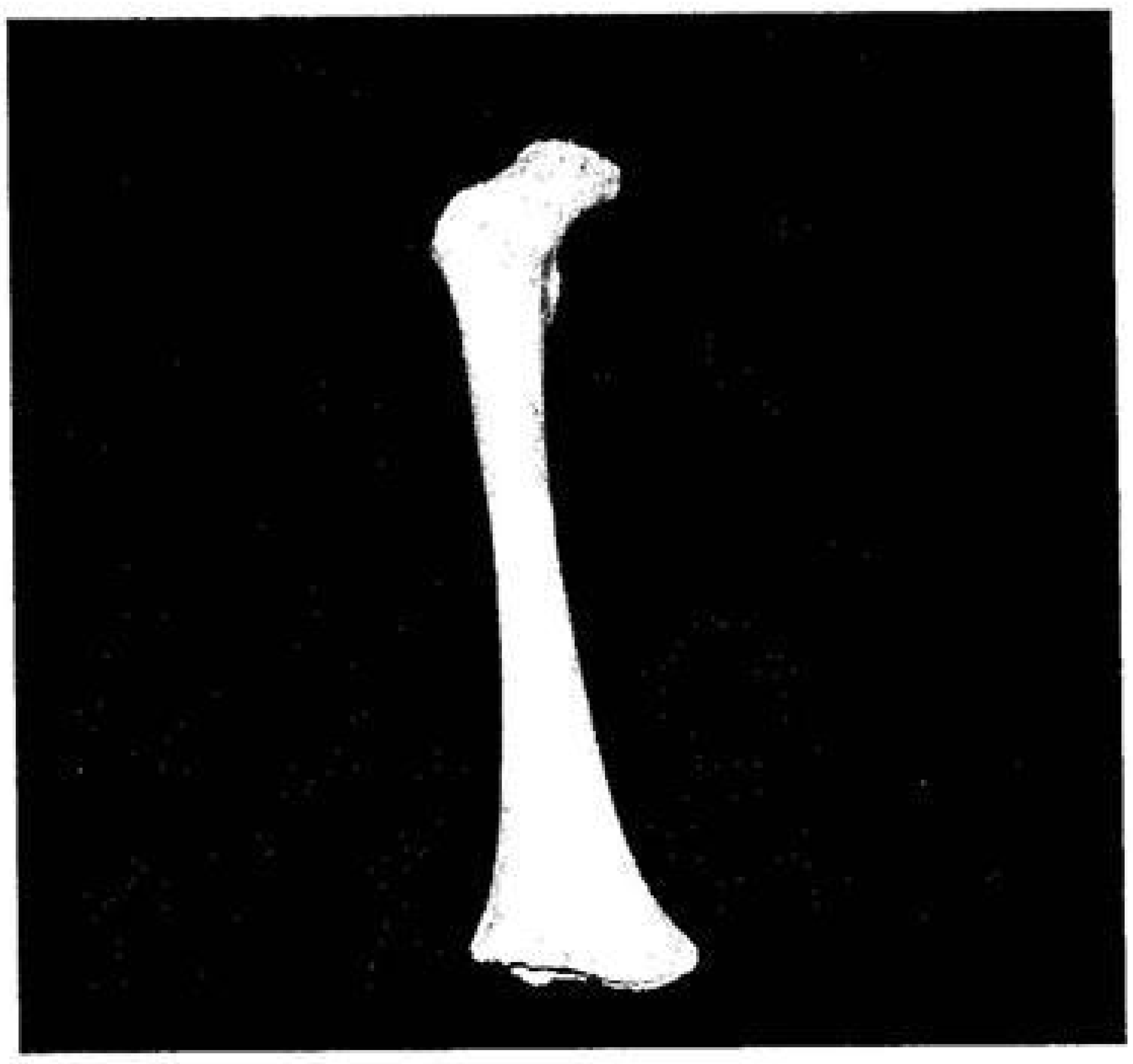
مختلف أجزاء الفقر لم تلتحم ببعضها بعد وهذا دليل على صغر السّن عند الوفاة.

- عظم الحرفقي (Os coxal) :



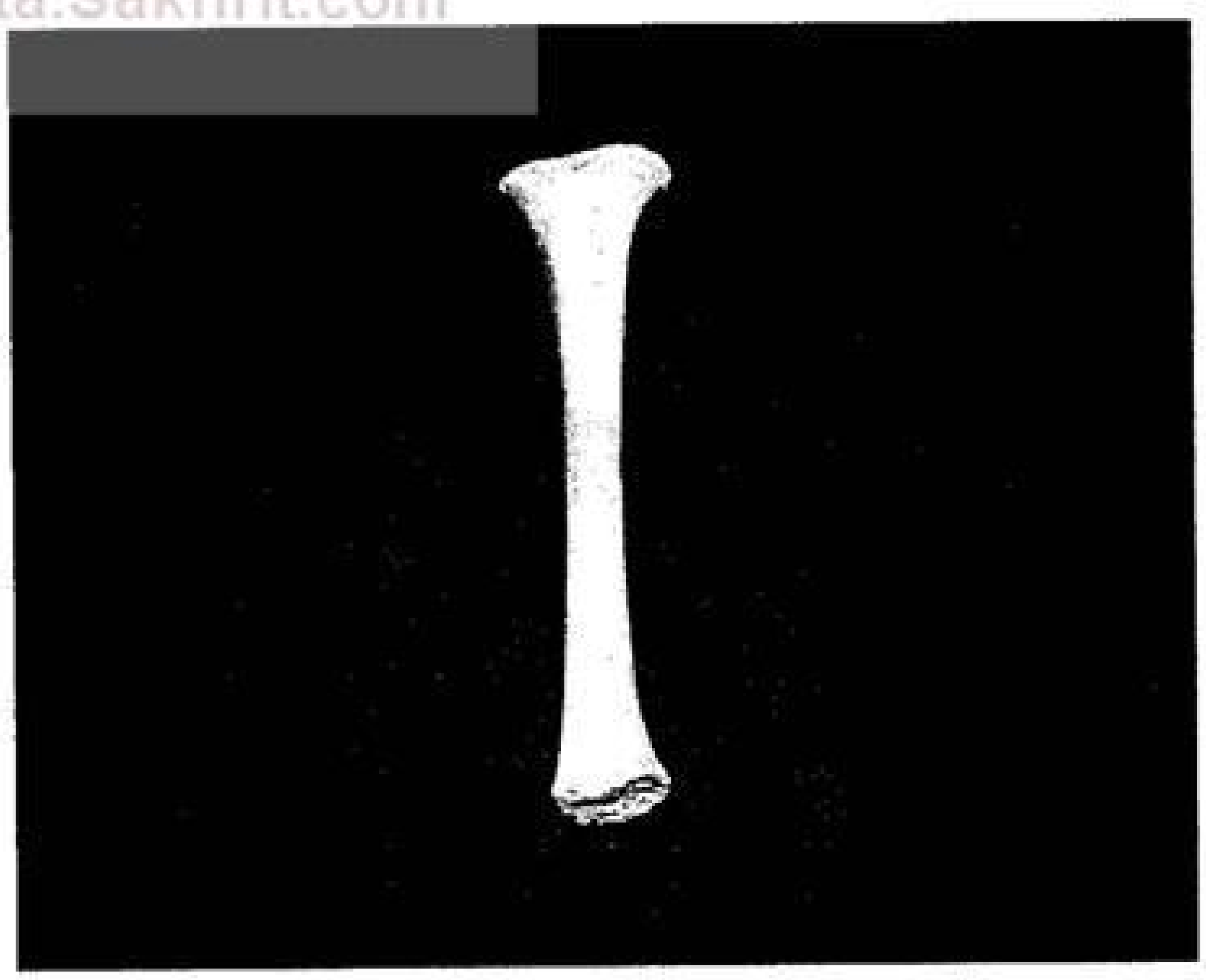
حجمه وعدم التحام مختلف أجزائه يدلاّن على صغر السّن عند الوفاة.

- عظم الفخذ الأيمن والأيسر :



يبلغ طولهما 154 مم وعرض الطرف النهائي 37 مم، هذه المعطيات تدلّ على أن الوفاة جدّت في ما بين 2 و3 سنوات.

- عظم الساق الأكبر الأيمن والأيسر:



يبلغ طولهما 132 مم وهذا يوافق السّن عند الوفاة ما بين 2 إلى 3 سنوات.

- عظم الشظيّة الأيمن والأيسر (Péroné) : تنقصهما أجزاء ولكنهما ينتميان إلى طفل صغير السّن.

- عظام الرجل : المنحذر والعظم الكاحل : ينتميان إلى طفل صغير السّن.

الصندوق رقم XI :

يحتوي على : - جمجمة : هي على شكل أجزاء تمثل مختلف عظام الجمجمة وهي نحيفة.

- الفك العلوي : جزء من فتحة الأنف، وجود ضرس الضاحكة الوقتية I، ضرس الضاحكة II الوقتية بصدد البروز، والضرس الناجذ I النهائي مازال لم يبرز. هذا يوافق السّن عند الوفاة في حدود 18 شهرا.

- الفك السّفلي : متمثل في ثلاثة أجزاء لا يمكن إلصاقها. إن الأسنان الموجودة هي وقتية وهي بصدد البروز، والسّن عند الوفاة يتراوح بين 18 شهرا و3 سنوات.

- عظم الكتف : جزء من هذا العظم وهو نحيف وصغير الحجم فهو ينتمي لطفل صغير السّن.

- عظم العضد : ينقصه الطرف النهائي، وهو صغير الحجم.

- عظم الكعبرة : متمثل في قطعتين صغيرتين.

- عظم الزند الأيمن ينقصه الطّرف النهائي.

- عظم الحرفقي الأيمن ينتمي إلى طفل صغير السّن.

- عظم الفخذ الأيمن ينقصه الطرف العلوي.

- عظم السّاق الأكبر الأيمن يبلغ طوله 116 مم، هذا يوافق السّن عند الوفاة ما بين 18 و30 شهرا.

- عظم الشظيّة الأيمن والأيسر يبلغ طول الأيمن 114.5 مم وهو ينتمي إلى طفل توفي صغير السّن.

الصندوق رقم XII :

يحتوي على : - عظم الحرفقي : كلّ أجزاء العظم الأيسر موجودة وهي تنتمي إلى طفل صغير السّن.

- عظم الفخذ الأيمن : يبلغ طوله 133 مم وهو يوافق السّن عند الوفاة ما بين 12 و24 شهرا.

- عظم السّاق الأكبر : متمثل في جزء صغير.

- عظم الشظيّة الأيمن والأيسر : يبلغ طولهما 104 مم و103 مم وهذه المعطيات توافق السّن عند الوفاة حوالي 18 شهرا.

الصندوق رقم XIII :

يحتوي على : - جمجمة متمثلة في أجزاء مختلفة العظام مكوّنة لها وهي عظام صغيرة الحجم ونحيفة ولم تلتصق بعد ببعضها.

- الفك العلوي : في حالة رديئة. والضرس الضاحكة I الوقتية مازال موجودا.

- الفك السفلي في حالة صيانة طيّبة. نلاحظ أنه ضيق وأنّ نصفي الفك لم يتم الإلتحام بينهما بعد. إن الأغصان الصّاعدة ملقاة إلى الخلف وأنها عريضة مقارنة لعلوها. والأسنان الموجودة هي القاطعة اليسرى الوقتية، الأنياب الوقتية بصدد البروز وضرس الضاحكة I اليمنى واليسرى الوقتية موجودة أمّا ضرس الضّاحكة II... صفات توافق السّن عند الوفاة 18 شهرا.

- عظم الكتف الأيسر : هو صغير ونحيف.

- عظم الناحرة الأيسر وهو ينتمي إلى طفل صغير السّن.

- عظم القصّ : مختلف الأجزاء لم تلتحم بعضها ببعض. دليل على صغر السّن عند الوفاة.

- عظم العضد الأيمن والأيسر يبلغ طول الأيسر 109 مم وهذا يوافق السّن عند الوفاة 18 شهرا.

- عظم الكعبرة الأيمن والأيسر : هما ينتميان إلى طفل صغير السّن.

- عظم الزند الأيمن والأيسر : يبلغ طول الأيمن 88 مم وهو موافق أن الوفاة حدثت عن سنّ 18 شهرا.

- العمود الفقري : متمثلة في 5 فقرات وهي نحيفة وصغيرة وتنتمي إلى طفل صغير السّن.

- عظم الحرفقي الأيمن والأيسر وكلّ الأجزاء موجودة وهي غير ملتحمة ببعضها.

- عظم الفخذ الأيمن والأيسر يبلغ طول الأيمن 129.5 مم وعرض الطرف النهائي 34 مم. وبالنسبة للأيسر يبلغ الطول 130 مم والعرض 34 مم هذه المعطيات توافق السّن عند الوفاة ما بين 12 و18 شهرا.

- عظم الساق الأكبر الأيسر يبلغ طوله 104.5 مم وهو يوافق السن عند الوفاة ما بين 12 و18 شهرا.

الصندوق رقم XIV :

يحتوي على : - جمجمة متمثلة في مختلف العظام المكوّنة لها وهي نحيفة وصغيرة. هذه الجمجمة تنتمي إلى طفل صغير السّن.

- الفك السّفلي : متمثل في جزء وهنا نلاحظ وجود أن ضرس الناجذ الأيمن في صدد البروز، هذا يوافق السّن عند الوفاة 6 سنوات.

- عظم الكتف الأيمن والأيسر : نحافتها وصغر حجمها يدلان على صغر السّن عند الوفاة.

- عظم الناحرة الأيمن والأيسر : هي صغيرة ونحيفة يبلغ طول الأيمن 54 مم.

- عظم العضد الأيمن والأيسر : يبلغ الطول 83 مم وهذا يوافق أن الوفاة جدّت عند الولادة أو في حدود 6 أشهر الأولى بعد الولادة.

- عظم الكعبرة الأيمن والأيسر : يبلغ الطول 66.5 مم وهو يدلّ أن الوفاة تمّت عند الولادة.

- عظم الحرفقي : كلّ أجزاء اليمنى واليسرى موجودة وغير ملتحمة ببعضها. دليل على صغر السن عند الوفاة.

- عظم الفخذ الأيمن والأيسر يبلغ طول الأيمن 12 مم وعرض طرفه النهائي 26 مم وطول الأيسر 103 مم وعرضه 25 مم وهذه المعطيات توافق التي عندالوفاة ما بين الولادة و6 أشهر الأولى.

- عظم السّاق الأكبر الأيمن والأيسر ويبلغ الطول 84 مم يوافق السّن عند الوفاة 6 أشهر.

- عظم الشظيّة الأيمن والأيسر : يبلغ الطول 78.5 مم وهو يوافق السّن عند الوفاة 6 أشهر.

وفي خاتمة هذه الدراسة نتبيّن أنّه قد تمّ دفن ما بين 12 و15 طفلاً في هذا الموقع، ولقد عثر مع هذه العظام على هياكل آدميّة لكهول ومراهقين، كانت هذه العظام موجودة إما في قبور أو في جرار من الفخار ونستنتج من هذه الوضعية إما أن تكون هناك قرابة بينهم أو عدم وجود أماكن شاغرة مع لفت النظر أن هذه العادات متعامل بها في تونس في الوقت الحالي لنفس الأسباب.

التوزّع الحرفيّ ومرجعيّاته

عماد صولة

إذا اعتبرنا الثقافة هي كلّ ما ينضاف إلى الطبيعة تأسّيا بالتعريف الأنثروبولوجي للثقافة أمكن القول إنّ الحرف هي ممارسة ثقافية في جوهرها كما في شكلها إذ يتجلّى فيها التمفصل بين المادي والروحي والموضوعي والذاتي والموروث والمكتسب في سياق من التفاعل الإنساني الخلاّق على النحو الذي تكشف عنه مختلف الأنشطة الحرفية ضمن أطرها الاجتماعية والجغرافية التي كانت تمارس فيها.

ويسعى هذا العرض إلى محاولة تحديد المراجع الثقافية للحرف التقليدية انطلاقا من قراءة توزّعها الجغرافي التقليدي الذي ظلّ سائدا إلى غاية الفترة الاستعمارية. ويمكن استشفاف بعض عناصره إلى الآن رغم تفكّكه كوحدة بنائية، لذلك فقد تمّ الاعتماد في تجميع المعطيات المتعلقة بتوزّع الحرف على المصادر والمراجع التاريخية المكتوبة وعلى التحقيق الميداني في الآن نفسه وهو ما سمح بإعادة بناء هذا التوزّع قبل تحليله وفق ما يستند إليه من مراجع .

أمّا مجال الدراسة فينحصر في جهة بنزرت التي تعدّ جزءا من التلّ الشمالي، وهي تتميّز بعدد من الخصائص التضاريسية والمناخية مثل قلّة الارتفاع واتّساع السهول مع وفرة الأمطار بما أثّر على حركة السكان فيها وتوزيعهم فلم تعرف الجهة هجرات مضادة، وظلّت مركز جذب لوافدين جدد انسجاما مع التيار الرئيس للنزوح، والذي كان يتّجه من الجنوب إلى الشمال مع تيّار آخر من الغرب نحو الشمال (1). وسواء اتّخذ الحراك المجالي شكل الاستيطان النهائي أو شكل الاستقرار الوقتي بغرض العمل في الحقول بعض الوقت كما كان يحصل دائما مع حلول الصيف حيث جموع القادمين من السباسب والجنوب، ضمن مسالك معروفة، للرعي أو الارتزاق في إطار نظام الخماسة أو مجموعات الهطايا، فقد أدّى ذلك إلى إعادة التركيبة الإثنية للجهة ليسيطر عليها التفتّت والاختلاف عبر «العروش الرقاق» ومجموعات «الطياش» المتولّدة عن انشطار وحدات قبلية هامّة .

ثمّة نمطان من العيش ظلاّ يقسّمان الجهة الأوّل حضري ويشمل مدينة بنزرت وما جاورها من القرى الساحلية ذات التقاليد الأندلسية التي مازالت بادية للعيان: منزل جميل، العالية، رأس الجبل، رفراف، غار الملح . . أما الثاني فهو ريفي ويشمل المناطق الغربية من بحيرة بنزرت حيث تمثّل ماطر مركز الثقل فيها بوصفها المركز الحضري الوحيد وإن كان ذا طابع ريفي.

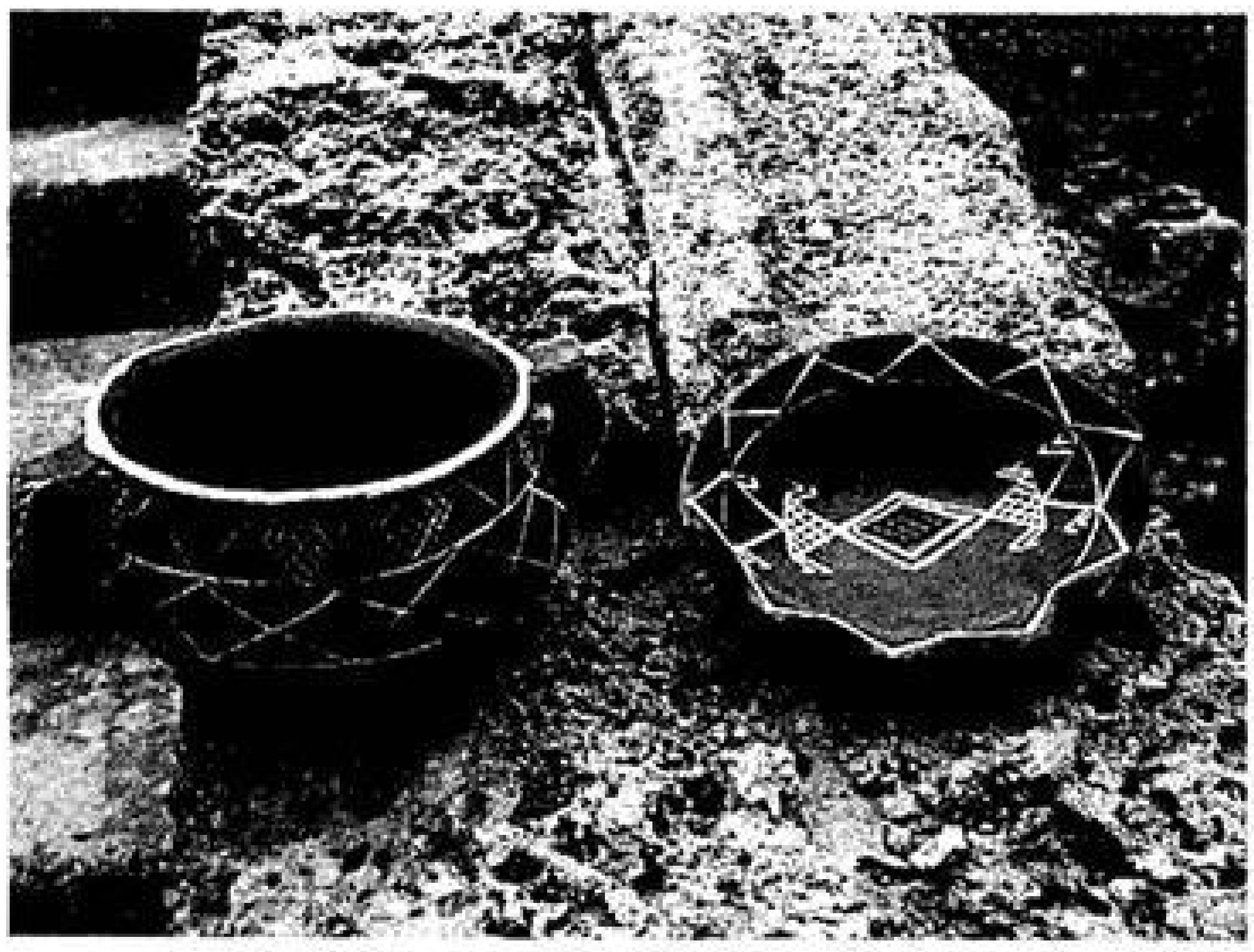
وإذا كانت الناحية الشرقية قد تأثّرت بالهجرات الأندلسية، فإن الناحية الغربية قد خضعت إلى مؤثّرات مغايرة جسّمته الفروع القبلية العربية التي جاءت من الجنوب والمعروفة باسم «العروش الرقاق»، فضلا عن المؤثّرات البربرية سواء مع بقايا ذكرى البربر بالمنطقة

على النحو الذي اختزنه المعطى اللساني كأسماء الأماكن البربرية(تسكراية، تاهنت، بازينة...) وبعض العناصر الأتنوغرافية مثل تلك التي يجسّمها الفخّار اليدوي بسجنان، أو المجموعات القبائلية الوافدة من الجزائر المعروفة باسم «الغرابة» ولا سيما البجاوة.

1 ـ التوزّع الحرفي:

-**الفخّار**: هو أكثر الحرف انتشارا حتى أنّه يصعب وضع حدود جغرافية له لأنّه ملتصق بالحاجات المباشرة للعائلة التقليدية حيث نجده بمقعد وجومين وبازينة وماطر وبالمناطق الشمالية المحيطة ببحيرة بنزرت وصولا إلى أوتيك (زهانة) وغارالملح (2)، وهو من النوع المشكّل يدويا بعضه خال من الزّيتة، وبعضه الآخر يحمل ألوانا وتشكيلات زخرفية مختلفة على النحو الذي يترجمه فخار سجنان الذي بات يثير حوله الاهمام.

أمّا الفخّار المخروط ذو الطبيعة الحضرية، فقد اقترن بكلّ من رأس الجبل التي كانت مركزا نشيطا وجزء من إنتاجه موجّه إلى التصدير، ومدينة بنزرت التي كانت بها مجموعة كاملة من أفران شي الفخار انتصبت على الأطراف الشمالية للمدينة محاذية لجبّانة سيدي بوحديد لم يبق منها غير واحد صار نشاطه مقتصرا على صنع



«الحديدة»، و هي مادّة مستخرجة من النحاس بعد وضعه في النار وفق تقنيات معلومة تدخل في تركيبة بعض مستحضرات الصباغة والتجميل التقليدية.

ـ الحدادة: ارتبطت بالنشاط الزراعي فكانت توفّر أدوات العمل اللازمة لكن أكبر تجمّع للحدّادين كان يقع ببنزرت ضمن سوق خاصّ بهم كان يضمّ سنة 1883 حوالي 15 حرفيا منتظمين ضمن طائفة يرأسها أمين، وقد ذكروا بأسمائهم في إحدى وثائق الأرشيف بمناسبة طلبهم تعيين أمين عليهم، وهم : محمود بن محمّد بن الحسين الزواوي وعثمان بن محمّد الثامري وسلامة بن



فخّار سجنان ورشة للفخار المخروط برأس الجبل



سوق الحدّادين ببنزرت

سليمان الحدّاد وعلي بن عبد الواحد الدلاّل ويوسف بن علي الزعره وحسن بن حمده الميري وصالح بن محمّد العموري وصالح بن محمد الإياردي وأحمد بن حمده الميري وأحمد بن قاسم الجربي ومحمد بن إسماعيل الثامري وحميد بن مصطفى عزيب ويوسف بن علي الدهماني ومحمود بن محمد عزيب وعلي بن حمودة الحداد (3).

وفضلا عن الأدوات الفلاحية، كان الحدّادون يوفّرون عبر الحديد المطروق متطلّبات المسكن التقليدي من مزالج الأبواب والنوافذ فضلا عن أصناف التأثيث التي كانت سائدة.

النّجارة: هي أنواع لعلّ أهمّها النجارة الزبوسي نسبة إلى شجرة الزبّوس أي الزيتون البرّي L'oléastre وإن كانت الأخشاب المستخدمة فيها تتعدّى ذلك لتشمل أنواعا أخرى مثل الصنوبر والتوت، لكنّها كانت تؤلّف اختصاصا متمايزا قائما بذاته كما تشير إلى ذلك إحدى الوثائق الأرشيفية، حيث كانوا يصنفون كمجموعة حرفية مستقلّة عن سائر النجّارين (4).

تتمّ معالجة الخشب، في النجارة الزبوسي بتقنيات بسيطة حيث تثقف عيدان الحطب، بعد



قطعها وتشفيرها، باستخدام النار والماء. وتنصبّ جهود أكثر الحرفيين فيها على صناعة أدوات العمل الزراعي ولا سيما المحراث ويد الرفش والمعول والمذراة فضلا عن بعض العناصر التي تدخل في بناء البيت التقليدي كالأسكف وقناطر الحطب.

أمّا النوع الآخر فهو أكثر تعقيدا من حيث الأدوات والتقنيات المستخدمة وطبيعة القطع المنتجة إذ تشمل الأبواب والنوافذ والأثاث المنزلي والصناديق الخشبية، كما ترتبط بها عدد من المهارات مثل الحفر على الخشب والطلاء، وإذا كان النوع الأول منتشرا بعديد المناطق الحضرية والريفية على حدّ سواء، فإن النوع الثاني ينحصر في بعض المراكز الحضرية أهّها مدينة بنزرت أين نجد سوقا للنجّارين حافظت على بعض خصائصها المعمارية والوظيفية إلى الآن.

ـ **الزنايدية** : اختصّت بصناعة البنادق وإصلاح ما فسد من أجزائها فضلا على الخناجر المرصّعة أياديها بالحجارة الكريمة (5). وكان جميع الحرفيين ينتصبون في نهج مسقوف طويل يحمل اسم الزنايدية لم يبق به خلال فترة الحربين سوى خمسة دكاكين، ولكن أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين يمثّلان عصره الذهبي كان يتمتّع بإشعاع واسع لا سيما بعد أن اندرجت مدينة بنزرت ضمن نشاط القرصنة.





نهج الزنايدية ببنزرت

ـ الشاشية:

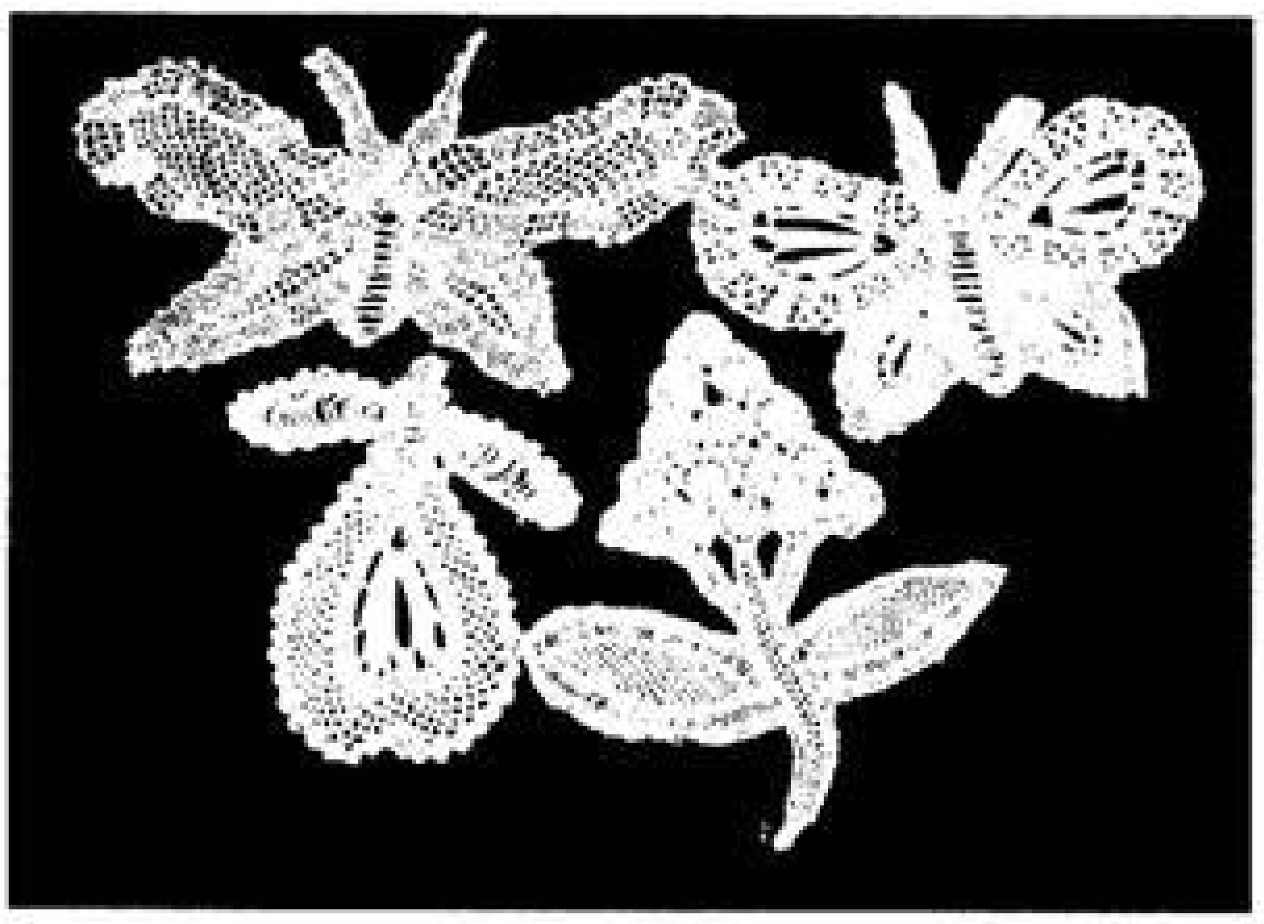
لا نجد حضورا لصناعتها سوى بالعالية التي اختصت بما يسمّى "القردشة" وهي مرحلة أساسية ضمن سلسلة المراحل التي تمر بها عملية إنتاجها. وتتمثّل القردشة في تمرير أسنان حادة لأداة تسمّى "قرداش" كانت تصنع من نبتة الكرضون Le chardon قبل أن تستبدل بالقرداش الحديدي، وذلك لسحب الشعر السطحي للشاشية المسمّى «البورا». وتقلّب الشاشية على جوانبها الأربعة داخليا وخارجيا أي وجهها وقفاها.



«قردشة» الشاشية بالعالية

– الطريزة والشبكة:

تنتشر أساسا ببنزرت ورفراف وبعض المناطق المجاورة لها مثل عوســجة، وتبقى الطريزة أكثر التصاقا برفراف لارتباطها الوثيق بالزي الرفرافي القائم على تشكيلات زخرفية بديعة، حيث تتعلم البنت منذ الصغر مهارة التطريز حتّى تتمكّن من تجهيز نفسها بعدد كبير من البدلات الرفرافية الأصيلة التي لا تباع في الأسواق وإنّما تخاط وتطرز يدويا في البيوت في نطاق علاقات القرابة والجوار. وهي تتجاوز الاحتفال بالزواج لتمثّل لباسا اجتماعيا يتمّ استخدامه استخداما طقوسيا وفق تنويعات مختلفة.





– الحياكة:

إذا كان استخدام الصوف في الحياكة منتشرا على نطاق واسع، فإنّ استعمال القطن يعدّ أمرا نادرا ، لكنّه كان معروفا ببعض نواحي بنزرت ولاسيما بكلّ من منزل جميل ومنزل عبد الرحمان أين كان يزرع القطن قبل أن يوكل أمر غزله إلى النساء (6)، ليوفّرن مادّة ثمينة تدخل في العديد من الألبسة التقليدية على غرار لباس المرأة الرفرافية مثل القميص المعروف باسم سورية مبدوء (7) وجبّة «الموشمة» التي ترتديها العروس في ثالث أيام الزواج (8)، وكلاهما مصنوع من القطن أساسا.

أمّا صناعة الصوف فكانت راسخة في التقاليد الاجتماعية بالنواحي الغربية للجهة حيث تمثّل نشاطا متكاملا لا يقتصر على الحياكة كما هو الحال في مدينة بنزرت أين كان الحرفيّ يشترى جهازا للاستخدام، وإنّما يشمل مختلف مراحل معالجته ثمّ حياكته بدءا بجزّ الصّوف وغسله وصولا إلى صبغه وغزله قبل نسجه وفق أشكال مختلفة حسب الحاجات المطلوبة.

و إذا أخذنا الصوف بعد أن يهيّأ للحياكة فإنّنا واجدون مجموعة كاملة من المنتوجات الحرفية لعلّ أهمّها الأغطية الصوفية بأنواعها والمفروشات كالمرقوم الذي كان منتشرا بمقعد خلال الفترة الاستعمارية (9)، ويمكن ملاحظة ذلك إلى الآن هناك وبمنطقة هذيل، أمّا الألبسة الرجالية فأبرزها القشابية التي مازالت تصنع بماطر وبنزرت، في حين تتألّف أهمّ الألبسة النسائية الصوفية الحضرية من «الفراشية» Grand drapé



فرّاشية رفراف

وهي لحاف صوفي أبيض اللون يغطي كامل الجسم تستتر به المرأة عندما تضطرّ إلى الخروج من البيت، وقد كانت الفرّاشية لباسيا نسائيا معمّما بمدينة بنزرت حيث تصنع محليّا (10)، وبالمراكز الحضرية المجاورة على النّحو الذي يمكن مشاهدته حتى اليوم بقرية رفراف لدى بعض الفئات من نسائها.. لكن لدى المرأة الريفية يقتصر استخدام الصوف في زيّها على الحرام أي الحزام الذي تتمنطق به والذي تؤلّف صناعته مهارة نسائية تندرج في الاستخدام البيتي الوظيفي بمقعد وهذيل.

ـ الألياف النباتية : تشمل صناعة الحصير القفاف وسائر الحاويات التي يقتضيها العمل الفلاحي (الزرّاع للبذور) أو لنقل الثمار وغيرها من المواد، وهي مفضّلة نظرا لخفّة وزنها ولما توفّره من حماية للمواد المنقولة مثل البيض والثمار بل والجرار نفسها التي يلجأ إليها لحفظ مختلف السوائل كالعسل والألبان.



الاستخدام الحرفي لنبتة الدّيس ببازينة

وتتراوح مواد الاستعمال بين القصب والسمار والريحان والذرو والديس والبربيت حسب المناطق إذ تنتشر بمناطق بازينة وجومين وبالعالية ورفراف ورأس الجبل بما يدلّ على ارتباطها بالنشاط الزراعي.

وقد اختصّت بلدة الماتلين بصناعة الحصير الذي كان يمثّل نشاطا منزليا يتقاسمه الرجل والمرأة سويا (11).

ـ التقطير : لفتت ممارسة تقطير الزهر وسائر النباتات أكثر الرحالة الذين زاروا البلاد خلال القرن 19 بوجه خاصّ، إذ كانت من التقاليد المنزلية والحرفية الناشطة جدّا (12). وبفضل ثراء غطائها النباتي ووفرة مياهها فقد ترسّخ التقطير ببنزرت لتعدّ من أكثر الجهات إنتاجا للمستخلصات النباتية المعتمدة على تقنية التقطير.

وإذا كان ساحل بنزرت المعروف بكثرة بساتينه وجنانه قد التصق بتقطير النسري والياسمين والورد والعطرشاء خلال الربيع، فإنّ منطقة مقعد قد تميّز التقطير فيها بالاعتماد، على أوراق الريحان Le myrte مشكّلة واحدة من أربعة مراكز رئيسة في استخراج زيت الريحان (13).

3 ـ المرجعيات:

إنّ انتظام الممارسات الحرفية ضمن أطر جغرافية يتمّ فيها توزيع الحرف ضمن مناطق محدّدة يبدو في ظاهره فعلا تلقائيا خاليا من أي ضبط، لكن ثنائية الظهور والغياب جغرافيا، تتحكّم فيها في الحقيقة اعتبارات مختلفة تشكّل مرجعية أو بالأصحّ مرجعيات خاصّة يمكن أن نذكر منها الآتية:

– **مرجعية تاريخية** : إنّ تمركز الشاشية في العالية يعود بنا حتما إلى الأصل الأندلسي للكثير من العائلات التي استوطنت المنطقة لتأسيس القرية المعروفة على أنقاض أوزليس Uzalus الرومانية، ورغم أنّ صناعة الشاشية كانت قائمة في إفريقية الحفصية كما يذكر ذلك برنشفيك (14)، فإنّها قد ارتبطت بالأندلسيين الذين جعلوا منها ممارسة صناعية متطوّرة (15) بعدما أدرجوها ضمن تنظيم دقيق قائم على التقسيم المتسلسل للأدوار والرقابة الشديدة لشروط المهنة تقنيا وأخلاقيا. وهو ما ينطبق أيضا على فنون التطريز النسائية التي كثيرا ما تعدّ واحدة من المهارات المدرجة ضمن الموروث الأندلسي (16)، وحياكة المنسوجات القطنية حيث كانت تنتشر بمنزل جميل ومنزل عبد الرحمان زراعة القطن التي ارتبطت بالعائلات الأندلسية، بينما ظلّ الفخّار الريفي اليدوي في مقعد وهذيل متأثّرا في تجريداته الهندسية بالموروث البربري.

أمّا حرفة الزنايدي فقد اقترنت تاريخيا بالقرصنة خلال القرنين 17 و18 قبل أن تتراجع مع بداية القرن 19 مع تقلّص نشاط القرصنة الذي سرعان ما تمّ تحجيره لاحقا سنة 1818.

لكنّنا لا نعرف لماذا تنتشر حرفة في منطقة دون أخرى رغم وجود العوامل التاريخية نفسها مثل الشاشية التي اقتصرت على العالية رغم وجود أندلسيين على المنطقة المعروفة بساحل بنزرت فضلا عن بعض أحوازها، وهنا يمكن البحث عن الإجابة خارج المتن التاريخي الرسمي كالأسطورة مثلا، وفي هذا السياق ما زال أهل العالية يروون عن أجدادهم أنّ الأندلسيين عندما هجّروا من ديارهم لم يحملوا معهم شيئا ماعدا امرأة أخذت معها بعض بذرات نبتة الكرضون كانت قد أخفتها في شعرها، وعندما حطّت هذه المجموعة الرحال بالعالية بادرت المرأة ببذر تلك الحبّات فإذا بها تنبت وتنمو وتتحوّل إلى كرضون لتجد بين يديها حرفة ثمينة هي التقرديش الذي اختصّت به العالية دون سواها بحكم ندرة هذة النبتة.

يمكن الذهاب بعيدا في تتبّع الأصول التاريخية لمختلف الحرف التي تمّ جردها، وهي عملية ذات نتائج غير يقينية، لأنّ إرجاع فضل أيّ اختراع إلى هذه الثقافة أو تلك أمر غير مؤكّد كما لاحظ «شتروس» (17)، لكن حتّى وإن افترضنا حيازة حقائق ثابتة عن هذه الأصول التاريخية، فإنّ ذلك، بمفرده، لا يمكن أن يفسّر لنا كيفية اندراج الحرف ضمن التقاليد الاجتماعية ولا منطق توزّعها ولا حتّى تشكّلها، ذلك أنّ خضوع الممارسة الحرفية لتأثيرات الثقافة الخارجية لا يمكن أن يحدث إلاّ ضمن سياق خاصّ من التفاعل الإنساني بين الداخلي والخارجيّ.

إنّ استعارة المجموعة لإحدى الممارسات الحرفية عملية لا تخلو من تعقيد ولا تتمّ كما اتّفق، من ذلك أنّ "تبنّي هذه التقنية لا يتسنّى إلاّ إذا كان الوسط الداخلي في حالة هي أصلا مناسبة لذلك» (18)، بحيث يكون للسياق المحلّي بظرفياته السوسيولوجية والبيئية الخاصّة دور حاسم في تشكيل الممارسة الحرفية من النّاحيتين التاريخية (النشأة) والمورفولوجية (الشكل والتوزّع) في آن واحد.

– **مرجعية حضرية**:

ليس غريبا أن تتركّز أكثر الحرف في مدينة بنزرت متبوعة برأس الجبل وأن تكون لها أسواق خاصّة بها هناك لأنّ ذلك يؤكّد الصلة الوثيقة بين العمران الحضري والحرف والصنائع كما برهنت عليه تحاليل ابن خلدون، «إذ على مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع» (19). وهي الصلة التي أسهبت العديد من الأدبيات التاريخية والسوسيولوجية في عرضها مثل تلك التي بلورها عالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر"، إذ أنّه، وبعد التشديد على تميّز المدينة بتعدّد

الحرف فيها، يربط تشكّلها بمقوّمين أساسيين يتمثّل أوّلهما في مركز سلطوي هو بمثابة بؤرة تنشأ من أجل احتياجاتها السياسية والاقتصادية مقرّات إنتاج حرفي متخصّص، أمّا الآخر فيتجسّد في وجود مركز محلّي دائم يمكن غالبية سكّانها من سدّ احتياجاتهم اليومية وذلك بشكل أساسي من سلع ينتجهونها بأنفسهم قبل طرحها للتبادل (20)، وبهذا فالمدينة مشروطة بوظيفتها الاقتصادية التي تتعدّى الإنتاج لتشمل التبادل التجاري باعتبارها «موطن سوق»(21) تكون فيه منتجات الحرفيين أبرز المواد المتبادلة. ولعلّ مدينة بنزرت تجسّد إلى حدّ كبير هذا النموذج، حيث ظلّت مركزا سياسيا وإداريا معتبرا خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، فعرفت الانتظام الحرفي على أساس التخصّص، وذلك عبر التمركز المجالي في أسواق خاصّة لا زالت قائمة إلى اليوم وإن تغيّرت وظائفها: سوق النجارين، سوق الحدّادين، الزنايدية، سوق العطّارين. كما تطوّرت لتتشكّل مهنيا ضمن تنظيمات تعرف بالطوائف الحرفية التي كان يرأسها أمناء مثل أمين الحدّادين وأمين البنائين وأمين النجارين (22). أمّا خارج مدينة بنزرت، بالمراكز الحضرية الأخرى، فإنّها وإن لم تستقلّ بفضاءات خاصّة في غالب الأحيان، فقد عرفت الانتظام في شكل طوائف، بحيث يعكس وضع الحرف درجة تطوّر المدينة في أبعادها الديموغرافية والاقتصادية وحتى السياسية.

ولئن كنّا نجد أحيانا حرف المدينة هي عينها منتشرة في الأرياف فإنّ ذلك لا يعني تطابقا بينهما بل هناك اختلاف يتجاوز التقنيات المستخدمة والأشكال المستخرجة ليصل إلى المفهوم نفسه، فمفهوم النجارة أو الحدادة في المدينة ليس هو نفسه في الريف لأنّ المتطلّبات متباينة هنا وهناك، ففي بنزرت مثلا نجد النجار يهتمّ أكثر بصناعة النوافذ والأبواب والعناصر الخشبية التي يقتضيها السكن الحضري، بينما ينصرف نظيره في الريف إلى أدوات العمل الزراعي ملتصقا أكثر بالحدادة.

كما تتجلّى الطبيعة الحضرية للحرفة في الطريزة في رفراف والشبكة ببنزرت حيث تنكبّ المرأة في صبر وأناة على مهارات حرفية يتمّ تمثّلها إبداعيا، فإذا بالخيوط الفضيّة والذهبية والأقراص تتحوّل إلى لوحات تشكيلية يستعاد فيها الموضوع أو يعاد إنتاجه بقدر ما يخلق من جديد.

لكن هذه الممارسة ليست تقنية محضة إذ تتنزّل في سياق عامّ تظهر فيه التنشئة الاجتماعية التي تكرّس مفهوما معيّنا للتربية تجعل فيه إتقان الطريزة شرطا أخلاقيا واجتماعيا يسمح للبنت بتجهيز نفسها من الألبسة التقليدية التي بدونها لا يمكن لها المرور إلى الحياة الزوجية.

أمّا التقطير فهو نشاط منزلي حضري في المقام الأوّل ليس فحسب من حيث عملية إنتاجه، وإنّما أيضا من حيث الاستهلاك طالما أنّه موجّه في أغلب الأحيان إلى سدّ حاجات العائلة المتنوّعة نظرا للحضور البارز لهذه المستخلصات في العديد من التقاليد الاجتماعية بالمدن، إذ تدخل في مكوّنات المطبخ التقليدي لا سيما تلك المتعلّقة بالحلويات سواء الاحتفالية منها أو اليومية كما تؤلّف جزءا من أساليب العلاج الموروثة فضلا عن وظيفتها الطقوسية في الأعياد الدينية والمناسبات العائلية، ويكفي أن نستحضر القيمة الرمزية التي يحظى بها ماء الزهر في هذا المجال، لهذا كان جني الزهور ونباتات التقطير مع بدايات الربيع من المناسبات القليلة التي كان يسمح فيها للمرأة بالخروج من البيت، وهو استثناء معمّم على جميع المراكز الحضرية حتّى تلك الصغيرة منها مثل الماتلين أين كانت النساء والفتيات يتردّدن على البساتين في إجواء احتفالية أيّام الربيع بما يؤكّد أهمية التقطير وطبيعته الحضرية.

- **مرجعية ثقافية ريفية:**

يقتضي نمط الحياة الريفية جملة من المهارات الحرفية تستجيب للحاجات اليومية للمجموعة الريفية، ففي ظلّ اقتصاد بيتي قائم على الاكتفاء الذاتي ومحدودية تقسيم العمل تباشر العائلة أو المجموعة بنفسها أعمالها الحرفية، فكانت تؤلّف جزءا من الأعمال المنزلية المقسّمة أصلا حسب الجنس كذلك كان الفخّار والنّجارة والحدادة والألياف النباتية، فالفخار في مقعد وهذيل وجومين

وبجاوة كان مدرجا ضمن النشاط العائلي المنزلي، ولا يمكن للعائلة أن تجد ضالّتها في غير ما تصنعه أيادي نسائها، كذلك كانت المنتوجات الصوفية السائدة جنوب منطقة مقعد والتي تتطابق مع الثقافة الرعوية لعرش هذيل المنحدر من أصول عربية مضرية (23) لا تخفى صلتها العريقة بالبداوة، بحيث تمّت المحافظة على ذاكرة حرفية حيّة ضمن نمط حياة ظلّ يعتمد الرعي.

إنّ الريف بوصفه ثقافة ونمط حياه وليس فقط حيزا جغرافيا يدفع إلى استنباط المعالجات التقنية المناسبة، فيسعى الرّيفي قدر الإمكان إلى أن يوفّر بنفسه أقصى ما يمكن من الأدوات والوسائل التي يحتاج إليها في عمله الزراعي أو في البيت، ولعلّ هنا تكمن إشكالية تصنيف التقاليد الحرفية بالوسط الريفي طالما أنّها، وبفعل ضعف التقسيم الاجتماعي والتقني للعمل، لا تتمايز عن بعضها البعض كثيرا، بل إنّها لا تتمايز عن الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية الأخرى، إذ تبدو مندمجة فيها، ذات قيمة وظيفية مباشرة تؤمّن الحاجة دون سعي إلى التعقيد والتفنّن فيها. كما أنّها ليست منتظمة زمنيا حسب التواتر المعروف في المدينة أين يتمّ تعاطيها بصفة مسترسلة، وإنّما تخضع لدورة زمنية متعاقبة تتغيّر بمقتضاها نوعية الممارسة الحرفية حسب البنية الزراعية المرتبطة بدورها بتناوب الفصول، فللفخار زمانه، ولخدمة الألياف النباتية من «الدّيس» فصلها، ولجزّ الصّوف ثمّ غزله وحياكته وقته، بل إنّ التواتر والتقطّع تحدّدهما أيضا الظّرفيات الخاصّة بكلّ عائلة، من ذلك أنّ استعداد أحد أبنائها أو بناتها للزواج عادة ما يقترن بنشاط حرفي عائلي كثيف لتأمين حاجات البيت الجديد من الأغطية الصوفية والفخّار والمفروشات.

- مرجعية بيئية:

يدخل الوسط البيئي في ما يسمّيه مالينوفسكي الأساس المادّي للثقافة Le subsrat matériel de la culture (24)، وهو بوصفه معطى جاهزا ذو وظيفة مزدوجة، إذ يمثّل حليفا للإنسان بفضل ما يمنحه إيّاه من من مواد أوّلية لعمله اليدوي وفي الآن نفسه عدوّا له لما يطرحه أمامه من مشاكل وتحدّيات.

والحرف باعتبارها فعلا ثقافيا مشروطة إلى حدّ بعيد بإطارها البيئي على النّحو الذي صار معروفا في سياق الأنثروبولوجيا الثقافية منذ الأعمال الأولى لبواس Boas والأنثروبولوجيا البيئية.

إنّ تأثير المحيط الجغرافي لا يتجلّى فحسب في ما يوفّره من مواد خام تتطابق معها أنماط محدّدة من المهارات الحرفية، وإنّما أيضا من خلال ما تنطوي عليه من ضوابط وضغوطات تقتضي تكيّفات خاصّة، لذلك يستند بعض المختصّين في دراسة المأثورات الشعبية في تصنيفهم لمواد الثقافة المادية، التي تمثّل الحرف واحدة منها، إلى المعطيات البيئية» بوصفها إطارا عاما للدراسة، أو مقياس تصنيف داخلي (25)، بحيث يمكن تقسيم الحرف مثلا إلى بحرية وصحراوية وجبلية وسهلية، من ذلك أنّ المهارات المتّصلة باستخدام الأخشاب في مقعد والتي كانت تظهر حتى في نمط السكن المعتمد لا يمكن تصوّرها خارج إطار الخصوصيات الجغرافية للمنطقة حيث الغطاء الغابي الكثيف، كذلك الشأن بالنسبة إلى الفخّار المعروف هناك بما أنّه يتشكّل يدويا من مواد مختلفة جميعها مستمدّ من البيئة المحليّة بدءا بالطّين وصولا إلى المغرة والذّرو العلك.

في حين منحت الجبال المكسوّة بالديس بكلّ من هذيل وبجاوة لسكّان بازينة وجومين المادة الأولية لتطوير ممارسة حرفية هي الألياف النباتية المعتمدة على نبتة الدّيس الذي يتضاءل حول بحيرة بنزرت وساحلها لفائدة السمار فتستغلّ هناك هذه المادّة حرفيا بما يتوافق مع خصائصها الطبيعية حيث يصنع منها الحصير بقرية الماتلين وسلال الصيّادين من نوع البرنقلي.

خاتمة:

إنّ التوزّع الحرفي التقليدي جغرافي بقدر ما هو تاريخي وسوسيولوجي طالما أنّه كان يستند إلى مراجع توّصله وترعاه وفق نظام تشكّل على أساس شروط السياق المحلّي للمجموعة والتي من أهمّها ما يسمّيه لروا-غورهان Leroi-Gourhan البيئة التقنية.

غير أنّ هذا التوزّع هو الآن قيد التفسّخ، إذ اختفت حرف من مناطق كانت تشكّل مراكزها التقليدية مثل الفخّار

المخروط بكلّ من بنزرت ورأس الجبل مقابل إدخال حرف تقليدية إلى مناطق جديدة كصناعة الأقفاص التي غدت منتشرة برفراف ونسج الزربية ببنزرت بعد أن تمّ تطويرها انطلاقا من نمط الزربية القيروانية. كما تداخلت الحرف بالمكان الواحد، ولم تعد تؤلّف تمايزات تؤلّف اختصاصات محليّة أو جهوية.

كلّ ذلك بفعل تفكّك الضّوابط التي كانت توجّه التقاليد الحرفية وتوزّعها، فالمرجعية الريفية لم تعد فاعلة كثيرا بعدما انعدم أو كاد التمحور الذاتي L'autarçie الذي كان يطبع حياة الرّيف حتى على صعيد الممارسة التقنية، غير أنّ ذلك لا يعني تعزيزا لمكانة المدينة ضمن مفهومها التقليدي أي كمركز للتبادل السلعي بين ساكنيها باعتبار ذلك يعدّ من أهمّ وظائفها، إذ أنّها غدت مشروطة بمنطق اقصاد السّوق والكثير من المنتجات الحرفية لا علاقة بتأمين الحاجات الداخلية للمدينة، وإنّما هي موجّهة إلى أسواق خارجها تجد لها فيها رواجا.

كما كفّ المعطى البيئي المباشر عن الاضطلاع بدور حيوي في الممارسة الحرفية عبر ما يوفّره من مواد خام بعدما صار موضوع رقابة بل وسيطرة متزايدة عى النحو الذي حدث بجهة مقعد مع انتصاب الاستعمار، فبعد أن كانت غاباتها، بوصفها تصنّف ضمن الأراضي الموات، مجالا للاستخدام الحرّ، أصبح التدخّل فيها وحسب الفصل 185 من القانون العقاري يخضع إلى تراتيب خاصّة (26)، وهو ما كان يعني القضاء تدريجيا على مجموعة كاملة من المهارات والتقاليد الحرفية القائمة على استخدام ما تمنحه الغابة من مواد خشبية خام.

لئن استمرّت بعض الحرف التقليدية كشواهد تاريخية وأنثروبولوجية عن المجتمعات المحلية المتعلّقة بها، فإنّها تنطوي اليوم على معان جديدة مرتبطة بتغيّر خصائصها التقنية واستخداماتها الوظيفية، فقد راحت تفقد طابعها اليدوي لتخضع أكثر فأكثر للآلة ومقتضياتها حتى حدث خلط «بين ما هو «منتوج تقليدي» Artisanal، حقيقة، وماهو «شبيه به»، أي محاكي له ظاهريا» (27). كما باتت منتوجاتها تندرج في سياق مغاير برزت فيه استخدامات جديدة لا علاقة لها بالاستهلاك المادي الوظيفي للأشياء، وإنّما ترتبط بتحقيق ما يسمّيه «بيار بورديو» التمايز الاجتماعي.

المصادر والمراجع

1) Valensi (L.), Fellahs tunisiens: L'économie rurale et la vie des campagnes aux 18 et 19 siècles, Mouton, Paris. La Haye, 1977, p.27.

2) Gobert (E.-G), «Les Potries modelées du paysan tunisien», Revue Tunisinne, N° 41-42, 1940,P.-P. 148-149.

3) - أ. و. ت، السلسلة B، صندوق 175، ملف 3، وثيقة 2.

4) - أ. وت، السسلة B، صندوق 175، ملف 5، وثيقة 2.

5) Collctif (Dougui Nourddine..), Bizerte: Identité et mémoire, Coédité par ASM Bizerte et l'Univers du livre, 2005, P.72.

6) Ginestous (P.), «Bizerte et sa région: La vie artisanale», IBLA, N°73, 1956, P.103.

7) Collctif (Ben Tanfous, Mahjoub....), Les costumes traditionels fémnins de Tunisie, Maison Tunisienne de l'Edition, 1978, P. 62.

8) Ibid., P. 68.

9) "Les ptites industies de Bizerte", Le journal de Bizerte, N°47, 27, Avril 1902.
10) Ginestous (Lucienne et Paul), " Le vêtement féminin usuel à Bizerte", Les Cahiers de Tunisie, N° 28, 1959, P. 533.
11) Ginestous (P.)," Bizerte et sa région, Op. Cit., P. 103.
12) Gobert (E.-G.), Parfums et Tatouages, Ed. Sahar, 2003, P.42.
13) Bellman (Hans Jochim) et Ben Boubaker (Abderrahmane), Modes d'utilisations et valorisation des prpduits forestires en Mogods-Kroumerie, Office de développement Sylvo-Pasoral du Nord –Ouest, Tunis 199è, P.67.
14) Brunschvig, Op.cit., P.364 .
15) Latham (J .D), « Contribution à l'étude des immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie », In Recueuil d'etudes sur les Moresques andalous en Tunisie, Préparé par De Epalza (Miguel) et Petit (Ramon), 1973, P57.
16) Ibid, P.61.
17) Lévi- Strauss (Claude), Anthropologie structurale, Paris, Plonn, 1973, P.415.
18) Leroi-Gourhan, (A.), Milieu et techniques, Paris, Albin Michel, 1945, P.356.
19) ابن خلدون (عبد الرحمان)، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 315.
20) فيبر (ماكس)، «المدينة : معناها وشرو ط قيامها»، ترجمة السيد (رضوان)، الفكر العربي، العدد 29 السنة الرابعة، أكتوبر/ نوفمبر 1982، ص 9.
21) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
22) المزوغي (فوزي)، عمل بنزرت قبل الاحتلال الفرنسي (1855- 1881)، تونس، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 2005 ص 59.
23) Brunschvig (R.), La Berbérie orientale sous les Hafsides, Tome 1, Librairie d'Amérique et d'orient, 1940, P.299.
24) Malinowski (M.), Une théorie scientifique de la culture. Edtion Seuil, Point, Paris, 1970,
25) البقلوطي (النّاصر)، مقولات في التراث الشعبي، دار تبر الزّمان، تونس، 2005 ،ص 37.
26) Buthaud (E.), « Les droits d'usage en pays forestier tunisien », Bulletin économique et soçial de la Tunisie, N° 74, Mars, 1953, P.99.
27) أيوب (عبد الرّحمان)، «الحرف التقليدية ومواترة حذق المهارات»، الحياة الثقافية، تونس، العدد 182، 2007، ص 21.

هل يمكن للصّناعات الحرفيّة المنزليّة أن تكون حلاّ لمشاكل المجتمع الفلاحيّ التونسيّ ؟

المولدي الأحمر

المشكل الذي سنطرحه في هذه الورقة يتعلق بأزمة المجتمع الفلاحي التونسي، وهي أزمة لابد من الاعتراف بها ومن تشخيصها وفق متغيرات موضوعية عديدة، بعيدا عن التحيز الإيديولوجي. كما سنناقش إمكانية أن يكون تطوير الصناعات الحرفية المنزلية في الأرياف حلا نسبيا لهذه الأزمة. ونحن إذ نقترح هذا الحل فإن عملنا يندرج في إطار التفكير الجدي في كيفية مساعدة مجتمعنا على تحقيق نقلة حضارية مهمة في تاريخه مع الاقتصاد قدر المستطاع في آثار الانزلاقات الاجتماعية المختلفة التي ترافق عادة مثل هذه التحولات.

تشخيص المشكل :

لابد من الاتفاق أولا بأن العمل المعرفي ينزع بالضرورة إلى الكشف عن «حقائق الظواهر» باستقلال عن مواقع ومصالح ومواقف الفاعلين فيها، وتلك هي القيمة الأسمى التي ينبغي تحقيقها من وجهة النظر المعرفية. و من وجهة النظر هذه فإن شرط نجاح كل عمل تنموي هو «معرفة الواقع على حقيقته».

تسمح لنا هذه الملاحظة بالدخول مباشرة إلى صلب الموضوع. ما نريد أن نبينه هنا هو أن ثمة مؤشرات قوية تدل على أن المجتمع الفلاحي التونسي الحالي قد دخل تدريجيا في حالة من الأزمة المتعددة الوجوه والمستويات، وأنه علينا أن ننظر إلى ذلك بشجاعة وأن نتعود على اعتبار مثل هذه المشاكل أمرا طبيعيا، إذ أن من أحوال العمران - ونستخدم هنا لغة خلدونية - أن ينتقل المجتمع من حال إلى حال وأن يمر بأزمات، وأنه لابد من الاعتراف بهذه الأزمات وتشخيصها والعمل بكل جد على مساعدة المجتمع على تجاوزها دون عقد أو ارتباك.

أولا ماذا نقصد بالمجتمع الفلاحي التونسي؟ في التصنيف التنموي الكلاسيكي استخدمت عبارتا قطاع فلاحي حديث وقطاع فلاحي تقليدي للتمييز بين نمطين من أساليب التنظيم والإنتاج يكون فيها الأول موجها لتلبية حاجات السوق بينما يكون الثاني موجها أساسا نحو تلبية الحاجات الغذائية للمنتجين. بيد أنه وقع التخلي تدريجيا عن هذا التصنيف بعد أن ظهر أنه لا يساعد على قراءة العلاقات المكثفة والمتداخلة بين ما يسمى القطاع الحديث والقطاع التقليدي. ومن ثم تبلور مفهوم المجتمع

الفلاحي الذي يأخذ بعين الاعتبار هذا التداخل ويعطي للخصائص الاجتماعية والثقافية للمنتجين الفلاحيين كل أهميتها. ما ترتب عن ذلك هو أن المستثمرين الفلاحيين الذين يوجهون إنتاجهم بالكامل نحو السوق ولا ينتمون للنسيج الاجتماعي والثقافي المحلي - بمعنى أنهم لا يقيمون علاقات اجتماعية مكثفة مع جيرانهم وليسوا طرفا في النسيج القرابي والثقافي المحلي - لا يعدون جزءا من المجتمع الفلاحي.

المجتمع الذي نتحدث عنه إذن يشمل أولئك الفلاحين الذين يديرون شؤون مستغلاتهم، مهما كان حجمها، وفق مبادئ لا تعتمد بشكل صارم منطق السوق، ويشكلون محليا نسيجا من العلاقات الاجتماعية والثقافية التي تعتمد على قيم الهبة والقرابة والثقافة الدينية البسيطة. هذا هو المجتمع الذي قلنا إنه يشهد أزمة هيكلية عميقة مدعين - ولكنه ادعاء غير ديماغوجي- بأن تطوير الصناعات الحرفية المنزلية يمكن أن يكون حلا جديا للبعض من مشاكله.

مؤشرات الأزمة :

هناك عدة مؤشرات تؤكد ما نذهب إليه. المؤشر الأول هو أن عدد أعضاء هذا المجتمع من المالكين أو المزارعين الفلاحين في تزايد مستمر. لقد زاد العدد الجملي للفلاحيين التونسيين بين سنتي 1962و1995 بحوالي 30%. بل إن عدد الذين يملكون منهم أقل من 5 هكتار قد زاد بنسبة 89% .

المؤشر الثاني هو الازدياد الملفت لعدد الفلاحين الذين بلغت سنهم الستين سنة فما فوق. ففي سنة 1962 كانت نسبة هؤلاء 21%، لكنها وصلت سنة 1995 إلى 37%، وقد بلغ متوسط السن لدى جميع الفئات العمرية إلى 53 سنة. بل إن 40% من الأراضي الفلاحية الخاصة في البلاد يديرها فلاحون فاقت سنهم 60 سنة. وبما أن هؤلاء ولدوا قبل الاستقلال وقبل انتشار المدارس في الأرياف فإنّ نسبة كبيرة منهم تنتمي إلى فئة الأميين.

المؤشر الثالث هو مدى استيعاب المستغلات الفلاحية لنشاط مالكيها أو متسوغيها. إن ما تبينه الدراسات هو أن نسبة الفلاحين الذين يصرفون مجمل أوقاتهم في العمل بمستغلاتهم قد تراجع بشكل ملحوظ. فعلى سبيل المثال كانت نسبة هؤلاء سنة 1962 46% لكنها أصبحت 37% فقط سنة 1995. أما بالنسبة لمن يملكون أقل من 5 هكتارات فإن نسبة الذين يعملون منهم معظم وقتهم خارج مستغلاتهم قد وصل إلى 43% وهي31% بالنسبة لمن تتراوح ملكيتهم ما بين 5 و 10 هكتارات .

مشكل الصناعات الحرفية المنزلية :

هذه مؤشرات تخص البنية العقارية و الديمغرافية والاقتصادية للمجتمع الفلاحي الذي نتحدث عنه، وهي عديدة ويمكن التوسع فيها كثيرا. لكنه علينا أن ننتبه إلى أن التغيرات الهيكلية المختلفة والمتعددة الواجهات التي حدثت على مستوى هذه البنية كان لها في ذات الوقت تأثير كبير جدا على أحد أهم ركائز الاقتصاد الفلاحي التونسي، وبالتحديد على القاعدة الاجتماعية الثقافية التي يقوم عليها هذا الاقتصاد، ونعني بذلك الصناعات الحرفية المنزلية التي تمثل العائلة الفلاحية إطارها الاجتماعي والمرأة طاقتها الفكرية العضوية الأولى.

ذلك أن توطين البدو، وربط قسم كبير من الفلاحين القرويين بالاقتصاد الرأسمالي الصناعي، قد جرى في بلادنا في إطار استعماري لم يتعامل الفاعلون الأساسيون فيه مع عناصر الإنتاج الفلاحي والحرفي المحلي إلا على أساس أنها تمثل صعوبات أمام توسع السوق لفائدة رأس المال الوافد أوعقبات أمام نجاح مشروع الهيمنة الثقافية للمستعمر. وعندما ورثت الدولة التونسية هذه التركة الاستعمارية كانت نخبها السياسية التي أخذت على عاتقها مشروع التنمية تفكر بنفس الطريقة.

ومن ثم فإن أول شئ حاولت الدولة الوطنية القيام به هو القضاء بشكل يكاد يكون راديكاليا على المجتمع الفلاحي الذي بينا خصائصه، وذلك عن طريق سياسة

التعاضد والتعليم الحديث والتنظيم العائلي، أي عن طريق الاقتصاد والثقافة وتقييد حرية الإنجاب. وقد استمرت هذه السياسة خلال العشرين سنة الأخيرة ولكن من باب آخر يتمثل هذه المرة في التحسين شبه المجاني لمستوى عيش السكان الريفيين، وهو ذات المشروع الذي فشلت فيه سياسة الستينات.

وهكذا فإنه بينما كان الفلاحون يشيخون ومستغلاتهم تتفتت وتعجز عن استيعاب كل طاقة عمل أسرهم وتعجز بالتالي عن مدهم بالمداخيل الكافية لضمان عيشهم، كانت الجهود التنموية تكثف من انفتاح مجتمعهم على العالم الخارجي، أي على المدن التونسية وعلى ما يحدث على مستوى كوني. فعلى سبيل المثال أصبحت الغالبية الساحقة من الأسر التونسية في الأرياف مرتبطة بشبكة الكهرباء (أكثر من95%)، وهي وضعية تفترض مسبقا تحسنا كبيرا في ميدان السكن. كما بدأت الحنفية الخاصة والجماعية تشق طريقها إلى الأرياف رغم مواصلة كثير من السكان الاعتماد على ماء الآبار وخزانات مياه الأمطار. وفي الأثناء لم يعد التلفاز حاجة كمالية عند الفلاحين وكذا بالنسبة للراديو والأمر يسير في نفس الاتجاه بالنسبة للهاتف، وخاصة الهاتف الجوال. وإضافة إلى كل هذا، وهذا شيء مهم للغاية، توسعت شبكات النقل ومكنت المدارس قسما من أبناء الفلاحين من الوصول إلى الجامعة أي إلى المدن، بينما أصبح لكل قرية تونسية سوق أسبوعية تباع فيه كل أصناف المنتجات الصناعية التي تأتي من جميع أصقاع الدنيا .

النتيجة التي حصلت جراء كل هذه السياسات التنموية المختلفة هو أن القاعدة الاقتصادية للمجتمع الفلاحي التونسي التي تقوم -ككل هذا النوع من المجتمعات- على الترابط العضوي بين الانتاج الفلاحي في الحقل والانتاج الحرفي في المنزل قد تفككت. فمن جهة تقلصت مساحة الأرض التي تتصرف فيها كل وحدة إنتاجية على حدة، وتفتتت، ودبت الشيخوخة إلى قوة العمل التي تعتني بها. وقد تولد عن ذلك أن المزرعة لم تعد تنتج ما يكفي من عناصر الغذاء والكساء والسكن لهذه الوحدة . ومن جهة أخرى تراجع الفلاحون، وخاصة المرأة، عن ممارسة الصناعات الحرفية التحويلية، مثل النسيج وإعداد مختلف مشتقات الحليب، و لوازم المنزل من فراش وأواني طبخ وأكل وغير ذلك، كما تخلى من يحذق الصناعة الحرفية الخشبية ذات الاستعمال البيتي عن مثل هذا النشاط.

إن تحطم ركائز هذه المعادلة هو الذي مول منذ الستينات حركات النزوح والهجرة إلى الخارج بزادها البشري المتدفق، وخلق فوضى الأحياء السكنية العشوائية حول المدن الكبيرة. لكنه من المهم جدا أن نلاحظ هنا بأن انهيار الصناعات الحرفية المنزلية في الأرياف لم يكن مجرد حدث اقتصادي بل كان كذلك حدثا ثقافيا وفنيا ومعرفيا. إذ أنه في الوقت الذي كانت فيه الوحدة الحرفية العائلية تفقد علاقتها التحويلية بالمنتوج الفلاحي، كانت الأسواق تعرض على الفلاحين أنواعًا جديدة من السلع المعملية العالية التقانة والمشحونة بدلالات ثقافية عالمية قوية، وذلك كبديل عن منتوجات الصناعات اليدوية المنزلية التي أصبحت تنعت بالصناعات التقليدية وألحقت بما يسمى بالتراث.

إن ما ترتب على ذلك هو أن النخب التونسية قد قضت فترة طويلة وهي تتعامل مع هذه القضية الاقتصادية الثقافية المركبة من خلال مفاهيم مثل الصناعات التقليدية والتراث والهوية وغيرها، وهي كلها كما نعلم مفاهيم لا تفتح آفاقا تنموية جدية وعملية لأنها مفردات سياسية وثقافية نخبوية أكثر من أي شئ أخر(لم تتعد مساهمة هذا القطاع 10% من الناتج الوطني)، إذ أن من يهتم بالصناعات التقليدية - يجب الاعتراف بذلك - هي الفئات العليا للمجتمع التي تعتبر نفسها الذات الثقافية للتاريخ، والدولة التي تعتبر نفسها الضامن لاستمرار الهوية والتراث.

أما القضية الرئيسية التي هي كيف يمكن إعادة تنشيط الوحدات الحرفية العائلية الفلاحية ومساعدتها على

التأقلم مع اقتصاد السوق على المستوى الاقتصادي والفني والثقافي، كي تستمر كوحدات إنتاجية توفر الشغل والدخل لمجتمع فلاحي لم يعد قادرا على إنتاج غذائه ولا تجد القوى الشابة فيه ما يستوعب طاقاتها، مع صعوبة وجود البديل في المدينة، فقد ظلت فكرة غائمة مغيبة في ثنايا مفردات نخبوية لا تتضمن مشاريع تنموية واضحة.

إن الحل الذي نقترحه لبعث حياة اقتصادية جديدة في الأرياف عن طريق تحويل الصناعات اليدوية الاستهلاكية المنزلية إلى صناعات تجارية تتماشى مع حاجاتنا الثقافية والفنية المتزايدة حل واقعي إلى حد كبير، رغم الصعوبات التي تواجه إنجازه، إذ أنه سيمكننا من إعادة دمج القوى الفلاحية شبه العاطلة في نسيج النشاط الاقتصادي لبلادنا وللعالم، وفي الوقت ذاته سيسمح لنا هذا الحل بإعادة صياغة ذاتنا الثقافية التي هجّنها إلى حد كبير الاستعمار التقليدي وتهدّدها الآن العولمة بما يتوافق مع مقتضيات العصر.

إنه بإمكاننا عندها أن نأمل أن تستمد مبانينا وشوارعنا ومدارسنا ونزلنا وألبستنا وأغذيتنا ملامحها الفنية من تجاربنا الحرفية العريقة والمتنوعة والمنفتحة على العالم، وهو ما سيفتح أمامنا الطريق نحو إعادة تركيب معاصرة لهويتنا التاريخية. لقد لاحظ لويس ماسينيون - و هو شاهد مرموق على كارثة انهيار الصناعات الحرفية في بلادنا - أن من أسباب هذه الكارثة «أن الأجيال الاسلامية الجديدة تبتعد بإجماع أكثر فأكثر إصرارا وقوة عن التزاويق المنزلية الغالية على أجدادهم والتي أصبحت بالنسبة لهم رمزا للانهيار السياسي الذي أفقدهم استقلاليتهم»: لقد استقلت بلادنا فليكن شعارنا في المستقبل هو استرجاع هذه التزاويق الغالية وبث قيم الحداثة والمعاصرة فيها من خلال تطوير الصناعات الحرفية. لعل ذلك يكون جزءًا من حل مشاكل المجتمع الفلاحي التونسي.

صنعة الفطاير
من المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر
إلى الاستقلال

فاطمة جراد

مقدمة:

عرف المشهد الاقتصادي بشمال البلاد منذ أواسط القرن التاسع عشر ولا سيّما بالحاضرة تونس ظهور صناعات حرفية تجارية تتمتع بموارد محدودة لكنها قارة ،وفد أصحابها من مناطق متعددة بجنوب البلاد في إطار هجرات العمل الفردية والوقتية التي كانوا يمارسونها نحو هذه المناطق (كالحماصة والفطايرية وغيرهم...). ويبدو أن هذه الصناعات تمكنت تدريجيا وبأشكال متفاوتة من احتلال مكانة معتبرة ضمن الصناعات العريقة التي عرفتها البلاد التونسية .

وتعتبر صنعة الفطاير، من خلال ما توفر لدينا من مصادر مكتوبة يمتدّ تاريخها من النصف الثاني للقرن التاسع عشر إلى حدود منتصف خمسينات القرن العشرين، من أبرز هذه المهن التي كانت لها قواعدها وأعرافها وهياكلها واستطاعت أن تحتّل موقعا متميزا ضمن الصناعات الغذائية التونسية ومزاحمة حتى العادات الغذائية الأوروبية الوافدة إلى البلاد التونسية.

لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة التعريف بهذه الصنعة ورصد مسارها التاريخي ووصف قواعدها وتحليل هياكلها التنظيميّة.

I – صنعة الفطاير: تعريفها ، جذورها وعلاقتها بالغمراسني

1 ـ تعريفها:

خصّص محمد بن عثمان الحشايشي في مؤلفه حول العادات التونسية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر تعريفا مطولا لصنعة الفطاير قائلا ما يلي: «الفطائري هو الذي يقلي الفطيرة بزيت خالص، وهي من نوع العجين المخمّر وله حانوت خاص بجهات معلومة من البلد وله صناع يبيعون له الفطائر فوق طباق من القصدير، يأكل الناس عنده صباحا ولكن من الأوباش والرعاع، يجلسون على قناطر من اللوح وتجعل الفطائر فوق ألواح طوال وبعد الفراغ من الأكل يمسحون أيديهم بالنخالة ثم ينصرفون وغالب الصغار من أهالي تونس

لا بدّ أن يأكل كل واحد منهم فطيرة في الصباح ، وبذا جرت العادة ويأكل من يشتهي ذلك أيضا وهناك من يغمسها في العسل والسكر أو يأكلها بشيء من الغلة كالعنب أو الكرموس أو البيثر الخ ، أهل هاته الصناعة من أهل الأعراض غمراسن» (1)

مما لا شك فيه أن إشارة الحشايشي تعتبر شهادة تاريخية قيمة ووثيقة اجتماعية واقتصادية وحتى ثقافية عن هذه الصنعة، فقد حاول الكاتب تدقيق التعريف بذكر مواد الصنع وكيفيته والطريقة التي تباع بها وذكر المصطلحات الخاصة بها ومكان الصناعة والبيع ومن يقوم بها ومن يستهلكها وكيفية أكلها (2). لذلك سنعتبرها منطلقا لهذه الدراسة حول صنعة الفطاير وسنتوسع في هذا السياق لمحاولة تعريفها اعتمادا على ما توفر من مصادر مكتوبة وما اختزنته الذاكرة الشعبية عن هذه الصنعة.

وقبل الخوض في جوانب الموضوع لا يجب أن نمرّ دون تعريف «الفطيرة» فهي رقاقة في شكل دائرة (3) تصنع كما أشار الى ذلك الحشايشي من عجين مخمّر(4)، ثم تقلى في الزيت داخل إناء واسع يتسع لكمية كبيرة من الزيت يسمّى «طاجين» حتى يصبح لونها ذهبيا يميل إلى الحمرة فتكون بذلك جاهزة للاستهلاك. وهي تؤكل عادة ساخنة في فطور الصباح داخل حانوت الفطايري وتستهلك في الأصل وحدها دون أي مواد أخرى (كالسكر والعسل....). وبالتالي يمكننا تصنيفها ضمن الصناعات الغذائية التجارية المختصة في الأكلة السريعة (5). ويبدو أن حملها الى المنزل أو إلى مكان العمل هي عادة دخيلة على مستهلكي الفطاير، فقد ظهرت تدريجيا في سياق تطورها وانتشار الطلب عليها وتلاؤمها مع عادات المجتمع وتقاليده. فالمرأة والطفل والمسنّ حينئذ لا يمكنه الحضور إلى حانوت الفطايري لتناول الفطيرة لذلك يجب أن تحمل إليهم.

لذلك يمكن الإقرار بأن هذه الصنعة كانت في البداية تتعامل مع مجتمع استهلاكي ذكوري بالأساس ينتمي خاصة الى الطبقات الشعبية والهامشية (6) الذين يصفهم الحشايشي بنعوت لا تخلو من العنصرية ونبرة تحقيرية باعتبار انتمائه إلى الطبقات الارستقراطية «الرعاع والأوباش... والصغار من أهالي تونس» (7). لكنه أقرّ أيضا بأنها قادرة على استقطاب كل من «يشتهيها» أي من الفئات اجتماعية الأخرى ولا سيّما الارستقراطية منها، وهو اعتراف ضمني بأن الفطيرة استطاعت أن تأسر قلوب المارين أمام حانوت الفطايري و«تسيل لعابهم». بل أكثر من ذلك ربّما أصبحت قادرة لبخس ثمنها على مزاحمة بعض الصناعات الغذائية الأخرى التي تميز بها الحضر من أهالي تونس، وهي بالأساس الحلويات ذات الجذور الأندلسية والتركية والأوربية التي وفدت إلى البلاد بعد الاحتلال الفرنسي.

كما تمكنت هذه الصنعة تدريجيا من أن تشغل مكانة هامّة ضمن قائمة الصناعات التونسية، ولا أدل على ذلك هذه الفقرة التي خصصها لها الحشائشي عند عرضه للصناعات التونسية بالحاضرة، وذكرها جنب إلى جنب مع أهم الصنائع على الإطلاق في الحاضرة تونس، وهي صناعة الشاشية التي تعتبر من الصناعات الحضرية الراقية، هذا إلى جانب ما عثرنا عليه من وثائق بالأرشيف الوطني التونسي التي تؤكد بأن هذه الصنعة لم تكن هامشية بالمرّة داخل المشهد الاقتصادي العام خاصة بالحاضرة تونس.

2 - جذورها وعلاقتها بالغمراسني:

من الثابت بأن المصادر تعترف بالشرعية التاريخية لانتماء هذه الصنعة لأهالي غمراسن (8) وارتباطها الوثيق بهم إلى حدّ أن كلمة غمراسني أصبحت مرادفة لصفة فطايري (9).

لكن هذه المصادر أيضا لا تحيلنا إلى أية إشارة عن جذور هذه الصنعة ولا كيف وصلت إلى أهالي غمراسن، إلا أن الذاكرة الجماعية لأهالي الجهة ترجعها إلى الجدّ المؤسس لغمراسن القادم من الساقية الحمراء (10) الذي جاء بها معه ثم أورثها إلى أولاده من بعده إذ شاع في المنطوق الشفوي للجهة بأنها «صنعة الجدّ»

(11). ولكن لا نجد في الحقيقة أي دعائم واقعية دالة على الجذور المحلية لهذه الصنعة وحتى وإن سلمنا بصحّة هذا الزعم فالسؤال يبقى مطروحا لماذا لم تمارس هذه الصنعة في غمراسن ذاتها والمناطق المجاورة لها؟ لماذا لم تندرج ضمن الأنشطة الاقتصادية اليومية لأهالي المنطقة وعاداتهم الاستهلاكية؟. بل على العكس فإن النسوة لا يمتلكن أي فكرة عن تقنيات هذه الصنعة. كما أن المصادر المتوفرة رغم قلتها تشير إلى ارتباط هذه الصنعة بهجرة الغمراسنية إلى شمال البلاد، فهي حرفة مرتبطة بموطن الهجرة وبسوق الشغل لا بالوطن الأم. ويبدو أنها من استنباط محترفيها في مكان الهجرة ولا يعدو ربطها بالجدّ المؤسس إلا نوعا من إضفاء بعض القداسة عليها وإعطائها قيمة مضافة لدى الأجيال اللاحقة لضمان تواصلها وتوارثها من الأب إلى الابن. ويقول محمد نجيب بوطالب في مقاله حول هجرة العمل من قبيلة ورغمة «نحن لا نلاحظ هجرة حرف بل هجرة قوة عمل خام... إن الحرف تتكون في الخارج في مناطق الجذب» (12).

إذن تندرج هذه الصنعة ضمن ظاهرة هجرة العمل الفردية التي عرفها السكان الجبالية بجهة تطاوين منذ بدايات القرن الثامن عشر والتي عرفت شكلا أكثر انتظاما واحتدادا بعدما كانت متقطعة ومرتبطة بالأزمات المناخية منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر وخاصة مع الانتصاب الفرنسي بالبلاد (13). ولن نطيل في الحديث عن أسباب هذه الهجرات المبكّرة فقد تناولتها الدراسات بإسهاب، فهي تنقسم أساسا إلى قسمين أساسيين: أسباب هيكلية مرتبطة بقساوة المناخ وقلة الموارد الاقتصادية بالجهة، وأخرى ظرفية ناتجة عن المراقبة العسكرية الصارمة التي فرضتها الإدارة العسكرية الفرنسية على تحركات قبائل ورغمّة وما نتج عنها من ضرب الموارد التقليدية لسكان المنطقة. ممّا دفعهم إلى البحث عن حلول أخرى لضمان عيشهم ويبدو أن أنجع هذه الحلول هو سلك طريق الهجرة واستنباط مهن جديدة قادرة على تأمين عائدات مالية قارة.

إن محاولة رصد الامتداد المجالي لصنعة الفطايرية يجعلنا نلاحظ تركز حوانيت الفطايرية بشمال البلاد (14). وهو ما يدعّم الرأي القائل بارتباطها بمكان الهجرة نحو مناطق الجذب بشمال البلاد وخاصة إلى الحاضرة تونس وأحوازها، التي كانت المدينة الوحيدة في أواخر القرن التاسع عشر القادرة على استقطاب أعداد هامة من اليد العاملة غير متخصّصة مهنيا (15). كما امتد أيضا مجال هذه المهنة في بعض المناطق الشمالية والشمالية الغربية للبلاد القريبة من تونس ولكن بأقل حدّة مثل (طبربة، ماطر، بنزرت، باجة، الكاف، سوق الأربعاء (جندوبة)، مجاز الباب، تستور...). ويمكن أن ينتقل الشخص الواحد بين هذه المناطق في فترات مختلفة للممارسة هذه الصنعة، إذ تذكر إحدى الوثائق المؤرخة في 19 ديسمبر 1907 ما يلي: «الحمد لله حضر لدى شهيديه المكرمان محمد بن مسعود عرف بن جراد الغمراسني الفطايري صناعة الآن ببلد طبربة ومحمد ابن الحاج علي المقدم القبيل الفطايري الآن أيضا ببلد ماطر حال الإشهاد عليه بطبربة واتفقا على عمارة حانوت تعدّ لصنعتها بمدينة باجة... الخ الوثيقة» (16). ولكن بالمقابل لم تعرف هذه الصنعة انتشارا في بقية المدن الكبرى للبلاد مثل المدن الساحلية كصفاقس حيث يحيلنا ملف حول أمناء الفطائرية بجهة صفاقس إلى أن الفطايرية لم يكونوا من أهل غمراسن بل من أصيلي صفاقس(17). ولا نجد إشارات أخرى خاصة بصنعة الفطايري في بقية الجهات.

وتأسيسا على ما تقدّم بإمكاننا التأكيد بأن هذه الصنعة تركزت مجاليا بالعاصمة والمناطق القريبة منها ثم توسعت تدريجيا نحو المناطق الشمالية الغربية للبلاد المتاخمة للحدود الجزائرية. ومن هذه البوابة استطاع الغمراسني النّزاع إلى الهجرة اكتشاف أسواق جديدة وهي السوق الجزائرية منذ حوالي مطلع العشرينات من القرن العشرين والسوق الفرنسية منذ أواخر الخمسينات (18). لذلك فإننا لن نبالغ إذا وصفنا هذه الصنعة «بالصنعة المهاجرة».

وينتمي ممتهنو هذه الصنعة عمليًا إلى كل العروش المكونة لقبيلة غمراسن(19). ويواصلون الانتظام وفق الانتماء العروشي للوطن الأم كما يخصص لكل مجموعة من الفطائرية رئيس ينتمي إلى العرش الذي ينحدرون منه، فقد أشارت وثيقة مؤرخة في 25 جويلية 1944 إلى أن فطايرية الحاضرة ينقسمون إلى أربعة فرق هي كالتالي (20) :

- عرش الزواخر يديرون 21 حانوتا
- عرش المواسي يديرون 41 حانوتا
- عرش الحدادة يديرون 8 حوانيت
- عرش أولاد زيد والمرابطين أولاد سليم يديرون 7 حوانيت .

وحسب هذه الوثيقة فإن عدد حوانيت الفطايرية بالحاضرة دون الأحواز يبلغ 77 حانوتا بينما تذكر وثيقة أخرى مؤرخة في 7 ديسمبر 1945عدد 140 حانوت بالحاضرة فقط، لذلك لا يمكننا الوثوق بهذه الأرقام كثيرا فهي تقريبية ومن افتراض الفطايرية أنفسهم في غياب إحصائيات رسمية لعدد حوانيت الفطائرية وجرد لأسمائهم. ولكن يمكن أن نستنتج من خلال هذه الأرقام أهمية التركّز العددي للحوانيت بالحاضرة.

ورغم افتقارنا لأرقام أكثر دقة عن أعداد الفطايرية وحوانيتهم فإن الإشارات تبدو عديدة في الوثائق حول القواعد التنظيمية لهذه الصنعة.

II – الهياكل والقواعد التنظيمية لصنعة الفطايري :

اعتبرت صنعة الفطايري صنعة قائمة الذات منذ أواسط القرن التاسع عشر لها قوانينها وهياكلها ومرجعيتها حيث تشير المصادر إلى نظام الشركة في ملكية وكراء الحوانيت وانتخاب أمناء الفطايرية يسهرون على رعاية مصالح الصنعة.

1 – نظام الشركة في إدارة الحوانيت :

يمارس الفطايري مهنته داخل حانوت تكون غالبا مكانا للإقامة أيضا داخل «سدّة» يتمّ إنشاؤها لهذا الغرض. يتميز نظام إدارة هذه الحوانيت بنظام الشركة إذ نادرا ما تكون للفطايري حانوت على ملكه الخاص ولكن عادة ما يشاركه في ملكيتها أو تسويغها أخوته أو أبناء أعمامه . ويختلف عدد الشركاء من شخصين إلى أكثر .كما يحرص الفطايري قبل شراء أو كراء حانوته على القيام بدراسة ذهنية لمردودية السوق التي سينتصب فيها وتقدير المرابيح للإقدام على خوض هذه المغامرة. وينص عقد الشركة الذي عثرنا عليه في وثيقة يعود تاريخها إلى أكثر من مائة عام على مجموعة من البنود منها (21).

- يشترك الطرفان مناصفة في دفع كراء الحانوت وتزويدها بالمواد اللازمة للصنعة.
- يباشر الشريكان العمل بالتداول في شكل دوري سنة بسنة.
- في حالة وفاة أحد الطرفين ينتقل نصيبه في شركة الحانوت ومباشرة الخدمة إلى ورثته.
- في صورة الاتفاق على الاشتراك في تسويغ أو شراء محلّ آخر فإن نفس الاتفاق يبقى نافذا في الشركة الجديدة.

نلاحظ من خلال هذه البنود الصبغة الوراثية لهذه الصنعة والدقّة التنظيمية بحيث يسعى المشتركان لضمان حقوقهما وحقوق ورثتهم من خلال حجة عدلية تنتقل من جيل إلى آخر.

يسمّى الفطايري صاحب الحانوت «المعلّم» (بكسر اللام) وهو الذي يباشر صنع الفطاير بنفسه ويستخدم معه معاونين يسمّون «صناع» مهمّتهم إعداد مواد العمل ويبيعون له السلعة وقد تتوسع مهمّتهم إلى التنقل داخل الأزقة لبيع الفطائر، يقال في لغة الفطايرية «يبيع اللوحة»، ويكونون غالبا من أصيلي غمراسن من الشّبان

الحديثي السن، بحيث تمكنهم فرصة العمل كصنّاع تعلم تقنيات الصنعة ليصبحوا هم أيضا بعد فترة صنايعية وبالتالي يتم تداول هذه الصنعة لدى الغمراسنية حسب العمر من الكبير نحو الأصغر سنا. وفي بعض المناسبات تستوجب وفرة العمل على الفطايري استخدام يد عاملة إضافية فيضطر إلى إدماج بعض العناصر غير المحليّة من المناطق المجاورة لغمراسن كالعبابسة أو الحوايا... أو حتى من أهل المنطقة التي يمارس فيها الصنعة وهو ما سهّل انتشار الدخلاء عليها خاصة من مدينة باجة.

ويتميز شهر رمضان وفصل الشتاء بحركية وفترة نشاط متميزة داخل حانوت الفطايري من حيث رواج المنتوج وارتفاع العائدات المالية لهذه الصنعة إذ أن الفطايري لا يكتفي بصنع الفطاير بل ينوّع من سلعه المعروضة بصنع بعض الحلويات الأخرى كالمخارق والزلابية التي تعرف رواجا كبيرا في شهر رمضان. وقد وصل صيتها حتى قصر الباي نفسه إذ يقول أحد الفطايرية في رسالة للباي يتلمس فيها توليته أمينا «مولاي إني بسطت إلى سدّتكم مسألة ولايتي أمانة الفطائرية وإن عبدكم هو المخصص لجلالتكم بصنع الزلابية والمخارق في شهر رمضان المعظّم» (22).

تمتد فترة العمل لدى الفطايري في حانوته مدة ستة اشهر أو سنة وأحيانا أخرى سنتين بالنسبة للصّناع والعزّاب ثم يتركها إلى شريكه ليتداول عليها. ويحاول كل فطايري خلال هذه الفترة جمع أكثر قدر من المال لمواجهة المصاريف التي تنتظره في غمراسن (حفلات الزواج والختان والقيام بعض الأنشطة الفلاحية)، لذلك فانه يتبع نظاما من التقشّف في غاية من القساوة في تغذيته ولباسه (23) إلى حدّ يجعله أحيانا محلّ تندر واحتقار. لكنّه يسعى عند عودته كردّ فعل عن الوضعية التي عاشها في أيام العمل المضني للتمتع بإجازته والركون للراحة والسعي للظهور بكل مظاهر الترف والأناقة واستعمال أرقى وسائل النقل كالخيول الأصيلة، ثم في فترات لاحقة السيارات الفاخرة.

هكذا إذن يبدو الفطايري منخرطا في إطار نظام دوري ينتقل فيه من النقيض إلى النقيض بين الراحة والسكينة طورا والعمل المضني طورا آخر.

2 - انتخاب أمين للفطايرية:

تؤكد أقدم الوثائق التي عثرنا عليها حول هذا الموضوع وهي حجة اتفاق حول تعيين أمين للفطايرية مؤرخة في سنة 1896 أنه كان لهذه الحرفة أمين قار قبل هذا التاريخ إذ ورد في نص هذه الحجة «حضر الأجلاء (...قائمة مطولة لأسماء المتفقين) كلّهم معلمين في صناعة الفطاير بالحاضرة وأشهدوا جميعا أنهم اتفقوا على كلمة واحدة ورأي واحد وقدموا الأجل الأمثل الشيخ علي بن محمد اللولو ليكون عليهم أمينا يرجعون إليه في عرف صناعتهم المذكورة عوضا عمن قبله وأنهم راضون عمن يقفون عند نظره في قانون الصنعة المذكورة حضورا واتفاقا ورضاء وإشهادا تامين... شهد عليهم بذلك حال جواز ومعرفة بتاريخ يوم الجمعة 21شوال 1313 هجرية و12 أفريل 1896 الافرنجية» (24).

تدعم هذه الوثيقة القول بأن صنعة الفطايري استطاعت منذ أواسط القرن التاسع عشر أن تنتزع لها مكانة في صلب الحياة الاقتصادية بالعاصمة كغيرها من الصناعات الأخرى وتنتظم داخليا وهيكليا ضمن مؤسسة «أمين الفطارية».

فقد كانت كل مجموعة من الفطايرية مطالبة بالاتفاق على أمين لصنعتهم من بين أحد المترشحين، الذين يتقدمون بمطالب لتولي هذه المهمة، ويكون عادة المتفق عليه ممن يرتضونه وتتوفر فيه شروط هذا المنصب، ثم يدوّنون بيّنة عدلية تتضمن قائمة للفطائرية المتفقين واسم الفطايري الذي رشّحوه وأسباب ترشيحه ويرسلونها إلى الوزير الأكبر وشيخ المدينة ليتولوا التكفل بإجراء الانتخاب (25).

ومن ضمن الشروط التي يرتكز عليها الفطايرية في بيّنات الاتفاق عند ترشيح أحدهم هي أن يكون الأمين بالضرورة أصيل غمراسن «من أبناء جنسنا» وذا خبرة

طويلة في ممارسة هذه الصنعة «أول أحد من غمراسن عارفا في هذه الصنعة» وعريقا في الصنعة «قديما في الخدمة» ويتمتع بالنباهة وحسن الخلق والأمانة (26) «متوفرة فيه شروط النظافة والعفة والأمانة والثقة» (27). إذن يجب أن تتوفر في أمين الصنعة المهنية والخبرة والأخلاق الرفيعة وخاصة الأمانة ليكون محل ثقة وكفؤا لهذا المنصب. وقد كان عدد كبير من الفطايرية يسعون للظفر بهذا المنصب لما يضفيه على صاحبه من هبة ووجاهة إضافيين (28). كما أن السلط الفرنسية لم تكن تتوانى عن القيام ببحث في السّجلات العدلية للمترشحين وتحرص على نقاوتها من أي تهم أو شوائب لتضمن تجنب أي مشاكل أمنية مع الفطايرية (29).

ينتخب أمين الفطائرية بطريقة «ديمقراطية» يراعى فيها تعدد المترشحين وعدد الأصوات وتقع في مكتب للاقتراع في مقرّ مشيخة المدينة ويشرف عليها شيخ المدينة نفسه. ولا يتردد المقترعون بالتنديد بنتائج الانتخابات والمطالبة بإعادة إجرائها عندما لا تنتهي لصالح المترشح الذي اصطفوه من «اخوانهم». ففي تقرير حول ظروف إجراء انتخاب أمين قار للفطايرية يذكر الأمين المؤقت بأن عددا من الفطايرية تخلّفوا عن الانتخاب ويطلب من شيخ المدينة إعادة هذه الانتخابات (30). و لم يكتف الفطايرية بهذا المطلب بل توجهوا بعرائض لتسمية أمين ثان مع الأمين الأول (31). ويبدو أن مطالبهم أخذت بعين الاعتبار لكن عوض إعادة عملية الاقتراع تمّ تسمية أمينين للفطايرية في ذات الوقت سنة 1945 (32) .وقد حددت منطقة نفوذ كل أمين عن طريق أمر عليّ مؤرخ في 6 سبتمبر 1945 يقضي بـ «قسمة مدينة الحاضرة بالنسبة لأمانة الفطايرية إلى منطقتين تشمل أولاهما قسم المدينة الجنوبي وربض باب الجزيرة والثاني القسم الشمالي وربض باب سويقة» (33).

إلا أن السبب الأساسي في اعتقادنا لانتخاب أمينين ليس اختلاف الفطايرية حول من ينتخبون للأمانة بل هو ارتفاع عدد الحوانيت وعدد الفطائرية وانتشارهم في داخل المدينة وفي أرباضها الشمالية والجنوبية. ورغم غياب الأرقام الرسمية حول أعداد الفطايرية وحوانيتهم فإن مجرد انتخاب أمينين هو دليل على المنزلة المعتبرة التي أصبحت تحظى بها هذه الصنعة ووجوب تطوير مؤسسة الأمانة بما يتماشى مع حجم تطورها وإشعاعها ولاسيّما بعد زهاء قرن من تمركز هذه الصنعة بالعاصمة وتزايد فلول مهاجري غمراسن خاصة بعد الثلاثينات من القرن العشرين.

كما تشير الوثائق الراجعة إلى سنة 1955 أيضا إلى «ما أصبحت عليه صناعة الفطايرية من رواج وانتشار بأحواز الحاضرة مما يستلزم تعيين أمين يراقب شؤونها ويفصل النزاعات التي تحدث أحيانا... يكون مركزها بحلق الوادي» (34). ويبدو أن الأمر ينسحب أيضا على مدينة طبربة التي خصص لها في نفس الفترة أمينا (35)

يتمتع أمين الفطايرية بعدة مهام أشارت إليها الوثائق في سياقات متعددة وتتلخص خاصة في ضمان مصالح الصنعة بحل النزاعات بين الفطارية وتمثيلهم أمام السلطة ونقل مطالبهم إليها والحفاظ على تضامنهم العشائري والمهني في مكان العمل. فقد ورد في نص أحد المطالب في التعجيل بانتخاب أمين للفطايرية بأن «الفطايرية الآن مثل الغنم من غير راع تفعل ما تشاء» (36). وفي وثيقة أخرى أن الفطايرية راضون بمن «يقفون عند نظره في قانون الصنعة» (37). وبالتالي فهو يقوم بدور الراعي لأعراف الصنعة ولتقاليدها حتى «لا تقع في الفساد وعدم العرف» وتضيع مع الزمن مثل ما ورد على لسان الفطايرية (38).

ولكن رغم دقة القواعد التنظيمية لهذه الصنعة هيكليا وعرفيّا فإنها كانت تعاني من عدّة صعوبات ومشاكل سنتناولها في العنصر الموالي.

III – الصعوبات التي تواجه صنعة الفطاير وعائداتها المالية :

لقد كان الفطايرية يعانون من عدة صعوبات وأزمات ومضايقات. فلم تكن صنعة الفطائري بمنأى عن الأزمات المناخية والاقتصادية التي تعرضت لها البلاد والنظام الرأسمالي عامّة ولا سيّما خلال أزمة الثلاثينات والحرب العالمية الثانية لما تسببت فيه من غلاء للمعيشة والمواد الأولية للصنعة كالدقيق «الفارنية» والزيت وتدهور الأوضاع الأمنية التي أثرت على سير صنعة الفطاير، فأصابها كساد مميت وتراجعت مداخيلها بشكل كبير واستقال أمينها في جويلية 1944 (39)، وهو ما اضطر عددا من الفطايرية إلى الرجوع إلى غمراسن إلى حين نهاية الحرب، ثم بعد استقرار الأوضاع قفلوا راجعين إلى مكان العمل. إلا أن هذه الحادثة أدّت إلى صراعات بين المتغيّبين والباقين الذين أرادوا أن يستأثروا بخطة الأمانة لأنفسهم ويخدموا مصالحهم الخاصة وهو ما نجد صداه في مجموعة من المراسلات والشكاوى (40). لذلك اضطرّت سلطة الحاضرة الممثلة في شيخ المدينة إلى المطالبة بإعادة تنظيم الصنعة من جديد وإنعاش مؤسسة أمين الفطايرية التي تراجع تأثيرها خلال الحرب العالمية الثانية إلى حدّ انحلالها باستقالة الأمين (41).

ويبدو أن أزمة الحرب العالمية الثانية لم تكن الأزمة الوحيدة التي تأثرت بها هذه الصنعة بل هي معرضة بصفة دورية للأزمات لارتباطها بتذبذب أسعار الزيت والقمح وقانون العرض والطلب وهو ما تؤكده بجلاء إحدى الرسائل الموجهة من شيخ المدينة إلى الوزير الأكبر بتاريخ 5 سبتمبر 1955 إذ تضمنت ما يلي: «فالمنهي لسامي الجناب أن أمين الفطايرية بالحاضرة قد سلمنا مكتوبا تضمن إعلامنا بما أصاب صناعتهم من كساد بسبب ارتفاع أسعار الزيت . . .» (42).

كما تعددت الشكايات من فوضى المهنة وتأخر تسمية الأمناء (43) وانتشار الدخلاء عليها حيث يتذمر الفطايرية من فرض أمناء غير مختصين وغير معترف لهم بالخبرة والكفاءة من ذلك ما ورد في هذه الرّسالة الموجهة من الفطايرية إلى الوزير الأكبر يتلمسون فيها تعيين من اختاروه أمينا عليهم «ولا يخفى على جنابكم يا مولانا أن الصناعة المذكورة الآن وقع فيها ما وقع من الفساد وعدم العرف وما ذلك إلا من عدم الأمين العارف بهذا العرف والصناعة. . .» (44).

كما كانوا يتعرضون إلى مضايقات أعوان الإدارة الذين يفرضون عليهم أداءات مشطّة وخطايا باهظة ومنهم من تعرض حتى للإبعاد. وتذكر هذه الوثيقة «أما بعد فالمنهي إلى سامي المقام... أن جماعة الفطايرية بحاضرة تونس وأحوازها يتذمرون من الحالة التي أصبحوا عليها من بؤس وعناء ومن تعقبات أعوان الأمن... فمنهم من هو مبعد ومنهم من وظفت عليه الخطايا الباهظة» (45).

ويلعب الانتماء العشائري أحيانا دورا سلبيا لتأثيره على مسألة انتخاب الأمناء، وهو ما أدّى إلى نشوب صراعات ضيقة وضمنية بين العروش، كانت إحدى الحوافز لدى سلطة الحاضرة على الاعتراف بأمينين للفطايرية في نفس الفترة (46).

كما وردت شكايات ضد أمين الفطايرية الذي كان يأخذ الرّشاوي ويمارس الضغط على الفطايرية لدفع بعض الأداءات متوخيا أساليب متعددة، ومنها تعلّة حمايتهم من تنفيذ بعض الإجراءات كالتي تعلقت بالوقاية الصحية للحرفاء والتي تفرض على الفطايرية وضع مكبات على الطواجين ويبدو أن الفطايرية تملّصوا من هذا الإجراء لأنه غير ملائم لصنعتم ومضرّ بصحتهم. وفي نفس السياق أيضا تذكر وثيقة أخرى على لسان الفطايرية أن أمناء الفطايرية «اتفقوا علينا الاثنان وفي اجتماع 10 نوفمبر الماضي وقرّ الأمينان أن يستخلصا 300 فرنك شهريا عن كل حانوت من 140 حانوت بالحاضرة وهذه الأموال كلما سألنا عن باب صرفها يجاب بأنها أغلقت علينا بابا من أبواب العقوبات والانتقام» (47).

وعموما فإن هذه الصنعة رغم مشقّتها والصعوبات التي تعترض محترفيها وخضوعها لتقلبات السوق، فقد ذكرت بعض المصادر بأن عائداتها كانت هامّة، فقد أشار بروست Prost أنه سنة 1949 من جملة 1700 عائلة بغمراسن كان يتلقى نصفهم عائدات مالية بحوالي 350000 فرنك فرنسي كمعدّل لكل عائلة. وبغضّ النظر عن مدى دقة هذا الرقم فإن العائدات تبدو هامّة ولا سيّما في فترة الأربعينات التي تميزت بفترة ركود ألمّت بهذه الصنعة فما بالك بالفترات الأكثر ازدهارا. كما أن ما يتصف به نمط عيش الفطايري في موطنه الأم من مظاهر الترف في غذائه وملبسه وعاداته الاحتفالية يمثل أحسن دليل على أن موارد هذه الصنعة لم تكن بالقليلة بل كانت قادرة على تحصين الغمراسني الفطايري ضدّ كل مظاهر الفقر والحاجة.

الخاتمة:

ومجمل القول فإن صنعة الفطاير ليست مجرد صنعة ومورد رزق لأهل غمراسن بل هي ظاهرة اقتصادية واجتماعية وثقافية أيضا، فهي تمثل نمطا في العيش وطريقة في التفكير والسلوك، وهي رغم أفولها وتراجعها في وقتنا الحاضر وعزوف الشباب عنها لتوجه أهالي غمراسن إلى قطاعات أخرى وانتشار التعليم في صفوفهم فإن الغمراسني حافظ إلى حدّ كبير على ذهنية الفطايري وسلوكه في تحمله لمشاق الهجرة وصبره في العمل والسفر وتحلّيه بروح المغامرة وحفاظه على ارتباطه بوطنه وبلدته غمراسن وشدة تضامنه القرابي مع عائلته.

الهوامش والإحالات

1) الحشايشي (محمد بن عثمان)، العادات والتقاليد التونسية : الهدية والفوائد العلمية في العادات التونسية، في باب الحديث عن العوائد التجارية في أسباب المعاش والصنائع وأصنافها والمتاجر وأنواعها والحرف وأقسامها وما يخص كل قبيلة من ذلك وما امتازت به تونس من الأشياء النفيسة في القديم والحديث، دراسة وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، سراس للنشر، ص. 160

2) الطويلي (محمد)، صناعتنا التقليدية في تراثنا المكتوب ، مجلة الحياة الثقافية ،عدد 174، جوان 2006، ص ص 76- 83

3) التيمومي (الهادي) ،تاريخ تونس الاجتماعي : 1881 - 1956 ،باب العناصر الشعبية والهامشيون في المدن والقرى، دار محمدعلي الحامي، ص.145

4) تتكون عجينة الفطاير من طحين القمح (الفارينة) وشيء من الملح والخميرة ثم تعجن بالماء حتى تصبح متماسكة لكن يجب أن تبقى لينة. ورغم بساطة مكوناتها فإنها تكتسب خصوصيتها في تقنية تدويرها وسرعة وضعها في الطاجين حتى لا تفقد شكلها الدائري لذلك فان المحترف فقط أو ما يسمى «بالصنايعي» يكون قادرا على حذق هذه الصنعة.

5) يمكن تشبيهها بما يعبر عليه في وقتنا الحاضر بالـ «fast- food».

6) اعتمدت في هذا التصنيف على تقسيم الهادي التيمومي في كتابة «تاريخ تونس الاجتماعي : 1881- 1956»، محمد علي الحامي 1997.

7) الحشايشي (محمد بن عثمان)، المصدر والصفحة المذكوران سابقا

8) غمراسني نسبة الى بلدة غمراسن الراجعة إداريا إلى ولاية تطاوين حاليا.

9) لعبت مهنة الفطايري مهمة بطاقة تعريف لكل غمراسني إلى وقت قريب ولا زال بعض كبار السن يحافظون على هذا الاستعمال إلى اليوم.

10) بالنسبة لأسطورة التأسيس وحيثياتها فقد أطنبت الدراسات في الحديث عنها ويكفي العودة الى كل الدراسات التى تطرقت الى الجنوب الشرقي التونسي في علمي التاريخ أو الاجتماع لنجد تفاصيل هذه الأسطورة أنظر مثلا:

جراد (فاطمة)، تطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بجهة تطاوين 1881- 1956 ،شهادة الدراسات المعمقة ،ديسمبر 2003

11) التائب كرشيد (عائشة)، الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية للهجرة على الجنوب الشرقي: النموذج غمراسن ، شهادة التعمق في البحث ، 1992 ، ص. 9

12) بوطالب (محمد نجيب)، هجرة العمل من قبيلة ورغمة إلى مدينة تونس (1881- 1950) ، في: المغيبون في تاريخ الاجتماعي ، بيت الحكمة قرطاج ، 1999 ، ص. 427

13) المرجع السابق، ص ، 415

يصعب تحديد تشكل ظاهرة الهجرة تاريخيا لكن تذكر جل الدراسات أن هجرات الجبالية إلى شمال البلاد هي ظاهرة قديمة ،إذ تعود أولى الهجرات التي عرفها جبالية منطقة تطاوين إلى أواخر القرن الخامس عشر وهي الهجرات الجماعية لسكان بعض القرى (ماطوس مثلا)إلى مناطق شمال البلاد.

- أنظر : بوليفة (منصور)، بعض الظواهر من الحياة الجماعويّة في منطقة الجبل الأبيض (تطاوين) في القرن XVI إلى 1914، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، تونس 1993 .

14) اعتمدنا على ملفات أمناء الفطايرية بتونس وبالأحواز، المحفوظة بالأرشيف الوطني وعلى بعض الوثائق والمعلومات الخاصة باعتبار انتمائنا إلى المنطقة. سنورد هذه المصادر تباعا في متن هذه الدراسة .

15) Prost (G.), « l'émigration chez les Ouderna et les Matmata », in cahiers de Tunisie, n° 7 - 8 e et 2e 3e 4e tri ; 1954, p.316

16) وثيقة عائلية حول تسويغ حانوت ببلد باجة، مؤرخة في 14 ذي القعدة 1325 - 19 ديسمبر 1907

17) وثائق الأرشيف الوطني ،السلسلة B،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5

18) التائب كرشيد (عائشة)، المرجع المذكور سابقا، ص. 29

19) أنظر دراسة فورست حول قبائل جهة تطاوين وتحديدا الجزء المخصص لقبيلة غمراسن من الصفحة 66 الى70

Forest, Tataouine et sa région: les tribus, mémoire de C.H.E.A.M, 1942, pp.70- 66

20) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 184، ملف عدد 60 (1940- 1942)

21) وثيقة عائلية مؤرخة في 14 ذي القعدة 1325 - 19 ديسمبر 1907

22) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5،وثيقة عدد 15 مؤرخة في 4 جانفي 1945

23) Forest، op.cit ، p 67.

24) وثائق الأرشيف الوطني ،السلسلة B ،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5،وثيقة عدد 12، مؤرخة في 21 شوال 1313- 12 أفريل 1896

25) بلغ عدد الموقعين في رسالة موجهة إلى الوزير الأكبر وشيخ المدينة بـــ123 شخص، أنظر:
وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5،وثيقة عدد 40، رسالة مؤرخة في 13 رجب 1330- 4 جويلية 1944 .

26) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B،الصندوق عدد 172، ملف عدد 5،وثيقة عدد 3،حجة اتفاق مؤرخة في 5 شوال 1340- 1922

27) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B ،الصندوق عدد 172، ملف عدد 5،وثيقة عدد 19، حجة اتفاق مؤرخة 15 فيفري 1945

28) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5،وثيقة عدد 15، مطلب شخصي من أحد الفطايرية إلى الباي لتولي أمانة الفطايرية

29) لم يكن الفطايرية أبدا بمعزل عن الحياة السياسية بالبلاد بل كانوا من المنخرطين في الحزب الدستوري والمساهمين في الحركة الوطنية بصفة عامة. لكن ضيق مجال هذه الدراسة لا يسمح بالإطناب في هذا الموضوع.

أنظر في هذا السياق :

مكني (عبد الواحد)، أهالي الجنوب بالحاضرة خلال الفترة الاستعمارية (الخصائص والإسهامات)، أعمال الندوة الدولية حول الجنوب التونسي، تونس 2005،ص ص 21- 41

30) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5

31) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5، وثيقة عدد 33 ، مؤرخة في 31 ماي 1945

32) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5، وثيقة عدد 9، أمران عليّان في ولاية أمينين لصناعة الفطايرية مؤرخ في 29 رمضان1364 وفي 6 سبتمبر1945

33) وثائق الأرشيف الوطني ،السلسلة B ،الصندوق عدد 172، ملف عدد 5، وثيقة عدد 27، قرار وزيري مؤرخ في 22 محرم 1365 وفي 27 ديسمبر 1945

34) وثائق الأرشيف الوطني ،السلسلة B،صندوق عدد 173، ملف عدد 58، نسخة معروض سامي مؤرخ في 3 رجب وفي 24 مارس 1955

35) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، صندوق عدد 173، ملف58 ، ملف فرعي عدد 2 خاص بانتخاب أمين للفطايرية بطبربة.

36) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5،وثيقة عدد 3 ، بتاريخ 5 شوال 1340- 1922

37) وثائق الأرشيف الوطني ،السلسلة B ،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5،وثيقة عدد 12، مؤرخة في 21 شوال 1313- 12 أفريل 1896

38) نفس المصدر والوثيقة السابقين

39) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5،وثيقة عدد 19، حجة اتفاق مؤرخة 15 فيفري 1945

40) وثائق الأرشيف الوطني ،السلسلة B ،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5

41) أنظر الفقرة الخاصة بأمانة الفطايرية

42) وثائق الأرشيف الوطني،السلسلة B ،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5، ملف فرعي عدد 3،وثيقة عدد 2، مؤرخة في 17 محرم 1375- 5 سبتمبر 1955

43) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B ،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5،وثيقة عدد 19، حجة اتفاق مؤرخة 15 فيفري 1945

44) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5، ملف فرعي عدد 3 ،حجة اتفاق مؤرخة في 5 شوال 1340- 1922

45) وثائق الأرشيف الوطني، السلسلة B، الصندوق عدد 172، ملف عدد 5، وثيقة عدد19 ،شكوى مؤرخة في 15 فبفري 1945

46) أنظر الفقرة الخاصة بأمانة الفطايري

47) وثائق الأرشيف الوطني ،السلسلة B ،الصندوق عدد 172 ، ملف عدد 5، شكوى مؤرخة في 2 محرم 1365 - 7 ديسمبر 1945.

المأثورات الشّعبيّة في تونس
كما وردت في بعض كتب الرّحالة الأوروبّيين (*)

الناصر البقلوطي

منذ ما يقارب الأربعة قرون ظهر في أوروبا عند بعض الأدباء والمثقفين اهتمام كبير بالبلاد المشرقية وبالعالم الإسلامي عامّة، ممّا جعل القرّاء يكتشفون هذه الأصقاع البعيدة عن طريق ترجمة بعض الآثار كقصص ألف ليلة وليلة، وعن أدب الرحلات بالخصوص (1) ومن أروع ما كتب في هذا الميدان «الرسائل الفارسية» (2) التي حرّرها الأديب الفرنسي منتسكيو سنة 1721.

ولكن سرعان ما تطوّر الاهتمام الأدبي المبني على حب الاستطلاع والمعرفة ليصبح عن قصد أو عن غير قصد في خدمة نوايا أوروبا التوسعية ومطامحها. وتجلّى ذلك بوضوح في القرنين الثامن عشر عند بعض الرحالين الذين قدموا معلومات عميقة ودقيقة عن البلاد التي زاروها، فوصفوا أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والأمنية، وحلّلوها تحليلا شاملا، ومنهم من ذهب إلى حدّ تقديم مشاريع لاجتياح بعض البلدان (3).

ومن المعروف أنه ابتداء من القرن الخامس عشر شهدت أوروبا تقدّما حضاريا مطردا، تمثل في ازدهار فنونها ونهوض اقتصادها، ونموّ عدد سكانها، ممّا أحدث تحوّلات اجتماعية وسياسية أفضت إلى تقدّم صناعيّ لم يسبق أن عرفه العالم، وذلك إبان الثورة الصناعية التي جدّت منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وقد حتّم هذا التقدّم البحث عن أسواق جديدة لترويج المنتوج الصناعي المتزايد، وجلب مواد أولية قصد تصنيعها ثم ترويجها. ولهذا الغرض وجب مسبقا اكتشاف البلدان المعنية والتعرّف عليها تسهيلا لإقامة مصارف تجارية بها في مرحلة أولى، ثم اكتساحها في مرحلة لاحقة إن لزم الأمر، لضمان الأسواق والتزوّد بالمواد الأولية. فبالتقاء عدّة عوامل في البلدان الأوروبية، منها المعاملات الاقتصادية والتفوّق الصناعي والتقني، والخلفيات الدينية التبشيرية، صار هذا التوسّع ممكنا ومستحبّا.

ومن بين الرحالين الذين زاروا تونس وكتبوا عنها، البريطاني توماس شاو (T. Shaw) والبلجيكي لوي فرانك (L. Frank) الذي هو من أصل فرنسي(4). زار الأول تونس سنة 1727 انطلاقا من الجزائر حيث مكث عدّة سنين بوصفه كاهن المصرف البريطاني، فهو إذن في المقام الأول رجل دين وعلم. أما الثاني فقد شغل ابتداء من سنة 1806 خطة طبيب الباي حمودة باشا الخاص. وقد أتاح لهما وجودهما في تونس فرصة جمع الكثير من المعلومات والأخبار،

سجلاها في كتابيهما، فضلا عمّا استقياه من الكتب والمراجع القديمة.

دخلت تونس انطلاقا من القرن السادس عشر تحت الحكم العثماني الذي جعله المراديون في القرن السابع عشر وراثيا بينهم، ثم تلاهم الحسينيون (1705-1957) ابتداء من القرن الثامن عشر. إثر عدّة انتفاضات واضطرابات، استقرّت أحوال الدولة وتدرّجت نحو الرّخاء إلى أن بلغت أوجها على يدي حمودة باشا (1782-1814) وقد انشغل البايات الحسينيون بتركيز إدارة قادرة على احتواء كامل تراب الايالة متمّمين ما شرع في إرسائه المراديون. واتسمت هذه الفترة من تاريخ تونس بازدهار نسبي، إذ شهدت البلاد تكاثرا سكانيا ونموّا اقتصاديا ملحوظا رغم بقاء الهياكل التقليدية. فكانت التجارة الخارجية مربحة، وعرف الشعب شيئا من الرّخاء، لكن هذا العهد لم يطل إذ أخذت الأوضاع تتدهور تدريجيا، جرّاء استبداد بعض البايات بالسلطة وسوء تصرّفهم في شؤون الدولة، الشيء الذي جعل تونس محل مطامع الدول الأوروبية المتقدّمة. وفي خضّم هذه الأحداث والتطوّرات، قدّم الرحّالان الإفرنجيان خدمة جليلة للمستعمر تمثلت في مدّه وبتذرّع علمي وأدبي بمعلومات وأخبار سهّلت بصفة مباشرة أو غير مباشرة للجيوش الغازية اكتساح البلاد.

ذكر «شاو» في مقدّمة كتابه أنّ من أهدافه محاولة تدارك ما تسرّب من أخطاء في كتب الجغرافيا والتاريخ القديمة التي تحدّثت عن تونس وذلك بالاعتماد على استقراءاته وملاحظاته الشخصية فأراد بالتالي تقديم جرد تامّ وشامل للبلاد من حيث طبيعتها وحيواناتها ونباتاتها وسكانها، وفي السياق نفسه أراد «فرانك» إضفاء مسحة علمية جادّة على كتابه من خلال اهتمامه بتاريخ تونس وطبيعتها وآثارها وشؤونها السياسية والاقتصادية (5)، كما تطرق إلى دراسة عادات السكان ومعتقداتهم، همّه في ذلك - كما يدّعي هو بنفسه- قول الحقيقة والإفادة. فبالنسبة إليه تعدّ تونس السجل الذي يزخر بالمعلومات الخاصّة بالبشر أو الكتاب المفتوح الذي يروي تاريخ البلاد القديم والحديث. فهو يرى أن الوضع الجغرافي للبلاد وتشبث المشرقيين (يعني التونسيين) بمعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم جعلا منهم شعبا كالمعلم الأثري يحافظون على كل شيء ويتناقلونه جيلا بعد جيل، والقوانين، والعادات، واللباس، والقياسات، وكل هذه الأشياء كثيرة التغير في أوروبا في حين أنها ثابتة بالمشرق، وفي مأمن من كل تغيير أو نزوة عابرة (6).

وعلاوة على المشاهدات الشخصية اعتمد «فرانك» و«شاو» على مؤرخين قدامى إغريقيين ولاتينيين أمثال «هيرودوت» (Heredote) و«فرجيل» (Virgile) و«سالوست» (Salluste) وغيرهم من الذين كتبوا الكثير عن تأسيس مدينة قرطاج (7) وحضارتها، وعن الحروب التي دارت بينها وبين روما. ولكن من جهة أخرى، لم يقع الاستنجاد بالمؤرخين والكتاب العرب باستثناء أبي الفداء (الملك المؤيد) الذي تعرّض لأفريقية في كتابه «المختصر في أخبار البشر» (القرن الثامن الهجري)، والحسن بن محمد الوزّان المعروف بليون الأفريقي الذي عاش في القرن السادس عشر وألّف كتابا في «وصف إفريقية» باللغة الايطالية.

ومثّل كتاب «شاو» مرجعا هامّا بالنسبة إلى «فرانك» فنقل عنه ما طاب له من الأخبار والمعلومات، وأعاد نفس الأخطاء التي ارتكبها «شاو» في مؤلفه (8)، كما نظم وصفه لتونس بنفس الطريقة تقريبا، حيث إنهما اهتمّا في عرض أولي بجغرافيا البلاد وطبيعتها وخصائصها ثم انتقلا إلى الشؤون الاقتصادية والسياسية والإدارية، أي إلى الأحوال البشرية عامة.

وقبل التطرّق إلى المأثورات الشعبية التي وردت لدى الكاتبين -تجد ربع الملاحظات حول إسهاماتهما التأريخية- في الحقيقة لا نجد في مؤلفيهما مسحا تاريخيا منهجيا منظما، بل جاءت الأخبار الواردة في كتابيهما لتتمّ الوصف الجغرافي المتعلّق بالمدن والقرى، وخاصّة تلك التي لها طابع أثري. لكن رغم فقدانها للمنهجية العلمية والتحليل المعمّق، ورغم تضمّنها لبعض الحكايات والنوادر، فإن لهذه الإسهامات

أهمية بالغة، ذلك أن بعض الفصول تعدّ بمثابة أخبار وشهادات حيّة الشخصية، يسوقها المؤلفان عن حالة البلاد وعن أوضاعها الإدارية والسياسية والاقتصادية في فترة معيّنة قد تعين من يروم كتابة التاريـخ (9).

يتفق «شاو» و«فرانك» على أن للمجتمع التونسي من الناحية البشرية بنية عرقية واجتماعية ثلاثية فهو في نظرهما يتركب من أتراك وعرب وممّن يسمّيانهم «مور» (Maures) فالأتراك يمثلون الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، ويقصدون بالعرب الأعراب أي البدو الرحل الذين يعيشون تحت الخيام، ويتعاطون تربية الماشية المتنقلة، وأما «المور» فهم حسب ما يبدو سكان المدن والقرى من أمازيغ (10) وذرية عرب الفتح الأول لأفريقية، والنازحين من الأندلس (11)، ولكل هذه المجموعات البشرية عاداتها وتقاليدها، ثمّ يفترق الكاتبان في طريقة عرض مأثورات هذه الشرائح الاجتماعية، فوردت عند «شاو» مرتبة بصفة منسقة ومتماسكة حسب مواضيع وأغراض مبوّبة بدقة، بينما خلط «فرانك» بين المواضيع في سياق وصفه لبعض النماذج البشرية.

من بين ما تعرّض له «شاو» الأمراض والطب التقليدي والموسيقى واللباس والمعتقدات الدينية وغيرها من المأثورات الشعبية، فعدّد بعض الأمراض التي كانت تقضي على أعداد ضخمة من المتساكنين، مع ذكر سبل معالجتها من ممارسات سحرية، ووصفات تستعمل الحشائش وجذور النبات، فيقول مثلا إن علاج مرض المفاصل يستوجب كيّ المواضع المصابة بالحديد الساخن، كما أن غلي حشائش معينة تقضي على الحمّى، أما الجروح فيكفي تضميدها بكمادة من أوراق الحناء (12)، غير أنه كان يرى أن إيمان الناس بالقضاء والقدر جعلهم يستسلمون للأمراض ولا يقاومونها.

يذكر «شاو» أنه كانت بتونس أنماط موسيقية متعدّدة: موسيقى البدو وهي متكوّنة من جملة واحدة تعزف بواسطة «آلات بدائية»، وموسيقى الحضر التي تتسم بتناغم أكثر، وتعزف بتفنّن كبير، وأمّا موسيقى الأتراك فهي تأتي في مرتبة وسيطة بين النمطين السابقين، وفي نفس السياق يدرج الكاتب نماذج موسيقية مرقمة للأنماط الثلاثة، ومن الطريف أنه سجل معتقدا يسلم بقدرة الموسيقى الملحنة في طابع المزموم على إسقاط أوراق بعض الأشجار (13).

من ناحية أخرى اعترف هذا الرحالة بحذق التونسيين الكبير للهندسة المعمارية وإتقانهم لفنونها وإدراكهم لمتطلبات السكن الاجتماعية منها والطبيعية فقال: «ومن بين الفنون التي يفقهونها أكثر من غيرها فن العمارة»، وقد تجلت هذه المعرفة خاصة في تخطيط المنازل وفي تقنيات البناء وطرق إعداد المواد اللازمة لذلك كالملاط المركب من الرمل والجير والرماد الممزوجين بالماء (14).

لاحظ «شاو» وجود نوعين أساسيين من المساكن: مسكن البدو ومسكن أهل القرى والمدن. الأول بيت من نسيج شعر العنز والصوف يشبه لحدّ بعيد «المباليا» التي عرفها القدامى، ويرتبط هذا النوع من السكن شديد الارتباط بنمط حياة البدو المرتكز على الترحال والتنقل الدائم، وفي هذا الصدد قدم المؤلف وصفا دقيقا لمحتويات الخيمة البدوية وكيفية استعمال مختلف أجزائها.

أما السكن الحضري والقروي فله كذلك ارتباط بمحيطه ونمط عيش أهله. قال «شاو»: إن الغرفة الواحدة من المنزل بمثابة مسكن تام، قادر على إيواء عائلة كاملة، كما أن «العلي» - وهو الطابق العلوي- مخصّص لاستقبال الضيوف. هنا تتعيّن الإشارة إلى مميّزات المسكن التقليدي المعمارية والاجتماعية. في هذا الصّدد يمكن القول إن أهم عنصر معماري في هندسة المنازل القديمة هو بلا شك الحوش الذي يمثل فضاء مركزيا مشتركا، تصطف حوله كل الخلايا من غرف وغيرها، وهو مكان التقاء كافة أفراد العائلة وتوزيعهم على مختلف الأجنحة. على هذا النحو يعكس المسكن النظام الاجتماعي العربي التقليدي القائم على سلطة العائلة وقوّتها والتفاف أفرادها حول الأب الذي يمتلك طبقا للقوانين العرفية حق التصرّف فيه، فيمنح لكل متزوّج من أبنائه غرفة يستقل بها مع

أسرته المصغّرة (15). وقد تفطّن الرحالة البريطاني إلى هذه الخصوصيات، لكنه لم يعطها ما تستحقه من العناية والتحليل.

و«لشاو» أيضا ملاحظات صائبة في ميدان اللباس (16)، فقد ركّز وصفه على أنواع أغطية الرّأس وربطها بالفروق الاجتماعية والعرقية التي كانت تميز مختلف فئات المجتمع التونسي في ذلك الوقت، ولو أن هذا التبويب لم يخل من اقتضاب. على كل، قال الكاتب إن البدو لا يغطّون رؤوسهم، على أن البعض منهم يشدّون شعورهم بخيط كي لا تزعجهم في أعمالهم. أما الحضر من تونسيين وأتراك، فهم يضعون على رؤوسهم قلنسوّة حمراء اللون كانت صناعتها مزدهرة بالبلاد، ومعلوم أن هذه القلنسوة هي ما نسميها «الشاشية» التي تزردها النساء من الصوف ثم يتعهدها الرجال أولا في المشغل لصباغتها ثم في الدكاكين لتنظيفها وبيعها. وفي السياق نفسه يقول «شاو» إن لباس العمامة من شأنه أن يميّز بين الطبقات المهنية والاجتماعية، ونعرف من جهتنا أنه كان لرجال الدين بتونس كالأئمة والقضاة عمامات خاصّة بهم، تختلف باختلاف انتماءاتهم الوظيفية والمذهبية، فلمشايخ المالكية نمط خاص كما للمشايخ الحنفية عمامات تميّزهم عن غيرهم. أمّا المرأة الحضرية فهي تشدّ خصرها بإزار (فوطة) وتغطّي رأسها إذا رامت الخروج، وإذا تجمّلت تكحل عينيها، وهذه - كما يقول «شاو» - عادة وقع ذكرها في التوراة، وكانت سائدة عند الإغريق والرومان.

تبسّط «شاو» في وصف الحياة الدينية (17)، فتعرض إلى عدّة جوانب عقائدية كانت سائدة في ذلك الوقت، ممّا أدّى به إلى تبويب الحياة الدينية في تونس إلى بابين هامّين: يخصّ الباب الأول الدين الإسلامي السني المالكي بما يقتضيه من قواعد وفرائض وسنن مجردة واضحة أتت بها النصوص القرآنية والنبوية، ومركزه التعليمي بالمساجد والجوامع، اعتمادا على الأئمة والمشايخ وعلماء الفقه. أما الباب الثاني فهو حسب الكاتب أكثر تعقدا إذ يلتصق التصاقا تامّا بمعتقدات شعبية شاذة عن السنة الإسلامية لما التصقت بها من اعتقادات تتصل بكرامات الأولياء وتأثيرهم في الناس، الشيء الذي جرّ بعض المسلمين للإيمان بالسحر، وتصديق الشعوذة، وهذا ما استنكره «شاو» نفسه حيث قال: «إن بعض الأولياء كانوا محل إجلال وتقديس، جعل بعض فئات المجتمع تعتقد أن لهم آيات ومعجزات مبينة»، ويختم «شاو» كلامه بالجزم بأن الحياة الدينية لدى عامة الشعب مبنية على تلك الخرافات والأباطيل، وأنه لا يوجد في العالم أناس أكثر من التونسيين تعلقا وإيمانا بهؤلاء الأولياء.

من ناحية أخرى اعتمد الرحالة الطبيب «فرانك» طريقة مغايرة في عرضه لبعض المظاهر الاجتماعية والاقتصادية للبلاد. فعلاوة على طرق واف لعدد من المواضيع المميزة كالموازين والمقاييس التقليدية والتخطيط العمراني للمدينة العتيقة والأمراض والطب، ترك لنا في كتابه وصفا لبعض النماذج البشرية الجماعية كالمرأة الحضرية المسلمة واليهود وغيرهم.

استهل عرضه بوصف مدينة تونس العتيقة من حيث نسيجها العمراني ومميزاتها المعمارية، فتعرض إلى شوارعها وأسواقها ومنازلها وقال في هذا الموضوع: «إن تونس من أجمل بلاد البربر وأكبرها، لكن هذا الجمال نسبي، إذ لا يمكن مقارنتها بأية مدينة من مدن الدرجة الثالثة في أوروبا. فهي وإن أطلق عليها التونسيون اسم «تونس الشاطرة» أو «تونس الزاهرة» فمن باب أولى وأحرى أن تنعت بالفاسدة» (18). ذكر أيضا أن أنهج تونس ضيقة وتخطيطها غير محكم، وكذلك المنازل التي - رغم أناقتها- تذكّر الزائر الأوروبي بالسجون. وانتبه المؤلف إلى أن الصناعة والتجارة موزعتان على أنهج وأسواق مختصّة: فكل حرفة أو صناعة تحتل سوقا خاصّة بها، لكنه رغم ذلك لم يتفطّن إلى أن هذا التوزيع أتى مخالفا لتخطيط المدن الأوروبية المتعامد فهو وإن بدا من أول وهلة وكأنه لا يعتمد على أية قاعدة عمراني، فهو يندرج في الحقيقة ضمن تخطيط عمراني محكم ومنظم حول نقطة مركزية (المسجد الجامع)، تستقطب كل التحركات والاهتمامات الاقتصادية

والدينية، وتنطلق منها أهم الأنهج التي تؤوي جل النشاطات في تخطيط مشع (19).

ومن المظاهر التراثية التي تعرّض لها الكاتب الأوزان والمقاييس والمكاييل التقليدية (20) التي كانت رائجة في ذلك العصر، فجاء عرضه مبسطا شاملا إذ حدّد فيه قيمة الأوقية والمثقال والرطل بأنواعه وسائر الأوزان الأخرى، كما أثبت أطوال القياسات كالشبر والذراع والقامة والمكاييل مثل الصاع والقفيز. إن لهذا الموضوع أهمية قصوى لأن الأوزان والقياسات والمكاييل الأوروبية أخذت تكتسح المعاملات التجارية وغيرها في البلدان العربية وتعوّض تدريجيا إن لم نقل كليا ما لدينا في هذا الميدان، وتحكم عليه بالاندثار والزوال. فبالنسبة إلى تونس، لم يبق دارجا ومستعملا في أيامنا هذه إلا بعض المكاييل مثل الويبة والقفيز والصاع التي تكال بها الحبوب والزيتون.

بصفته طبيب الباي الخاص، عرج «فرانك» على موضوع المرض (21) والطب فعدّد الأمراض التي كانت سائدة بالبلاد التونسية في ذلك الوقت كالجدري وأنواع الإسهالات وأمراض العيون المختلفة، ذاكرا أسبابها كالتغيّرات المناخية والإكثار من أكل الغلال قبل نضجها، كما تعرّض إلى الطاعون الذي حلّ بتونس سنة 1785 إثر وصول باخرة من الجزائر إلى ميناء سوسة تحمل نفرا من المصابين بهذا الداء تسبّبوا في تفشي المرض بين السكان. بعد بسطه لما وصل إليه الطب في معالجة هذا الوباء اقتنع الكاتب بأن أفضل طريقة لمنع العدوى تتمثل في دلك الجسم بزيت الزيتون الدافيء. ثم تحدّث عن لدغة العقرب وعضة الثعابين وعن سبل علاجها التقليدية منها والعصرية إلى أن تخلّص للحديث عن الطب والأطباء التونسيين (22)، فرماهم بالجهل وعدم الاطلاع على العلوم الطبيعية الحديثة قائلا إن ممارساتهم مجرد تطبيب مبنيّ على التجربة وإن أكثر طرق العلاج التي يصفونها لمرضاهم هي الكي أو استعمال الطلاسم والتمائم، خاصة إذا اعتقدوا أن سبب المرض عين شريرة.

يتطرق «فرانك» في موضع آخر من كتابه إلى الحديث عن بعض الأصناف البشرية معتمدا التقسيم الذي أتى به في أول المؤلف والذي يوزع السكان إلى يهود وأتراك وبدو وتونسيين مسلمين حضريين. ممّا يقوله عن اليهود (23) إنهم يتصفون «بالدهاء والخبث والكره لكل من لا يدين بدينهم»، كما ذكر أن التجارة وخاصة الخارجية كانت بأيديهم فهم يراقبون كل الصفقات التي تمضى في هذا الشأن (24).

بعد التبسط في أصل كلمة «مور» (25) ومدلولها مبينا أنها ترجع حسب اعتقاده إلى الفترة الفينيقية والقرطاجية للإشارة إلى كافة سكان المغرب، أي شمال أفريقيا برمته من بربر وعرب الفتح الأول والنازحين من الأندلس، يتخلص «فرانك» إلى الحديث عن شكل هؤلاء الناس الخارجي وعن أخلاقهم وعاداتهم. فيقول إنه رغم معتقداتهم الواهية واستسلامهم للقضاء والقدر وكرههم للمسيحيين لهم استعداد للعمل الجاد وكفاءة ومقدرة عليه، كما يتمتع البعض منهم ممن له صلة بالأوروبيين بشيء من الذكاء والمرونة والاعتدال، لكنهم مثل اليهود بخلاء طماعون لا يسدّدون ديْنا إلا بعد أن يُضربوا بالعصا ضربا مبرحا... وللتونسيين، كما يقول المؤلف طريقة في العيش خالية من التعقيد والإسراف فتجد على موائدهم في الغالب طبق «الكسكسو» (26) وهو أكلة من حبيبات سميد القمح وبعض الخضر وشيء من لحم الخرفان أو البقر، كما يأكلون كثيرا من الغلال.

جاء أيضا: للنساء (27) طرق غريبة تساعدهن على البدانة (28) لأن المرأة الهزيلة عرضة للأمراض وربما تجعل زوجها ينفر منها ويتعلق بإحدى الضرات دونها. أما إذا كتب العقم على إحداهن فهي تطلق بصفة نهائية. إن وضع المرأة في صلب العائلة مرتبط بقدرتها على الإنجاب، ولكي تجلب زوجها إليها وترضيه فهي تولي عناية فائقة بجسمها، فتصبغ حاجبيها وتحكّ أسنانها بالسواك (29) وتخضب يديها ورجليها بالحناء، لكن صدرها يبقى دون عناية تذكر (30).

إن حياة النساء التونسيات كما يقول «فرانك»

كلها فراغ لا يملؤه إلا القيام من حين لآخر بنزهة في الحدائق الخاصّة المجاورة للمدينة أو استقدام فرق من المغنيات والراقصات لتقدم عروضا داخل البيوت. لكن الموسيقى التونسية مجرد مواء وصياح كثير وأصوات متنافرة. في الأخير يقارن «فرانك» تقاليد العائلات التونسية بالعائلات التركية المستقرة بتونس فيستخلص أن للأتراك عادات أفضل لأنه رغم جشعهم يتحلّون ببعض العواطف السامية ويقدرون على القيام بأعمال جديرة بالتقدير».

وخلاصة القول إن المجتمع التونسي في القرنين الماضيين قد كان، حسب ما كتبه «فرانك»، مبنيّا على رواسب عرقية ومقسّما إلى طبقات مهنية واجتماعية، لكل مجموعة عاداتها وتقاليدها غير أنها تتفق في كثير من الصفات كالجهل والتعصّب والتهاون في العمل: جهل بأبسط المبادىء العلمية وتعصّب في حياتهم الاجتماعية والدينية، وتهاون في نشاطهم الاقتصادي من صناعة وتجارة. ومن خلال ما كتب «شاو» و«فرانك» يكتشف القارىء مجتمعا منحطا وخليعا، تسوسه أفكار ومعتقدات باطلة، ويتراءى له بين السطور أن مثل هذا المجتمع الفاسد المنقسم يحمل في ذاته عوامل تقويضه، فهو مجرّد مجموعات بشرية متنافرة وفسيفساء عرقية لا تمثل وحدة متكاملة، ولهذا يتحتّم في نظر المؤلِفَيْن اقتحام البلاد وإحلال الحضارة الأوروبية بها مكان الممارسات اللاأخلاقية والمعتقدات الخرافية الواهية. وقد قدّم «فرانك» في هذا الصدد برنامجا ومخططا لحملة فرنسية محتملة، ذاكرا قدرات نظام البايات العسكرية ونقط ضعفه ومبيّنا أن السواحل البرية أنسب للفرنسيين من وادي النيل إذا ما أرادوا إنشاء مستوطنة لهم (31).

ولما اتضحت الخلفيات الاستعمارية يتحتّم علينا أن نتساءل: هل كانت الأوصاف والتحاليل التي جاء بها المؤلفان ترتكز على منهج علمي مجرّد ونزيه وعلى واقع تاريخي؟

أولا، علينا أن نعترف أن بعض المعطيات التي قدماها كانت مفيدة كالتي تخصّ الأوزان والقياسات والعمارة التقليدية رغم تثقيلها في بعض الأحيان بالرجوع إلى مصادر أسطورية ومراجع دينية قديمة جعلتها ترزح تحت ركام من حشو الكلام.

ثانيا، لا بد أن نقرّ أنّ لـ: «شاو» في بعض المواضع آراء نزيهة كالتي تخصّ موضوع انحطاط العلوم عند المسلمين إذ يقول: «منذ عدّة قرون أهمل المسلمون الفنون والعلوم في حين أنهم كانوا قديما الوحيدين الذين اهتمّوا بدراسة الفلسفة والرياضيات والطب (32)».

إن ما عرضه «شاو» و«فرانك» من وصف لتونس وللتونسيين قد أتى خاضعا لسلم قيم حضارية متجذرة فيهما، كانت تميز المجتمعات الغربية النصرانية، لذا لم يتمكنا من فهم حضارة مغايرة للحضارة الأوروبية، ومن إدراك حقيقة مجتمع يختلف عن المجتمعات الإفرنجية، فتراهما لذلك يعطيان للسلوك البشري مبرّرات سطحية ومنقوصة ومغلوطة من أساسها، فيردان سلوك التونسيين إلى عنصر ضبابي هو غريزتهم المبنية بصفة فطرية حسب ما يدعيان على الفساد والانحلال إذ يقول «شاو» مثلا إن «البدو نشأوا فطريا على الغدر (33)». والحال أن تحليل الموروث الشعبي رغم غرابة بعض مظاهره بالنسبة إلى الغير لا بد أن يرجع تلك المأثورات المادية منها والروحية إلى مبدأ موحّد وهو تماسك المجموعة البشرية المخصّصة بالدرس ولحمة أفرادها في نطاق نظام حضاري ونمط حياة واضح المعالم، عناصره مترابطة ومتكاملة.

فتحت غطاء من العقلنة يشجب «شاو»، ذلك العالم باللاهوت المسيحي، و«فرانك» الطبيب الفرنسي المتشبع بروح عصره، تقاليد ومعتقدات وسلوكيات بشرية، أساءا فهمها، فجاءت كتاباتهما مشحونة ادعاءات مغرضة، مبنية على تصوّرات شخصية غير نزيهة وعلى أحكام مسبقة، قوامها عنصرية عرقية وعصبية دينية، فالمأثور الشعبي كما عرضه وحلّله «شاو» و«فرانك» محدود بعوائق باطنية تمثلت في موانع ذاتية كابحة ميزت أعمالهما بقصر النظر والتجنّي (34).

الهوامش والإحالات

*) نشر هذا المقال بمجلة المأثورات الشعبية الصادرة عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، سنة 1990.

1) نذكر في هذا الباب وعلى سبيل المثال رحلة تافرنياي إلى تركيا وفارس والهند (1677-1679) ورحلة شردان إلى فارس وبلاد الهند الغربية (1711).

2) Montesquieu : Les lettres persanes, 1721.

3) فنتور دي بارادي (Venture de paradis) الذي اقترح مشروعا لغزو مصر من طرف الجيوش الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر. انظر مقال عز الدين قلوز «بالمجلات الفرنسية» (Les Cahiers de Tunisie (عدد 81-82 لسنة 1973، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس.

4) T. Shaw : Voyages ou Observations relatives à plusieurs parties de la Barbarie et du Levant, Oxford, 1738.

(رحلات أو ملاحظات حول العديد من أجزاء بلاد البربر والمشرق) اعتمدنا في هذا المقال ترجمة فرنسية، طبعة لاهاي 1743. (تونس، وصف هذه الإيالة) «L. Frank» : Tunis, Description de cette Régence اعتمدناطبعة بوسلامة، تونس، 1979، وقد نشر هذا الوصف سنة 1846 ضمن تاريخ تونس لجان جاك مرسال (Histoire de Tunis par J. J. Marcel).

5) فرانك: مقدّمة الكتاب.

6) فرانك، ص: 87.

7) نحتفل هذه السنة 1987 بمرور 28 قرنا على تأسيس قرطاج.

8) من ذلك خلط في أسماء بعض القرى والمناطق.

9) فرانك، ص: 4 وما بعدها. شاو ص: 281 وما بعدها.

10) هذا هو الإسم الحقيقي لسكان أفريقيا الشمالية الأول ويعني بلغتهم القديمة النبلاء والأحرار وقد أطلق عليهم اللاتينوين إسم البربر لأنهم لا ينتمون إلى الأمبراطورية الرومانية (Barbarus) ومعروف أن لكلمة بربر مدلولا محقرا هم بعيدون كل البعد عنه.

11) أطلق الأفرنجيون اسم (Maures) على كل سكان المغرب العربي المسلمين الحضريين.

12) شاو، ص. 341-343.

13) شاو، ص. 346-349.

14) شاو، ص. 351- 370.

15) ر. بيراردي: مدلول التخطيط القديم للمدينة العربية، من مداخلات ملتقى المدينة العربية في الإسلام 1979، نشر مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس والمركز القومي للبحث العلمي بباريس، 1972، مرجع باللغة الفرنسية.

16) شاو، ص. 375-382.

17) شاو، ص. 396-400.

18) فرانك، ص. 9- 12.

19) ع. الدولاتلي: مدينة تونس في العهد الحفصي، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1976.

20) فرانك، ص. 85-89.

21) فرانك، ص. 130-136.

22) فرانك، ص. 136.

23) فرانك، ص. 95.

24) يروي فرانك في هذا السياق نادرة نستشف من خلالها أباطيلهم وتجنيهم على فئة من النساء. قال إن جفافا رهيبا حلّ مرّة بالايالة، ينذر بحصول كارثة بالبلاد فأمر الأحبار بصيام يومين من كل أسبوع وبالقيام بصلوات مكثفة طلبا للغيث، ولكن المطر لم ينزل فاقتنع الأحبار بأن سبب الغضب الرباني لا بدّ أن يكون فجور المطلقات والأرامل من النساء فأمروا بالبحث عليهن في كل العائلات والديار فوجدوا أن عددا كبيرا من النساء المتزوجات والعوانس لهن علاقات وممارسات غير شريفة فسلطوا عليهن أشدّ العقاب لكنه لم يكن كافيا لردعهن.

25) فرانك، ص. 99.

26) هذه الأكلة معروفة في كامل أقطار المغرب العربي الكبير.

27) فرانك، ص. 106.

28) صحيح أن البدانة مستحبة عند المرأة لكن يجب أن يكون بمقدار فقد قال المثل الشعبي: «الزين يبقى جوده والشحم تبقى جلوده».

29) قشرة شجرة الجوز.

30) مرة ثانية نستنجد بالأمثال الشعبية لتصحيح بعض الآراء: «الفارة للحارة والترمة للفساء ومولاة البزولة فائزة ع النساء» والفارة هي ربلة الساق، والحارة هي الحي، والمراد بها خارج المنزل أما البزولة فهي ثدي المرأة.

31) فرانك، ص. 89.

32) شاو، ص. 338.

33) شاو، ص. 392.

34) د. براهيمي: Brahimi D., « Les voyageurs naturalistes du XVIIIe siècle aux origines de L'ethnographie maghrébine », Les Cahiers de Tunisie, n° 73-74

المعمّـرة: من تقاليد السّكن في حامة قابس

رجاء العودي

في معرض حديثه عن صناعة البناء، يرى العلامة عبد الرحمان بن خلدون أن هذه الصناعة هي «أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن (1) والمأوى في المدن. وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله، لا بد له أن يفكر في موانع إذاية الحر والبرد عنه باتخاذ البيوت ذات الحيطان والسقف الحائلة دون ذلك من جهاته. والبشر مختلفون في هذه الجبلّة الفكرية التي هي معنى الإنسانية، فالمعتدلون فيها، ولو على التفاوت، يتخذون ذلك باعتدال... وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك، لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع السياسية للغيران والكهوف (2).

ولكن لم ير ابن خلدون أن للبدو تأقلما كبيرا، في حلهم وترحالهم، مع ظروف المناخ وخصائص الأرض، حتى أننا نرى تنوعا كبيرا في التقاليد السكنية لأهل البدو منذ قديم الزمان في بلادنا. ومن هذه التقاليد التي ما زالت قائمة حتى أيامنا هذه بناء المعمرة في بعض مناطق الجنوب التونسي ومنها مدينة الحامة وأحوازها بولاية قابس.

ما هي «المعمّـرة ؟

هو تعبير بالدارجة عن نوع من السكن، ثلاثة أرباعه، تقريبا، حفر في الأرض وربعه الآخر بناء فوقها. ولكن توجد «معامير» نصفها حفر ونصفها بناء (3). والقاعدة العامة أن الطول لا يفوت الثلاثة أمتار والعرض لا يتعدى المترين، وهذا على الأرجح حل وسط بين متطلبات سعة الحجرة وضمان التكييف الطبيعي الذي يوفر الضمانات الدفاعية ضد الهجمات المعادية كالإرتفاع، وصعوبة المسلك ومراقبة الممرات الإجبارية والقرب من الماء إلخ ...) فإن المعمرة المتواجدة بمنطقة الحامة يبدو أنها لم تكن تمثل سوى سكن يلبي حاجة الاحتماء من قيض الحر وضرورة حفظ المخزون ووقاية الدواب لمن لا تتوفر له بيت الشعر وهو السكن الأرقى في هذا الوسط البدوي.

تتواجد المعمرات في الحامة في مناطق: سقي وعوسج أو منزل الحبيب حاليا وسكرة والبحاير والفجيج، وأولاد عمر والظاهر والمقسم والمعيقل وغيرها. وتوجد دائما خارج الواحة في الأرياف الممتدة الأطراف القليلة السكن، ذات المناخ الجاف والمنتجة لبعض الحبوب كالقمح والشعير. وتسجّل بداية اندثارالمعمرات منذ السبعينات مع تطور الإتصال والطرقات، وأصبح سكان المنطقة يتركون مخزونهم في المعمرات بعد أن انقرض استعمالها للسكن وباتت لا تأوي إلا المؤن والمحاصيل العائلية من الحبوب. ولكل عائلة معاميرها الخاصة إذ كانت المعمرات سابقا مقر سكنى العائلات التي لا تستطيع أن توفر

لنفسها بيوت الشعر، أو لإنعدام قطيع الماعز سنوات الجفاف أو لعدم حذق ربة البيت صنعة بيت الشعر من شعر الماعز.

وتتشكل المعمرات في عدة أنماط فمنها ذات السقف البيضوي الذي يظهر للعيان في شكل كدية ومنها ما يتخذ شكل الهرم، والبعض الآخر شكل سقفها مسطح بسيط، كما تشترك معظم المعامير في احتواء فتحتين على الأقل للتهوئة والتنوير.

ما هي مكونات المعمرة ؟

مادة البناء الفوقي هي الحجر الصلب، وتفسير استعماله أن مدينة الحامة توجد عند منتهى سلسلة جبال مطماطة الممتدة في الصحراء وجبل طباقة الذي يحاذي شط الجريد، كما أن المدينة لا تبعد كثيرا عن جبال قفصة المتناثرة شمالا. وجلب الحجر يقع إما على ظهور الدواب بواسطة أوعية «القديمة» أو على العربات المجرورة بالخيل أو البغال أو الحمير. ونظرا لأن المعمرة لا تتعدى الناحية النفعية السكنية فإن كل التزويق غائب عنها عادة، وحتى مزاوجة الأحجار في بنائها هي رديئة (4). وتستعمل أهم المنطقة طلاء أو ملاطا من الطين أو خليطا من التربة ولشد وتغطية الأحجار في مستوى أضلع المعمرة (5) وكذلك لتلبيس السطح حماية ضد تسرب الماء عبره (6). أما الباب ذاته فيقع غلقه بالأحجار وتلبيسه بالطين أو بالتربة عند ترك المعمرة في مواسم الرعي مثلا، ملآنة بالمؤونة، لحفظ المخزون من الحشرات ومن الإنسان.

كما يلاحظ أيضا لبعض المعامير سياج محيط بها (7)، يحدد ملكيتها للعائلة القاطنة بها ويحمي سقفها الهش المصنوع عادة من جذوع النخلة (8)، هذه الشجرة الموجودة بكثرة في واحات قابس. أما هندسة السقوف فإنها دقيقة حيث يتم قلع النخلة من الواحة، فيقطع منها الجذع والرأس في مستوى العنق المحاذي لمنابت الجريد. ثم يقسم الشكل الأسطواني للنخلة طولا، إما على نصفين لتوفير أعمدة قادرة على قوة تحمل عالية، وإما على أربع قطع لتوفير أعمدة أقل تحملا للثقل. وتكون الأعمدة الأولى المذكورة الركائز الأساسية لسقف المعمرة، فتوضع فوقها الأعمدة الثانية بشكل تقاطعي، الواحدة حذو الأخرى، ثم توضع طبقة من الحجر الصغير الحجم، وثانية من القش وتليها ثالثة من الطين فتتم عملية إنجاز سقف المعمرة (9). ولا تقتصر تقنية التسقيف على جذوع النخل، فتستعمل، ولكن بقلة، أعواد الزيتون والتين وغيرها من الأشجار التي تغرس في ضواحي الحامة.

ما هي استعمالات «المعمرة»؟:

إذا كان الاستعمال الحالي للمعمرة يقتصر على الخزن، فإن هذا النمط العمراني كان في الماضي كما قلنا يصلح للكنّ أيضا. وتبعا لذلك إلى جانب أدوات الفلاحة (10) عادة ما تحتوي المعمرة على الضروريات التي تتطلبها حياة البداوة، كلوازم جلب الماء (11) ومعدات الطبخ (12).

وعند الاستعمال القديم الذي يشمل السكن تقسم المعمرة إلى نصفين، نصف صالح للنوم وآخر للتخزين. وعادة ما يكون الوتد العمود الذي يصلح كعماد للسقف، قاسما طبيعيا بين النصفين. لكننا لاحظنا في معامير منطقة «الزوانخة» مثلا، استعمال ما يسمى بـ«الرواق» للطبخ (13).

و«الرواق» هو تشكيل مربع فوق السطح بأعواد من جذوع النخل وجريده، لا حفر فيه ولا بناء عادة. وكأنه ملاصق للمعمّرة التي تبقى السكن الأساسي. كما أن المعامير المهجورة أو التي باتت أسقفها بالية بسبب تآكل جذوع النخل بفعل المناخ، تستعمل -بتعديلات خفيفة (كالردم وإعادة السقف)- لحماية الخيل والدواب والشياه والماعز من قيض الحر (14). وقد يستغل أهل البادية كدية طبيعية فيحفرون فيها حفرا بسيطا لتأخذ شكل الكهف الصغير لإيواء الماشية مثلا (15).

ولقد شد انتباهنا شكل نادر للمعمرة يوجد في منطقة «شانشو» الواقعة بين مدينتي قابس والحامة، حيث يوجد بها طابقان يربط بينهما مدرج وبوابة ضيقة. إلا أن الشكل البسيط ذا الطابق الوحيد يبقى النمط السائد في هذه المنطقة، ومازالت التقاليد المرتبطة به حية حتى الآن، فلم تهجر تماما عادات الخزن في سنوات الخير ولم تندثر الأدوات والأوعية القديمة نهائيا.

الهوامش والإحالات

1) الكن : وقاء كل شيء وستره
2) إبن خلدون (ع. الرحمان)، المقدمة. الدار التونسية للنشر، فيفري 1984 ج 2 ص 489.
3) أنظر الصورتين عدد 1 و2 و3-4.
4) هذه الرداءة واضحة في الصورة عدد 3 لباب المعمرة وعدد 4 لواجهتها
5) كما تبين ذلك الصورة رقم 5
6) أنظر تلبيس السطح في الصور رقم 6
7) كما في الصورة رقم 7.
8) واضح ذلك في الصورة رقم 8 لمعمرة مهجورة.
9) أنظر الصورة عدد 9 و 14
10) كما تبين ذكل الصورة رقم 10 و 11.
11) الصورة رقم 13
12) الصورة عدد 12
13) الصورة رقم 18
14) الصورة رقم 17
15) الصورتين 15 و 16

الحمّامات من حواضر الوطن القبلي

منير فنطر

من أبرز حواضر الوطن القبلي الحمّامات وكانت تعرف في القديم ببوبوت Puput، وتوجد على الطريق الساحلية القديمة التي تنطلق من هدرومتوم Hadrumetum وتمتد على طول الساحل الشرقي للوطن القبلي.

يمتاز الوطن القبلي بسخاء الزراعة وجمال المدن والقرى، فالبحر يستقبلك باسما حيثما حللت مضيفا عطاءه لعطاء الأرض. وجاء ذكر الإقليم في المصادر الأدبية اليونانية واللاتينية حيث أشير إليه تحت اسم Kalon Akroterion ويعني الشناخ الجميل في أول معاهدة أبرمت بين قرطاج وروما سنة 509 ق.م والتي تعد أقدم وثيقة في تاريخ الدبلوماسية التونسية.

كما أطلق القدامى على هذه الربوع إسم HERMAIA AKRA (شناخ HERMES) واكتفى الرومان بترجمة هذا العلم الجغرافي من اليونانية إلي اللاتينية فأطلقوا على الوطن القبلي إسم MERCURII PROMUNTURIUM أي شناخ مرقوريوس ذلك الإله اللاتيني الذي يشرف على التجارة والمواصلات. وقد أورد هذا الاسم إبلينوس الأكبر في السفر الخامس من كتابة تحقيق حول الطبيعة.

وأشار المؤرخ اللاتيني تيتوس ليفوس إلى الوطن القبلي تحت إسم PROMUNTURIUM PULCHERI، علما أن اللفظة اللاتينية PULCHER تعني الجميل واستخدمت هنا اسما علما في محل مضاف إليه. والمراد بالجميل هنا قد يكون إلاها محليا أو بونيا يشبه الإله أبلو.

أما اليوم فتعرف هذه الربوع باسم «راس أدار» الذي يبدو أنه تسوية صوتية لعلم جغرافي بوني رش أدير أي الشناخ العظيم.

تكاد تكون معلوماتنا حول مدينة الحمامات قبل الحضور الروماني نادرة فالنصوص الأدبية تخلو من ذكر المدينة، إلا أن حضور الإنسان بهذه الربوع يعود إلى فترة ما قبل التاريخ، تشهد على ذلك مقبرة سيدي محمد لطرش المتكونة من مجموعة حوانت ومفردها حانوت وهي التسمية المتداولة في عدة مناطق بالبلاد التونسية للإشارة إلى تلك الغرف الجنائزية الصغيرة والمكعبة الشكل والمنقورة نقرا داخل أضلع الجبال أو الهضاب. وكلمة حانوت أدرجت كمصطلح في معجم المفردات الأثرية. وتعد حوانت لطرش التي تحلت جدران غرفها برسوم بالقرمز وبنحوت تحكي مشاهد بحرية ومشاهد قنص، من دعائم المشهد الجنائزي قبل حلول الفنيقيين بشمال إفريقيا مع نهاية الألفية الثانية ق.م، هذا النوع من القبور منتشر في أقطار وجزر المتوسط ومن المرجح أن هذا الشكل المعماري المتوسطي دخل البلاد التونسية مرورا بجزيرة صقلية.

فمن خلال حوانت لطرش نتبين أن ربوع الحمامات لم تكن في معزل عما كان في البحر المتوسط منذ العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ بل ساهمت في مد جسور الحوار بين مختلف الأقطار المتوسطية.

بالنسبة للفترة البونية، فمعلوماتنا قليلة لكن يمكن الإشارة إلى ذلك الفضاء المقدس وهو معبد بعل حمون - ساترنوس وتانيت - كايلستيس بـ Thinissut: بئر بورقبة اليوم. هذا المعبد البوني الروماني، الذي كشف عنه الغطاء سنة 1908، يعود إلى بداية القرن الأول بعد الميلاد.

من بداية العهد الإمبراطوري إلى نهاية القرن الثاني الميلادي ظلت مدينة بوبوت الرومانية تجمعا سكنيا متواضعا تابعا لقرطاج، إلا أن المدينة ارتقت إلى مرتبة Colonia أي مستوطنة خلال حكم الإمبراطور كومودوس، تشهد على ذلك نقيشة لاتينية مؤرخة من القرن الرابع، حوالي سنة 314 و324 سطر عليها Colonia Aurelia Commoda Pia Felix Augusta Pupput ويرجع الفضل إلى هذا ارتقاء بوبوت لمرتبة كولونيا إلى أحد رجال القانون يدعى Salvius Iulianus وهو أصيل مدينة هدروميتوم (سوسة اليوم) وقد ذاع صيت هذا الرجل لما له من دراية في علوم السياسية وفقه القانون، مما منحه شرعية وسلطة في عهد الإمبراطور هدريانوس. هذا وتشير نقشية لاتينية أخرى، عثر عليها بموقع بوبوت، إلى Salvius Iulianus حامي المدينة أي Patron de la ville في ما بين 168 و169م ويفيد نص النقيشة أن Salvius Iulianus حامي بوبوت هو القاضي الوحيد الموكول له شؤون المالية الذي ضاعف الإمبراطور هدريانوس راتبه. وكان قد كلفه الإمبراطور بجمع النصوص الخاصة بالأوامر التي أصدرها القضاة الرومان منذ نشأة الجمهورية. كما تقلد Salvius Iulianus منصب بروقنصل ولاية إفريقيا. لذا فليس من الغريب أن يكون هذا الرجل وراء خلق الظروف الملائمة لارتقاء بوبوت إلى أعلى مرتبة: الكلونيا.

كان موقع بوبوت، قبل التوسع العمراني الذي شهدته الحمامات الكبرى عند إقامة المشاريع السياحية والبناءات الحديثة خلال فترة الستينات من القرن الماضي، يمتد على مساحة كبيرة تتوزع فيها المعالم المدنية والخاصة. فحسب شهادة الأثري Louis poinssot الذي قدم وصفا للحمامات سنة 1936 عند إنجاز الأطلس التاريخي والجغرافي للبلاد التونسية كانت هناك: «معالم لها امتداد كبير ومعبد الكبتول ومسرح ومدرج وحمامات وصهاريج ماء خاصة وقنوات لجلب الماء محمولة على حنايا قادمة من وادي الفوارة وقلعة بيزنطية...». هذا ولا بد من الإشارة إلى أن الاهتمام بآثار الحمامات يعود إلى سنة 1897 عندما وضع الرائد Bordier رسما بيانيا لكل معالم المدينة تم نشره من طرف الأثري Paul Gauckler في دراسة حول المنشآت المائية الرومانية بالبلاد التونسية. وفي بداية القرن العشرين أجريت عدة حفريات بالموقع بإشراف ضباط الكتيبة الثالثة والرابعة الإفريقية.

هذه المعالم اندثرت اليوم ولم يبق من الموقع إلا رقعة صغيرة أقيمت بها عدة أعمال أثرية وحفريات إنقاذ خلال الستينات عند أشغال بناء أولى المنشآت السياحية. وتواصلت الحفريات تحت إشراف فريق تونسي مكنت من كشف الغطاء على عدة معالم تمت صيانتها وحظيت ببرامج إحياء.

أما عن عالم الأموات ببوبوت، فقد تمت تجلية مدافن المقبرة الرومانية من طرف فريق تونسي فرنسي في إطار الشراكة العلمية وبإدارة الأستاذة عائشة بن عابد. يمسح هذا الفضاء الجنائزي هكتارين ويتميز بكثافة مذهلة للمدافن: قبور في شكل أحواض وأضرحة يناهز عددها 1300.

أقيمت المقبرة على بعد 600 م من شاطئ البحر ويمثل الوادي الذي يحدها شرقا حدا طوبغرافيا للمشهد الجنائزي ببوبوت.

تتوزع المدافن داخل المقبرة إلى فضاءات مفتوحة وأخرى مسورة معزولة بسياج مرتفع. وتعود أقدم الشواهد الجنائزية إلى القرن الأول الميلادي أو بداية

القرن الثاني على أن أهم فترة عرفت خلالها الفضاءات الجنائزية استعمالا مكثفا تغطي بالخصوص القرن الثاني وجزءًا من القرن الثالث لتنخفض نسبة التردد على هذه المقبرة بصفة جلية في حقبة لاحقة على أنه تواصل استعمال بعض الأضرحة خلال القرن الخامس. وتمكن الآثاريون من التعرف على طريقتين للإقبار: الدفن والترميد.

أما عن الظهرة الجنائزية فهي متنوعة وتعكس معتقدات الميت وثروته ومنزلته: قطع نقدية خزفيات (وقع التقاط 9000 كسرة فخار وجرار منها 170 كاملة) و500 سراج ومبخرات وعدة أدوات زجاجية.

هذا وتم التعرف بهذه المقبرة على موائد جنائزية خصصت لوضع العطية.

تمكن مدافن وأضرحة مقبرة بوبوت الرومانية من التعرف بصفة دقيقة على العلاقة التي ربطت عالم الأحياء بعالم الأموات في تلك الحقبة. فتنوع وتعدد الظهرة الجنائزية التي كشف عنها الغطاء بعد تجلية القبور، والمتمثلة أساسا في الفخار والجرار، تعكس أهمية المنتوج الجهوي وأهمية المبادلات التجارية بين مختلف مدن المتوسط. والبحوث الأنثربولوجية التي أجريت بمقبرة بوبوت أفرزت نتائج تعد معطيات مرجعية لدراسة فضاءات جنائزية أخرى بإفريقيا الرومانية.

إن ما عثر عليه من لُقى أثرية هو دليل على الازدهار الإقتصادي الكبير الذي عرفته إفريقيا خلال القرن الثاني والقرن الثالث ميلادي والذي ساهمت الحمامات في إشعاعه. فمقبرة بوبوت هي صفحة تروي التاريخ الإقتصادي والإجتماعي لمدينة عرفت فعالية أو ديناميكية نستشفها من خلال العدد الكبير من القبور وهو تأكيد على أن مدينة الحمامات خلال القرنين الثاني والثالث عرفت نموا ديمغرافيا.

رغم أن الأشغال المنجزة بموقع بوبوت لم تكتمل بعد فإنها تسمح للزائر أن يتعرف على النمو العمراني الهام الذي شهدته المدينة منذ النصف الثاني من القرن الثاني وتواصل هذا حتّى القرن السادس على الأقل حسب ما تبينه اللُقى الأثرية والمؤرخة من فترة إخلاء المدينة واندثارها في أواسط القرن السادس.

لعبت الحمامات خلال العصر الوسيط دورا هاما على مستوى الإستراتيجية الحربية حيث كانت مركز مراقبة لمسالك الاتصال البحري التي تربط شمال البلاد التونسية بالساحل: مدينة الحمامات أو قصر الحمامات كان في بدايته تجمعا سكنيا لعب دور الرباط في القرن التاسع مع الأغالبة.

وتعد الحمامات - والتسمية تعود إلى القرن IXم نسبة لما اشتهرت به هذه المدينة من كثرة الحمامات الرومانية الخاصة والعامة - من خلال تخطيطها العمراني وضيق مساحة البيوت داخل الأسوار كنموذج للقرى المحصنة الموكول لها مراقبة السواحل. فمن ميزات تخطيطها العمراني، غياب المحاور الكبرى التي تربط أبواب المدينة بالجامع: أزقة ضيقة هيئت حسب ما فرضته العوامل المناخية حيث كان تخطيطها معاكسا لاتجاه الريح أما من الناحية الإستراتيجية في حالة حصول اعتداء خارجي يضيق ضيق الأزقة حركة الغزاة كما ييسر اتصال هذه الأزقة ببعضها البعض وإجلاء السكان بسرعة.

تتمحور مكونات المدينة العتيقة حول الرباط والجامع الكبير. ورباط الحمامات هو واحد من سلسلة من الرباطات البحرية بجزيرة شريك، نذكر منها قصر السعد وقصر لبنى وقصر رباط قليبية وقصر رباط رأس أدار بالهوارية وقصر النوبة بسيدي داود أين كانت توجد دار الصناعة وقصر جهم بسليمان حيث تم العثور على بقايا برج نصف دائري من الطراز الأغلبي وقصر النخلة شمال قربص. . .

أما عن قلة الأبواب بمدينة الحمامات - وهي ثلاثة: باب البحر وباب السوق والباب القبلي - فيرجع ذلك للصبغة العسكرية لهذه المدينة الرباط التي أنشئت بأمر من الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني سنة 893 لحماية السكان

من الخطر البيزنطي واتخذها المرابطون الموكول لهم حراسة المنشآت الساحلية والطرق البحرية مقرا لهم. وعلاوة على خطورة موقعها تكمن أهمية الحمامات في وجود غابات كثيفة حولها توفر الخشب لبناء السفن بكل من دور الصناعة بالنوبة وقليبية وسوسة في العصر الوسيط ثم تونس وغار الملح خلال الفترة العثمانية.

يعود تاريخ تأسيس أسوار المدينة - وهي معلم مرتب بأمر مؤرخ في 1 مارس 1905 - إلى عهد الأغالبة خلال القرن التاسع والعهد الزيري خلال القرن الحادي عشر. تأخذ هذه الأسوار شكلا متوازي الأضلاع وتتكون من مترسات يبلغ سمكها المترين شيدت من دبش يحدها من الجانبين أبراج مربعة الشكل تتعدى أضلاعها 6 م.

لقد أحدثت على الأسوار تحويرات تمثلت في إعادة تهيئة واسعة خلال سنة 1238 وخاصة في سنة 1436 أما أشغال الترميم التي قام بها العثمانيون خلال القرن السادس عشر والقرن السابع عشر فهي تؤرخ المكونات العلوية للمعلم وكذلك الحصن الجنوبي الشرقي المثمن الأضلاع.

من أبرز المعالم التي توجد داخل الأسوار الجامع الكبير والقصبة.

- يبدو أن أشغال بناء الجامع الكبير انطلقت في أواخر القرن السادس للهجرة (12 ميلادي). وتفيدنا المصادر التاريخية أن أبا زكريا الحفصي أذن بإتمام بناء الجامع سنة 633 هـ الموافق لـ 1236ك. أما الصومعة فيعود تاريخ بنائها إلى سنة 868 هـ الموافق لـ 1463م.

- يعود تأسيس القصبة أو ما يعرف ببرج الحمامات إلى القرن التاسع وبالتحديد سنة 893. واستخدمت القصبة في البداية كمسكن يتحصن به أمين الرباط. وخلال حكم الأمير الحفصي عثمان أقيمت بالقلعة، حوالي سنة 1463، أشغال توسعة كبيرة نظرا لأن القصبة أصبحت مقر إقامة والي المدينة.

يأخذ هذا المعلم شكل المربع يبلغ ضلعه 50 م وبه أبراج متفاوتة الشكل والحجم.

ومع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، عرف برج الحمامات أعمال ترميم حتّى يجهز بأسلحة نارية فتحول البرج إلى ثكنة خلال حكم العثمانيين.

إن الموقع الإستراتيجي لمدينة الحمامات جعل منها منذ أواسط القرن السادس عشر مسرحا للمصادمات التركية الإسبانية. وإن تمكن العثمانيون من السيطرة على الوضع وفرض سلطانهم على البلاد التونسية وجعلوا من الحمامات قاعدة عسكرية، إلا أن المدينة ظلت مستهدفة من طرف الغزاة خاصة منهم فرسان مالطة، والقراصنة الإسبان منذ القرن الرابع عشر مما تسبب في انعدام الأمن وتقلص عدد السكان ليصبح 600 نسمة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

نتبين من خلال هذه اللمحة عن كنوز الحمامات، أن للمدينة حضورا في التاريخ لم ينقطع على مر العصور: حضور متعدد الأبعاد فكان الإزدهار وكان الفتور وكان السلم وكانت القرصنة والمغامرات على أن العلاقة بين الأفراد والشعوب لم تخل من الحب والتراشح والتعاون. وتظل الحمامات بتاريخها المجيد ملتقى العديد من الحضارات التي تعاقبت عليها ومعالمها استمرت قائمة تذكر الماضي وتعد بمستقبل أفضل.

المدن العتيقة بين التّراث والتّطوّر

يحيى الغول

مـقـدمـــة :

تعد المدن العتيقة التونسية متاحف حية ذات قيمة معمارية وتاريخية حتى إن اليونسكو (المنظمة الأممية للتربية والعلوم والثقافة) قد سجلت عددا منها ضمن التراث الإنساني.

مفردات العمران الحضري :

تتوفر في «لسان العرب» (لابن منظور) عدة مفردات لتعيين التجمع السكني المستقر منها: قرية، مدينة، بلد، مقر، حاضرة... وهي تخص حَـضَـرا متميزا عن البداوة. وتطورت مفاهيم المفردات فبعد أن كانت كلمة قرية تشخص المركز المدني أصبحت تعني المركز الريفي. أما مفردة مدينة فقد تعلقت منذ البداية بوجود تحصينات وبالسلطة ثم شملت النشاط التجاري والدور السلطاني. وبسرعة تم قصر مفردة مدينة على النواة المركزية المتميزة عن الأرباض. وتبنت اللغة الفرنسية مفردة المدينة بهذا المفهوم.

والملاحظ أن التراث العربي يميز أساسا بين البداوة والحضر أكثر مما يميز بين المدينة والقرية في المفهوم الجغرافي العصري. أما المفردة التي كانت متداولة عامة بقطع النظر عن حجم التجمع السكني وعن ملامحه (شكله ووظائفه) إن كانت ريفية أو مدنية واعتبارا أنه بالأساس حضر فهي مفردة بلد.

وتعني مفردة بَـلَـد (1) التجمع السكني المستقر ومنطقته الريفية. والبَـلْـدي هو المنتمي إلى بلد معين وهو انتماء يتجاوز السكن إلى الاندماج الاجتماعي في جماعة البلد. والملاحظ أن المؤسسة البَـلَـدِيَّـة المعاصرة اشتقت تسميتها من جذر بلد.

وتنوع تأثير الصدمة الاستعمارية في المدن التونسية. ففي المدن التي وفدت عليها جالية أروبية حاولت المؤسسة البلدية الاستعمارية في البداية تطوير مجال استقرار المستعمرين باتصال مع أحياء المدينة التونسية ثم أصبحت تخطط لأحياء أروبية مستقلة اعتمدت الملامح العمرانية التي تبلورت في القرن التاسع عشر بالغرب. فازدهر الجزء الأروبي بالتجمع السكني على حساب الجزء التونسي الذي أصبح يشخص في لغة الإدارة الاستعمارية بمفردة «المدينة». ففي اللغة الفرنسية تعني مفردة «مدينة» الجزء العتيق من المركز الحضري.

وتوسعت المدن التونسية في القرن العشرين في إطار الازدياد السكاني السريع وارتفاع نسبة الحضر في علاقة مع النزوح. فتعددت الأحياء وتنوعت محيطة بالنواة الأصلية المتكونة من المدينة العتيقة أو من تجاور المدينة العتيقة والحي الأروبي الذي ظهر في عهد الحماية. وشهدت المدن التونسية نقلة نوعية خلال النصف الثاني من القرن العشرين في عهد الاستقلال في إطار برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وفي سياق التطورات الحضرية ظهرت الأحياء العتيقة ذات السكن المجمع الكثيف بتراثها وبحاجتها للتطوير.

أهمية الموضوع :

يتمحور مركز الاهتمام في هدف التنمية الشاملة للأحياء العتيقة بالمدينة التونسية مع الاستفادة من مقاربة تقدمية للتاريخ تعتمد جدلية التاريخ والتنمية. فتوجّه البحث يتخلى عن أسطورة مدينة المتحف العتيق من أجل خطة المحافظة الهادفة إلى التطوير والتنمية المتكاملة الأبعاد التي تعتمد المكاسب لبناء الحاضر وإعداد المستقبل.

للتوسع في هذا الاهتمام يمكن اعتماد تمشّ يدور على جزءين يتوقف أولهما عند التراث تمثلا وعمرانا بالمدينة وبالدار ويركز ثانيهما النظر في التطور بين التدخلات وآفاقها المرجوة.

I)- التـــــراث :

1) الرؤى حول المدينة العتيقة : طراز شرقي ؟

عمل المستشرقون الفرنسيون في العهد الاستعماري على بلورة طراز للمدينة العربية بملاحظة المدن المغاربية والسورية. وبعد تصور هذا الطراز أولوه مخرجين فكرة فوضوية المدينة العربية وهندسة المدينة الغربية. على حين لم تحرص الدراسات على بلورة مثل هذا الطراز للمدينة العتيقة الغربية. وتبين من تقييم هذا الإستشراق المندرج في النظرية الاستعمارية أن الدراسة كانت متأثرة بأفكار مسبقة على حساب الإشكاليات العلمية.

واعتبر هذا الإستشراق المعمار العربي (الدار والمدينة) تعبيرا عن العائلة والمجتمع والحال أن الدار تراث متوسطي وجد بالبلاد التونسية مثلا منذ العهد البونيقي وأن الشكل التحصيني في التجمع السكني تراث قروسطي مشترك بين الشرق والغرب.

ولعل من شروط تفهم هذا المعمار العربي الإقامة فيه ومقاربته داخليا مع اعتماد الموضوعية المرجوة لتيسير اكتشاف منطقه وتجاربه واستنتاج تناسقه مع ظروف العيش ومنها المناخ والأمن. فالمقاربة العلمية التونسية للموضوع مستقلة عن تبعية تأويلات الاستشراق المعلولة وتستوجب الدعم.

2) التراث في المدينة العتيقة (المَعْلَم والدار)

لشكل المدينة ملامح مشتركة مع مدن الغرب إلى القرن التاسع عشر منها مركزية المعلم الديني الجامع ودار السلطة والأسواق، وبها كذلك الهاجس الأمني في التحصينات وضيق الأنهج وغلق الأحياء وغيرها. أما الفن المعماري فقد تفاعلت تأثيراته عبر البحر المتوسط وتجسمت أصالته في الطابع العربي الإسلامي. والملاحظ أن تحديث الطابع المعماري بدأ مثلا في البلاد التونسية منذ عهد الإصلاح مع أحمد باي (1837 - 1855) الذي يسر التأثير الايطالي. وقد تجسم الطابع العربي الحديث قبل إرساء الحماية سنة 1881 في مبان مثل المدرسة الصادقية سنة 1875. فهو الطابع المسمى «néo-mauresque» ومن الخطإ تسميته بالأسلوب الاستعماري «style colonial».

وقد اعتمد العرب تاريخيا عند تخطيط (تأسيس) مدنهم النماذج الهندسية من شكل عام دائري أو مستطيل أو مربع ومن انهج متعامدة ومن ساحات تنتظم حولها الأحياء ومن مقابر خارج المنطقة السكنية... فمن البين أن النواة الأولى لبلد نابل في العهد الحفصي قد خطت على شكل مستطيل (2) حول ساحة القصر.

أما الدار فهي مرتبة حول ساحتها الوسطى حسب موروث متوسطي مشترك منذ العصور القديمة حول حوض البحر الأبيض المتوسط. وتتميز هذه الدار بملاءمتها للمناخ المتوسطي ولطريقة العيش من حيث تقنية بناء الجدران والسطح ومن حيث مركزية الساحة الوسطى وخاصة ترتيب الفتحات داخليا توقيا لضوضاء الأزقة و كثرة التشمس.

3) البَلْدية : الحياة في المدينة العتيقة :

الأهم في التراث وفي التنمية الإنسان. فالطبيعة والظروف عامة تقترح والإنسان يتصرف. ولبلدية نابل أصول وطريقة عيش ذات تعامل وعادات يشتركون فيها مع الحضر عامة ويختصون ببعض الملامح.

فمن المعاملات المعروفة في الزنقة أن الكبار (النخبة) يفضلون سكن جوف الزنقة غير النافذة حيث يقل عدد المارة والضوضاء المصاحبة، وحيث ترتفع الأرض فتسيل مياه التساقطات بعيدا عن الدار. وكذلك حسن الجوار في البناءات فلا تجاوز في فتح باب مباشرة على باب الجار ولا فتوحات عليا تكشف علي الجوار. فالإخلال بهذه القواعد جهل بالأخلاقية البَـلْـدِية. وللعلم في هذه المنظومة الاجتماعية للتعايش المتضامن حظوة وجاه. وكانت الجماعة قبل الحماية ترشح بعريضة «عدالة» من تثق في إمامته أو إشهاده أو قضائه أو أمانته في السوق والحرف...

وفي الختام يلاحظ تراثيا أن هجرة البلدية خلال النصف الثاني من القرن العشرين من «البلد العربي» إلى الأحياء السكنية الجديدة هي هجرة مع الدار لا من الدار. بما أن العديد منهم حافظ على العادات وحرص البعض اللآخرعلى تشييد المنزل الجديد على منوال الدار أو حتى إقامة بيت أو دار خلف المنزل الحديقة العصري. فكانت بداية التطوير.

II)- التطويـــر :

1) التداعيات : بعض أسبابها وملامحها :

تعطل التطور الطبيعي للمدينة العتيقة في القرن العشرين بحكم تسارع تحولات العصر ونتيجة السياسة الاستعمارية التي وجهت العناية البلدية أولا إلى الأحياء الأوروبية. فتعتبر المدينة العتيقة بصفاقس من الاستثناءات التي تمكنت من الحفاظ على نشاطها وحيويتها في عهد الحماية.

وعامة هاجر البلدية تدريجيا إلى الأحياء الجديدة لما يتوفر بها من مرافق ومن ظروف حداثة. فتدنى تعهد المنازل في المدينة العتيقة بالصيانة والتطوير. وتوجه جزء من النزوح إلى الاستقرار بالكراء في منازل المدينة العتيقة فتحولت الديار إلى وكالات وارتفعت الكثافة السكانية واحتدت ظاهرة «التريف».

وفي مرحلة لاحقة تواصل تدهور الشكل المعماري وظروف السكن بالمدينة العتيقة وبدأت ظاهرة المضاربة العقارية بغلق المباني وإهمالها ماديا فتداعت للسقوط. بينما لاقت الأحياء السكنية الجديدة بأنواعها الاجتماعية رعاية أمثلة التهيئة البلدية للمدن فحظي المنزل الحديقة بالأولوية في التوسع السريع للمدن. وفي مرحلة أخرى عاد الاهتمام إلى وسط المدينة بالتشجيع على البناء العلوي بمقتضيات تنموية. إلا أن البعض حول هذا الاهتمام إلى أولوية العمارة على الدار في التهيئة البلدية دون اعتبار ثوابت منوال التنمية الشاملة في تلازم البعدين الاقتصادي والاجتماعي.

2) التدخلات في المدينة العتيقة بين الجاري والمخطط :

بدأت التدخلات لتطوير المدينة العتيقة منذ عهد الإصلاح في القرن التاسع عشر وقبل إرساء الحماية سنة 1881. فقد تأسست بلدية تونس سنة 1858 في إطار التوجيهات العثمانية للتنمية.

وفي عهد الحماية ارتفع عدد البلديات في المدن التي يسكنها الأوربيون وأنجزت تدخلات في المدن العتيقة. فبالنسبة إلى مدينة نابل التي تأسست بلديتها بقرار 30 جويلية 1887 تمثلت التدخلات في آخر القرن التاسع عشر في فتح عدد من الأزقة غير النافذة بالمدينة وفي تجهيز الأنهج وفي تهيئة تمفصل التوسعات الجديدة شمالا وجنوبا.

وفي عهد الاستقلال توضّحت ضوابط المحافظة والتطوير في المدن العتيقة وتعاقبت أمثلة التهيئة البلدية لعدة مدن لتراعي خصوصية الأحياء العتيقة. إلا أن سرعة التحولات وعدة ضغوطات أدت إلى خطورة بعض المبادرات المنعزلة وعلى الأقل إلى تقصير في تطوير المدن العتيقة. ومع ذلك فقد تحققت بعض التدخلات المناسبة بتونس العاصمة التي اعتبرت نموذجية داخليا وعالميا والتي تمثلت في تهيئة الأحياء العتيقة «الحفصية» و«باب سويقة» وتطويرها.

3) أفاق جديدة ومتنوعة :

وفي عهد التحول منذ 7 نوفمبر 1987 شهدت التدخلات في المدن العتيقة نقلة نوعية بالتطور من

الرعاية العادية إلى خطط المحافظة والتطوير. وتتدرج هذه العناية المتجددة بالمدن العتيقة في إطار مصالحة التونسي مع تراثه التي حرص التحول على تحقيقها.

فدأبت مخططات التنمية على اعتماد برامج متكاملة للعناية بالأحياء العتيقة والمعالم التاريخية بهدف الحفاظ على التراث الوطني وإثراء المنتوج السياحي. وأولت هذه البرامج مكانة للمجتمع المدني في إعداد خطط الصيانة والترميم والتوظيف للمعالم في الأحياء العتيقة وللمدن العتيقة عامة. فارتفع عدد جمعيات صيانة المدينة ونمت مواردها وقدراتها وأصبحت لها مساهمة مهمّة في برامج البلدية الخاصة بالمدينة العتيقة.

4) إقتراحات :

يمكن إضافة اقتراحات قد تساهم في برامج تطوير المدينة العتيقة ومن ذلك :

أ- حث السكان على الصيانة والترميم :

مما يقتضي آليات منها إقرار إعفاءات جبائية متنوعة لتشجيع السكان على الاستقرار بالمدينة العتيقة والعناية بمساكنهم، وحث المستثمرين على بعث مقاولات أشغال بناء مجهزة بآلات تناسب الأزقة، وتجهيز الأنهج بالمرافق العصرية، مع المحافظة على التنوع في نطاق الأصالة بالنسبة إلى الفن المعماري وتراتيب البناء والترميم.

ب- إرساء محيط مناسب للحياة في المدن العتيقة مما يستوجب برامج متكاملة تشمل :

- تجميل المدينة العتيقة بمشاهد خضراء، وتزويق معماري وإعلامي، ورعاية الصحة والنظافة، وتوفير المرافق العصرية...

- توفير المواصلات حول المدينة العتيقة وداخلها بما يخص مآوى سيارات بمداخل المدينة، ومسالك سليمة وموضحة بالعلامات المناسبة والإرشاد السياحي، التنوير المناسب، فتح بعض الأزقة غير النافذة، توفير أو توسيع الساحات...

- دعم الأنشطة التي تتماشى مع السكن المجمع باعتماد خطة تنمية اقتصادية واجتماعية مناسبة، وبالحرص على التنشيط الثقافي وإشراك المجتمع المدني...

إن مثل هذه الإجراءات من شأنها أن تحث السكان على الاستقرار بالمدينة العتيقة والاستثمار بها بما يمكنها من استئناف تطورها الطبيعي ومواكبتها للعصر.

خاتمة :

هكذا يتبين أن جدلية التراث والتطوير في المدن العتيقة لا تقف عند البكاء على الأطلال ولا تلهث وراء السراب المتحفي بل تتفاعل بين الأصالة والمعاصرة في رؤية شاملة للتنمية من أجل الإنسان التونسي. وقد تطورت أطراف المعادلة في مطلع القرن 21 إلى حوار التراث والعولمة مع اعتبار الثقافة سندا للتنمية.

وبذلك أصبح طموح المدن العتيقة يتجاوز التسجيل في سجل التراث الوطني أو حتى الإنساني نحو الانخراط في مسيرة الازدهار والرفاه من موقع الإشعاع الحضاري الأصيل باتجاه الانفتاح والشراكة.

الهوامش والاحالات

1) يحيى الغول، بلد وبلدي، «كبار وأعيان: الملامح اللغوية والتاريخية»، مجلة معهد الآداب العربية، عدد 179، السداسي الأول لسنة 1997، بالصفحات 37 إلى 53 من القسم الفرنسي.

2) يحيى الغول، «بلد نابل»، من نيا بوليس إلى نابل، [كتاب بالفرنسية بمساهمات متعددة، من نشر «أليف» وجمعية صيانة مدينة نابل سنة 2000]، صفحة 33.

الحضور العربيّ الإسلاميّ بموقع أوذنة من خلال الخزف

سندس قراقب

أوذنة هذا الموقع الذي يبعد عن مدينة تونس 30 كلم ويتموقع جنوب غربي العاصمة، واشتهر خصوصا بمعالمه التي تعود إلى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، يبدو أنه كان من أهم التجمعات السكنية التي احتضنها سهل مرناق خلال الفترة الوسيطة، إذ يخبرنا أبو عبيد البكري (مؤرخ عاش في القرن الحادي عشر ميلادي) في مؤلفه «المسالك والممالك» أن هذا السهل كان يحوي 360 قرية يحدّها جبلان هما على الأرجح جبل الرصاص وجبل بوقرنين إذ يقول: «...المنازل التي بين الجبلين التي يقال لها فحص مرناق وهي إذاك ثلاث مائة وستون قرية» (1). أما عن ذكر أوذنة في المصادر العربية الوسيطة فإننا نشير إلى أنّه أثناء تفحصنا لعدد كبير منها، عثرنا عديد المرات على ذكر لإسم أوذنة كما يكتب وينطق اليوم أو أوذنة بحذف الواو ولكن ذلك في إشارة إلى مدن أخرى تحمل نفس الإسم أو أسماء متشابهة توجد بالمشرق. إذن وجب الحذر أثناء التعامل مع هذه المصادر. مصدر وحيد تقريبا وقعت فيه الإشارة إلى موقع أوذنة اليوم وهو نص ابن الدّباغ (عاش في القرن الثالث عشر ميلادي) في كتابه «الأسرار الجلية في المناقب الدهمانية» إذ يذكر فيقول: «أوذنة بقرب تونس...» (2). لكن هذا النصّ إن كان فيه إشارة إلى موقع يدعى أوذنة اليوم فإنّه يبقى صامتا حول طبيعة العمران بالمكان أو أهميته.

من حسن الحظ أنّه لمزيد إلقاء الأضواء على كلّ هذه التساؤلات تأتي المعطيات الأثرية لإثرائها، فلقد أمدّتنا الحفريات التي أجريت في عدّة أماكن بالموقع وخاصة بالمعالم الكبرى كالكابيتول والحمامات بكمية هامة من الخزف في حالة حسنة من الصيانة، يمثل الخزف المطلي نسبة مرتفعة منها تعود إلى ما بين النصف الثاني من القرن التاسع والقرن الرابع عشر والخامس عشر ميلادي، هذا مع هيمنة عددية للخزف العائد للقرنيين الحادي عشر والثاني عشر (الفترة الصنهاجية) في حين أنّ خزف القرنين الرابع عشر والخامس عشر (الفترة الحفصيّة) يبدو وجوده نادرا بالموقع.

إلى جانب الخزف وقع العثور على قطعة نقدية نحاسية (فلس) تعود إلى بداية الفتوحات الإسلامية وعلى الأرجح إلى فترة حكم موسى ابن نصير 85 هـ/ 704م وذلك حسب مختص المسكوكات الأستاذ خالد بن رمضان (3).

إذن نستطيع أن نستنتج من خلال جلّ المعطيات المتوفرة لدينا أنّ موقع أوذنة عرف حضورا عربيا منذ الحملات الأولى للفتوحات الإسلامية. ويبدو واضحا أن تواصل الحضور الإنساني بموقع أوذنة ليس بالأمر الغريب إذ أنّه يتمتع بعدّة مزايا :

- اتّساع وخصوبة أراضيه ووجود الماء بالمنطقة هذا إلى جانب ضخامة مبانيه القديمة إذ بإمكانها إيواء مجموعات بشرية في فترات اختلال الأمن إذ نعلم أنّ مبنى الكابيتول هو من أكبر معالم الكابيتول بإفريقيا.

ثم نشير إلى أنّ النوعية الجيدة للخزف الإسلامي بأوذنة تجعلنا نعتقد أنّ المدينة كانت مأهولة بمجموعات بشرية حضريّة كانت تعمل بالفلاحة وقد تكون لها علاقات تجارية بمدينة تونس في تلك الفترة.

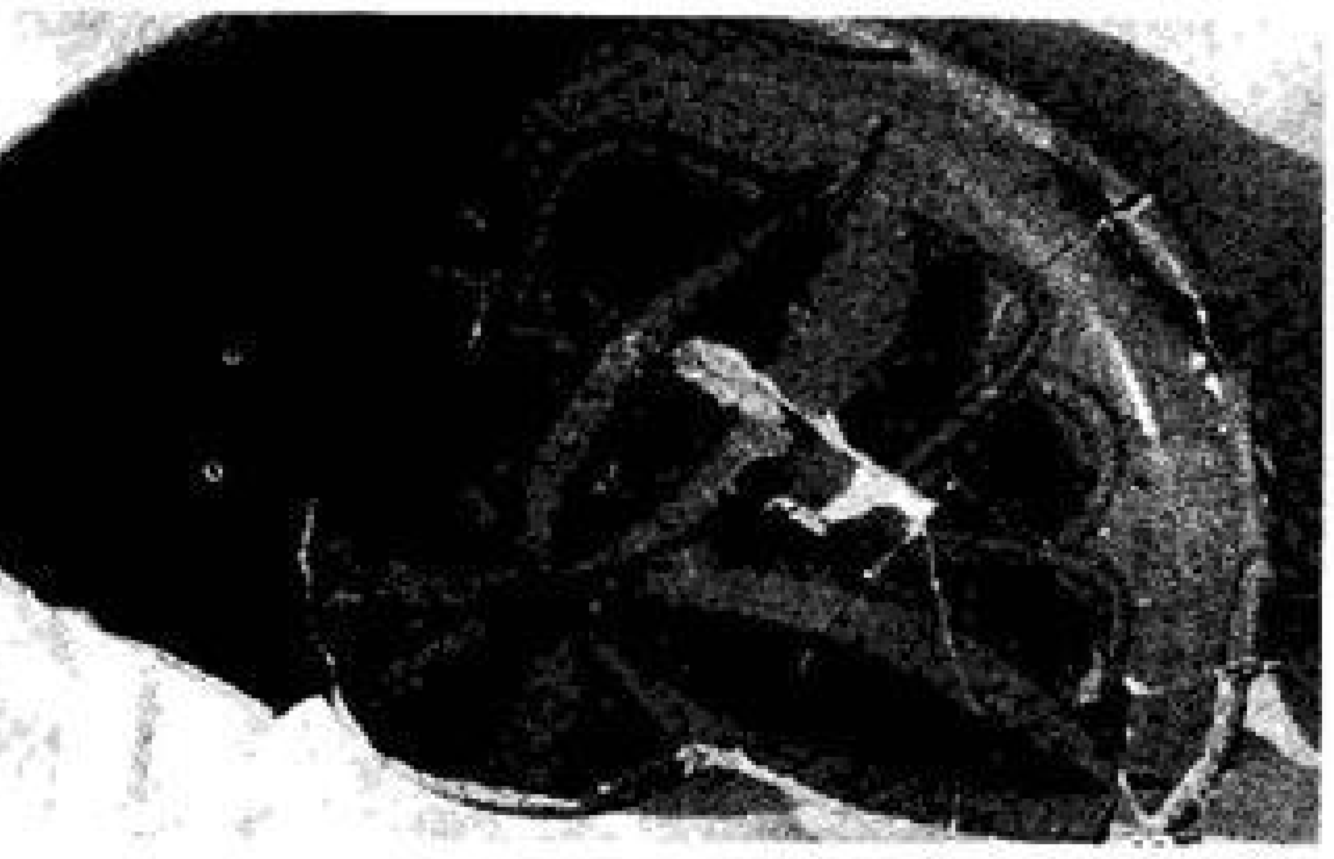
دراسة الخزف :

مجموعات الخزف التي ستتناولها بالدرس استخرجت من مركّب الكابتول والفوروم بأعلى الهضبة، وحسب كميّات الخزف التي تم استخراجها، فإنّه يبدو أنّه ضم تمركزا سكنيا مكثفا خلال الفترة الوسيطة. هذه المجموعات الخزفية تبدو متجانسة إذ تتموقع كرونولوجيا من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر ميلادي.

خزف القرنين التاسع والعاشر (الخزف الأغلبي) :

من بين خاصيات خزف هذه الفترة هو لون الطلاء الذي يغطي مساحات الأواني إذ هو لون أصفر يميل إلى الاخضرار ويعرف بأصفر رقادة.

التركيبات الخزفية التي تزين هذه الأواني وقع تشكيلها باللونين البني والأخضر وهي تشبه بشكل كبير الزخارف التي وقع العثور عليها بموقع رقادة، من ذلك الوردة المشعة من وسط المساحة الداخلية للجفنة وتتخلل وريقات هذه الوردة زهرات اللوتوس. كذلك قاع أحد الجفنات يحمل نصا يتكون من أربعة أسطر، للأسف لم نتمكن من قراءته نظرا لعدم وضوحه، هذا النص كتب بخط كوفي يعود حسب طريقة رسم حروفه إلى النصف الثاني من القرن التاسع ميلادي.



أمّا عن أشكال هذه الجفنات فهي مشابهة لتلك التي نجدها بموقع رقادة. وفي الأخير نقول: إنّه إن كان الخزف الأغلبي نادر الوجود فإن خزف القرنين الحادي عشر والثاني عشر يبدو عدديا كثيفا.

خزف القرنين الحادي عشر والثاني عشر (الخزف الصنهاجي) :

أشكال عديدة نعاينها : جفنات، قوارير وعدد كبير من القناديل. كل هذه الأشكال تشبه إلى حد بعيد مجموعات الخزف الإسلامي المكتشفة بكل من صبرة المنصوريّة، قرطاج وقلعة بني حمّاد بالجزائر. أمّا عن الزخرفة التي تحملها هذه الأواني ونخص بالذكر هنا الجفنات فيمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام كبرى :

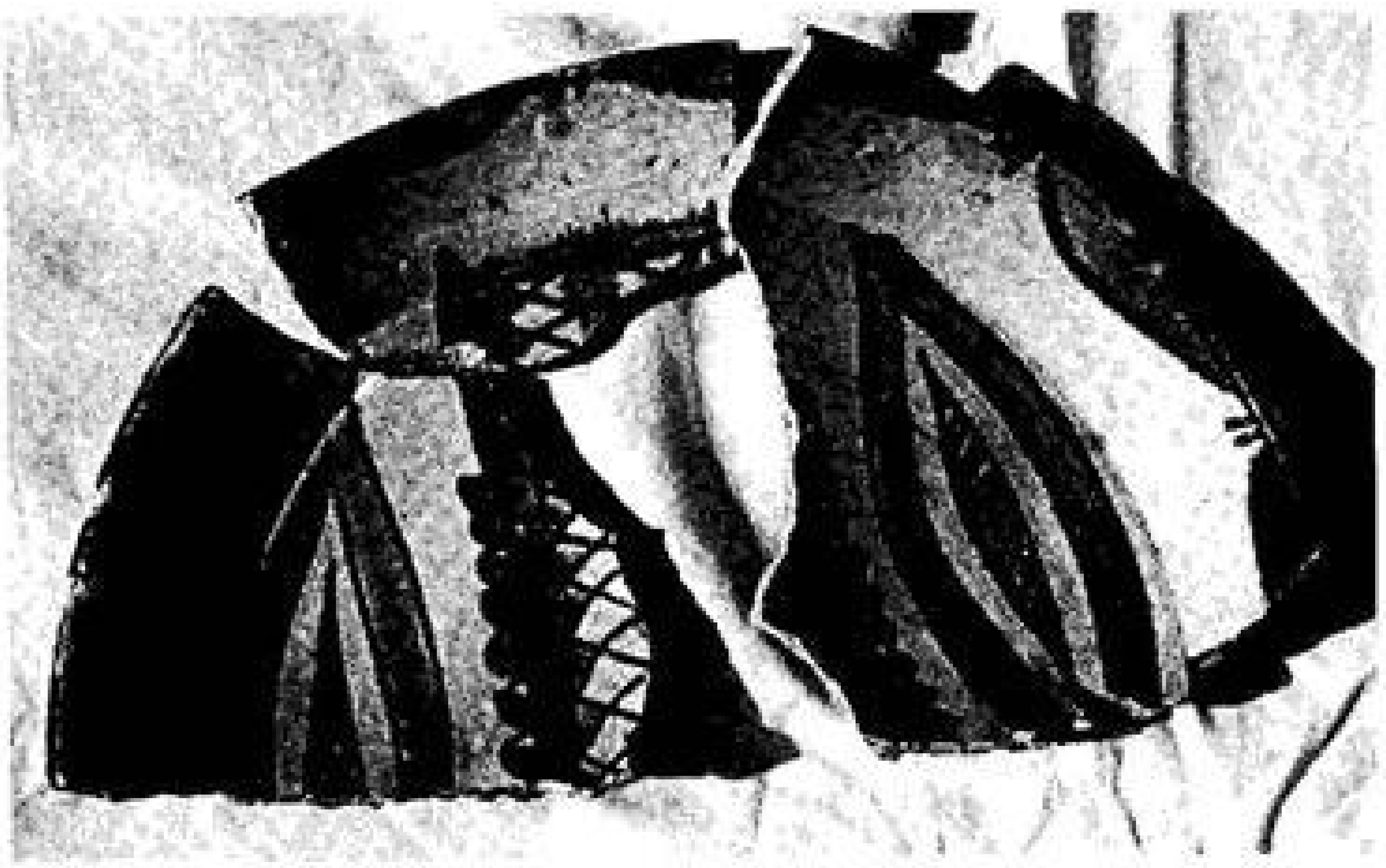
- الزخارف الهندسيّة :

في هذا المجال نذكر خصوصا شكلا يشبه العين نجده بكثرة على قاع الجفنات .

- مربعات صغيرة متقاربة تذكرنا بالسجل الزخرفي البربري.

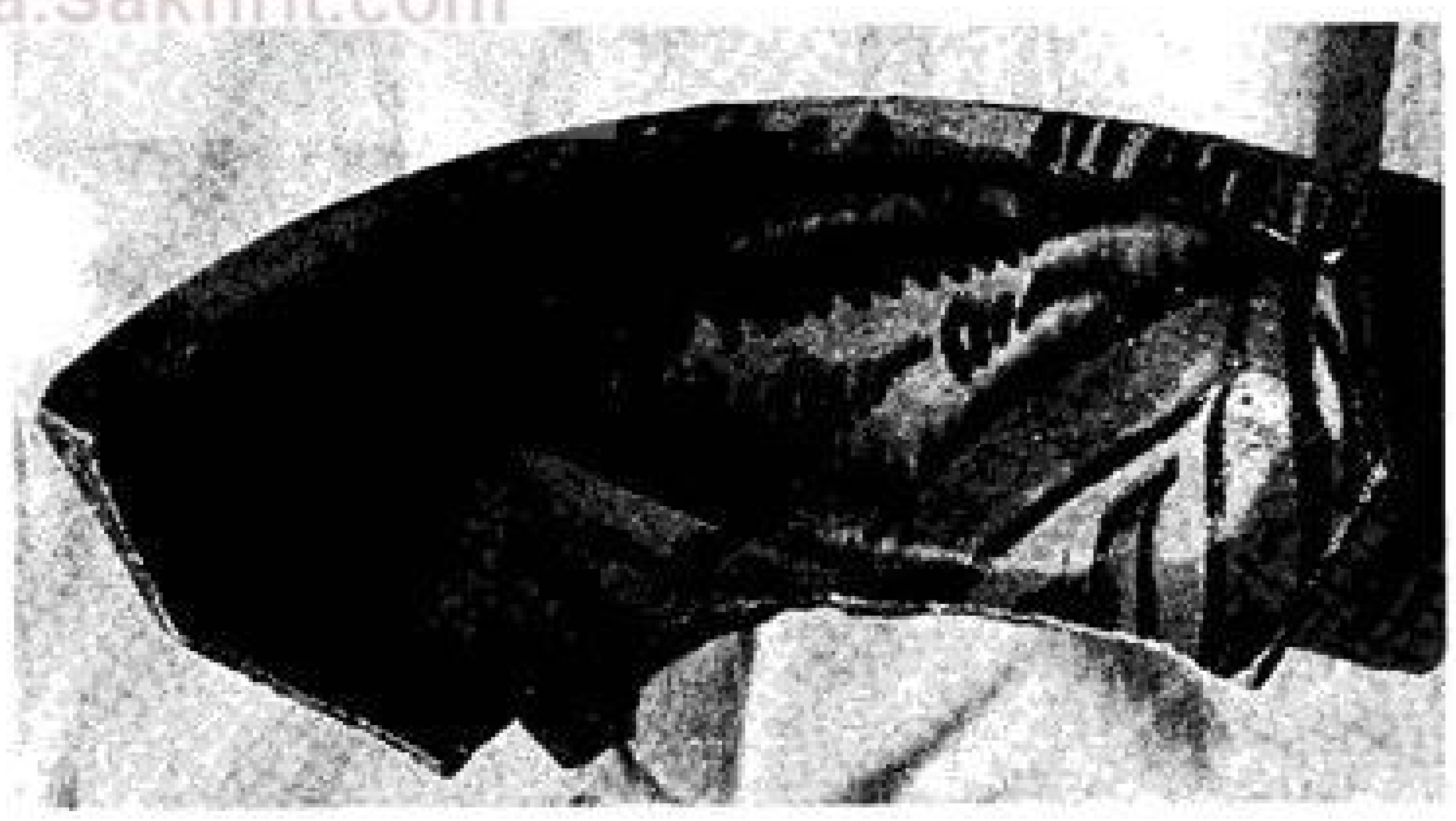
- ضفائر متكونة من شريطين أو ثلاثة.

ـ أشكال قلبية متراكبة.



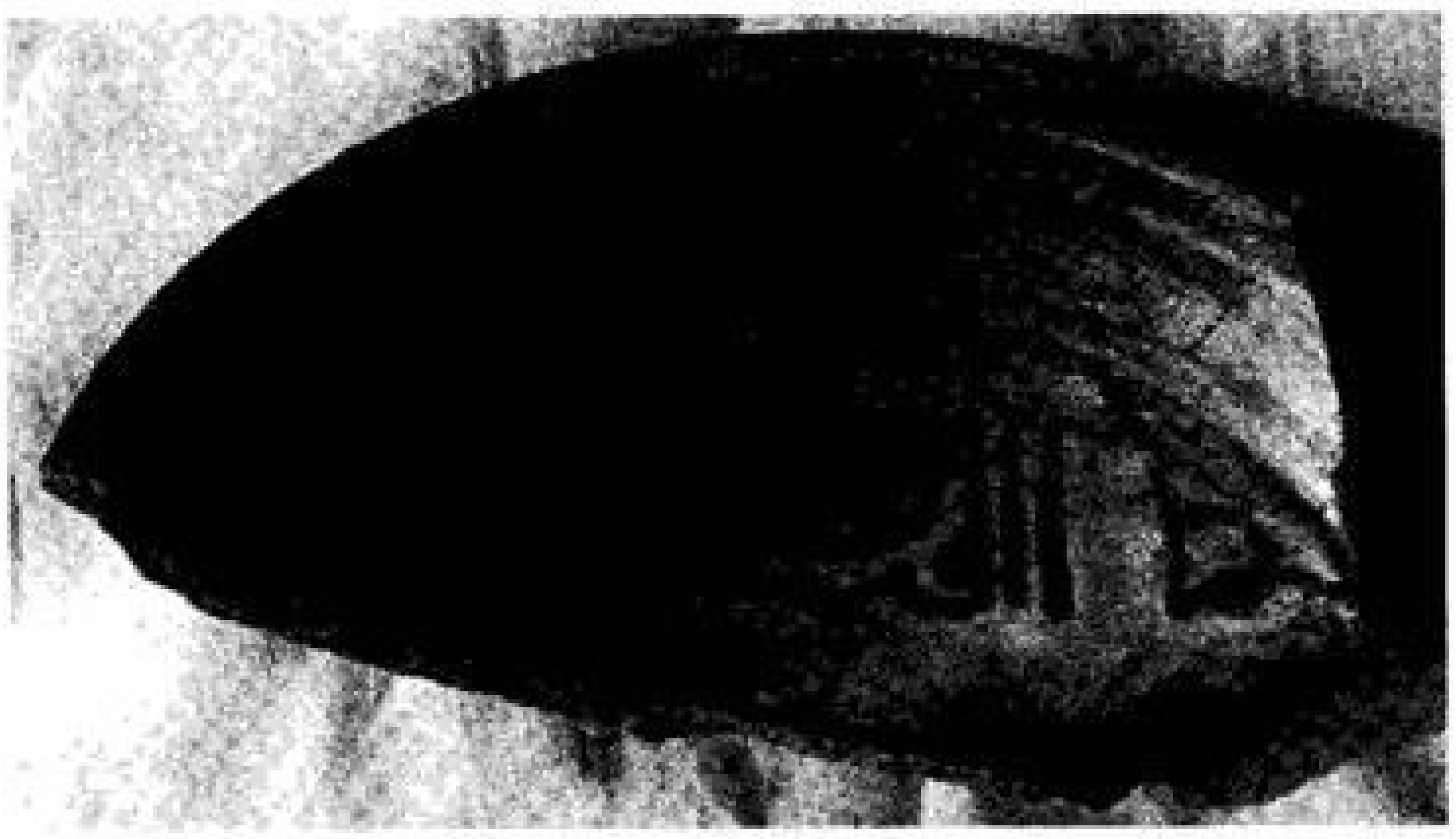
ـ الزخارف النباتية :

في هذا المجال نتحدث عن تركيبة زخرفية نباتية تذكرنا إلى حد بعيد بالوريدات التي نشاهدها اليوم على بلاطات البريق المعدني والتي تزين محراب جامع عقبة بالقيروان. نشير كذلك إلى الوردات المشعة من وسط قاع العديد من الجفنات.



ـ الزخارف الخطيّة :

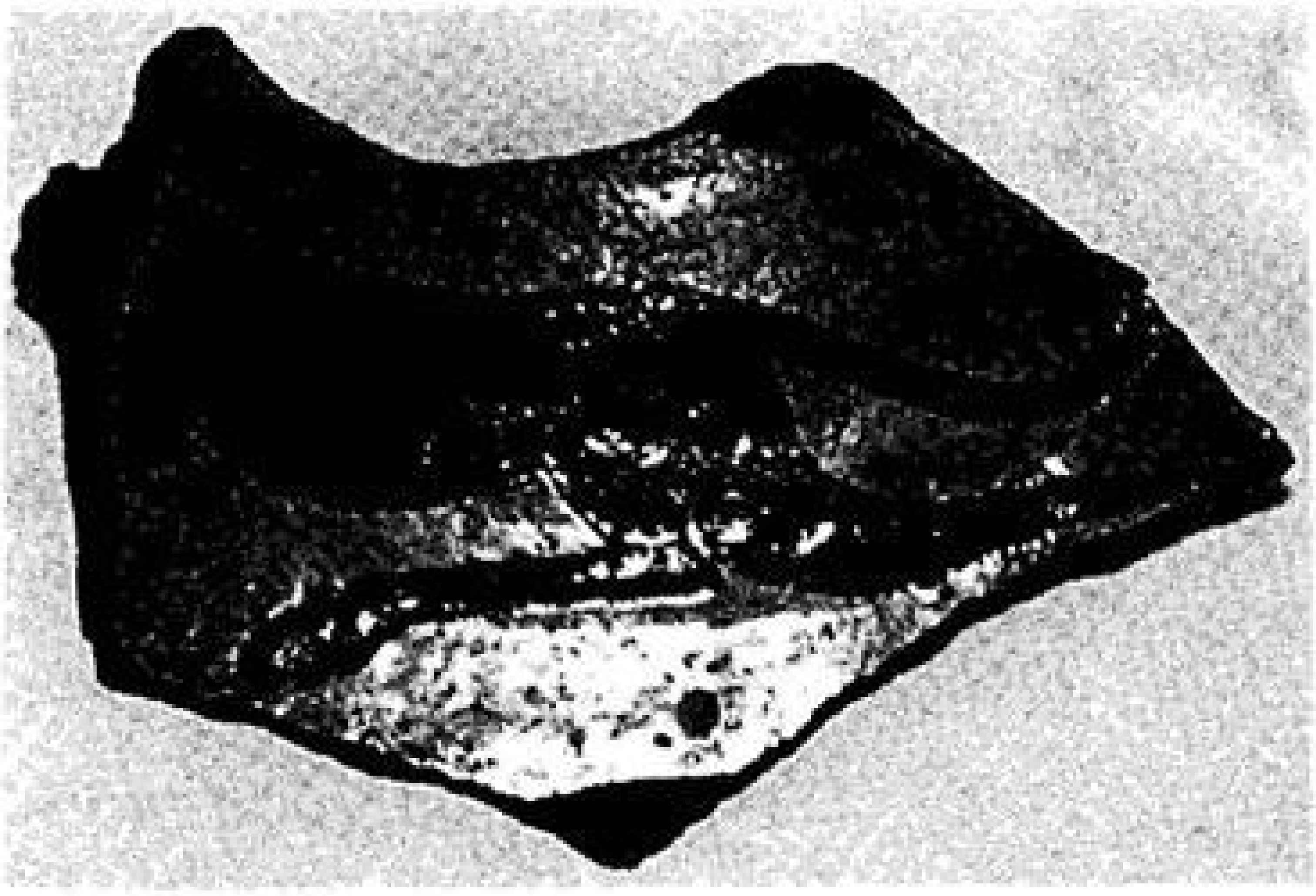
عبارتين نجدها بكثرة بسجل الزخارف الخطيّة، من ذلك «اليمن» و«الملك للّه» خطت بشكل مختصر. هذه الزخارف الكتابية سجلت بأشكال مختلفة من ذلك نجدها مكرّرة داخل إطار أو مرسومة بطريقة متناظرة يفصل بينهما شريط عريض.





ـ الزخارف الحيوانية :

بعض هذه الصور الحيوانية تذكرنا بزخارف مماثلة نشاهدها على الخزف الفاطمي والفارسي : من ذلك بعض الصور الحيوانية المشابهة لشكل الغزالة، إلى جانب ذلك نذكر حيوانا ينتمي إلى عائلة السنوريات .



أمّا عن الألوان التي طليت بها هذه الأواني فهي الأصفر والأخضر مع اختلاف في دراجات إشراق هذه الألوان وذلك حسب درجة صفاء الأكسيد المستعمل أثناء صنعها. اللون الفيروزي يبدو أكثر ندرة وهو عموما ذو نوعية جيّدة.

خزف الفترة الوسيطة المتأخرة (الخزف الحفصي):

الخزف العائد إلى هذه الفترة يبدو قليل الوجود، إذ عثرنا على جفنات تحمل زخارف هندسية من ذلك النجمة السداسية أو مربعات منسّقة.

من أهم خاصياته : إدخال اللون الأزرق واستعمال مكثف للون الأبيض، هذا مع الإشارة إلى أنّ بعض الجفنات حافظت على أشكال كنّا شاهدناها سابقا في القرن الثاني عشر.

الخـاتمـة :

من خلال دراستنا هذه نستخلص النقاط التالية :

- نستطيع القول إنّ مجموعات الخزف الإسلامي بموقع أوذنة ذات أهمية لمعرفة الخزف الإسلامي بتونس عامّة، فهذه المجموعات مكّنتنا من تصنيف تيبولوجي للأشكال.

- على المستوى الكرونولوجي هذه المجموعات تتمركز على مدى زمني شاسع (من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر)، نشير إلى أنّه بالنسبة لتأريخ هذه المجموعات اعتمدنا عنصر المقارنة، نرجو أن نتمكن في المستقبل من مراجعة هذه التواريخ بحفريات يؤخذ فيها علم الطبقات بعين الاعتبار.

- معظم الخزف الإسلامي بأوذنة يعود إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر ممّا يمثل شاهدا على أهمّ فترة وقع فيها التواجد العربي الإسلامي بهذا الموقع.

- تشابه كبير وقعت ملاحظته مع الخزف الإسلامي بقرطاج وقلعة بني حمّاد بالجزائر، هل يمكن أن ننسب خزف أوذنة إلى مركز إنتاج الخزف بتونس العاصمة خاصة وأنّ البكري وابن حوقل تحدّثا بإعجاب عن خزف مدينة تونس؟، إذ يذكر البكري: «وتصنع بمدينة تونس آنية للماء من الخزف تعرف بالريحية شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشف ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار وعامّة الأمصار» (4). إنّ في حقيقة الأمر ما يجعلنا نميل إلى نسبة خزف أوذنة إلى تونس هو التشابه الذي نلحظه بين خزف أوذنة والخزف الإسلامي بقرطاج لكن هذا التقارب لا ينفي تشابها مع خزف رقادة بالقيروان.

- وجود كميات هامّة من الخزف الإسلامي بموقع أوذنة يؤكد على مواصلة التواجد البشري بالموقع منذ الفترة القديمة، ودراسة هذه المجموعات الخزفية مكنّت من معلومات لم تحملها لنا النصوص الأدبية، وللاستنتاج نقول إن أوذنة عرفت وجودا إسلاميا مبكّرا يعود إلى أواخر القرن الأول هجري (بداية القرن الثامن ميلادي) وتواصل في القرون 9 و10 و11 ليصل إلى العهد الحفصي، وهو ما يؤكده نص منقبي يرجع إلى القرن الثالث عشر.

الخزف يأتي السدّ بعض الثغرات :

- وجود أغلبي في أوذنة.

- وجود مكثف يعود للفترة الصنهاجية (القرن الحادي عشر والثاني عشر).

- الخزف الحفصي يبدو أنّه نادر الوجود، قد يكون ذلك دليلا على دخول الموقع في فترة ركود انطلقت بوادرها بداية من الفترة الوسيطة المتأخرة.

الهوامش والإحالات

1) أنظر لأبي عبيد البكري : «المسالك والممالك ج 2، ص 494، تونس 1992».
2) أنظر عبد الكريم الشبلي : «دراسة وتحقيق لكتاب الأسرار الجلية في المناقب الدهمانية لأبي الدّباغ القيرواني، شهادة دراسات معمّقة، تونس 1997.»
3) هذا الفلس يحمل على الوجه عبارة لا إله إلاّ اللّه وحده وعلى القفا : محمد رسول اللّه
4) أنظر البكري ج 2 ص 698

شمتـــو ومقاطع الرّخام النّوميـدي

مصطفى الحنوسي

مـن بين عديد المواقع الأثرية التي ما يزال ارتيادها ضئيلا وشهرتها محدودة لدى العامة يحتلّ موقع شمتو الأثري مكانة خاصة لما يتميّز به من أهمّيّة تاريخيّة ومن قيمة علميّة وخصوصيّة أثريّة تؤهّله ليصبح محطّة رئيسيّة لمسالك السّياحة الثّقافيّة بالبلاد وبربوع ولاية جندوبة بصفة خاصة.

1 ـ مـوقع شمتو الأثـــري :

يوجـد موقع شمتو على بعد حوالي 20 كم شمال غربي مدينة جندوبة وتفوق مساحته الجملية 250 هك وهو يحتوي على مخلفات أثرية بالغة الأهمية لمدينة قديمة لم تذكرها المصادر التاريخية إلا نادرا وبصفة عرضية. كما يشتمل الموقع على شواهد استغلال الرخام النوميدي والمتمثلة في عدة مقاطع سواء في الهواء الطلق أو تحت أرضية وفي عدة منشآت ذات الصلة أبرزها الثكنة- السجن لعمال المقاطع وحراسهم.

2 ـ الرّخـام النوميـدي :

في خاتمة وصفه لربوع ما كان يسميه القدامى «نوميديا» والتي كانت تمتدّ على الجزء الأكبر من الشرق الجزائري وعلى بعض من الغرب التونسي، ذكر الكاتب اللاتيني «بلنيوس الأكبر» أن هذه المنطقة ما عدا الرخام النوميدي والحيوانات المفترسة لم تكن توفر شيئا يستحق الذكر.

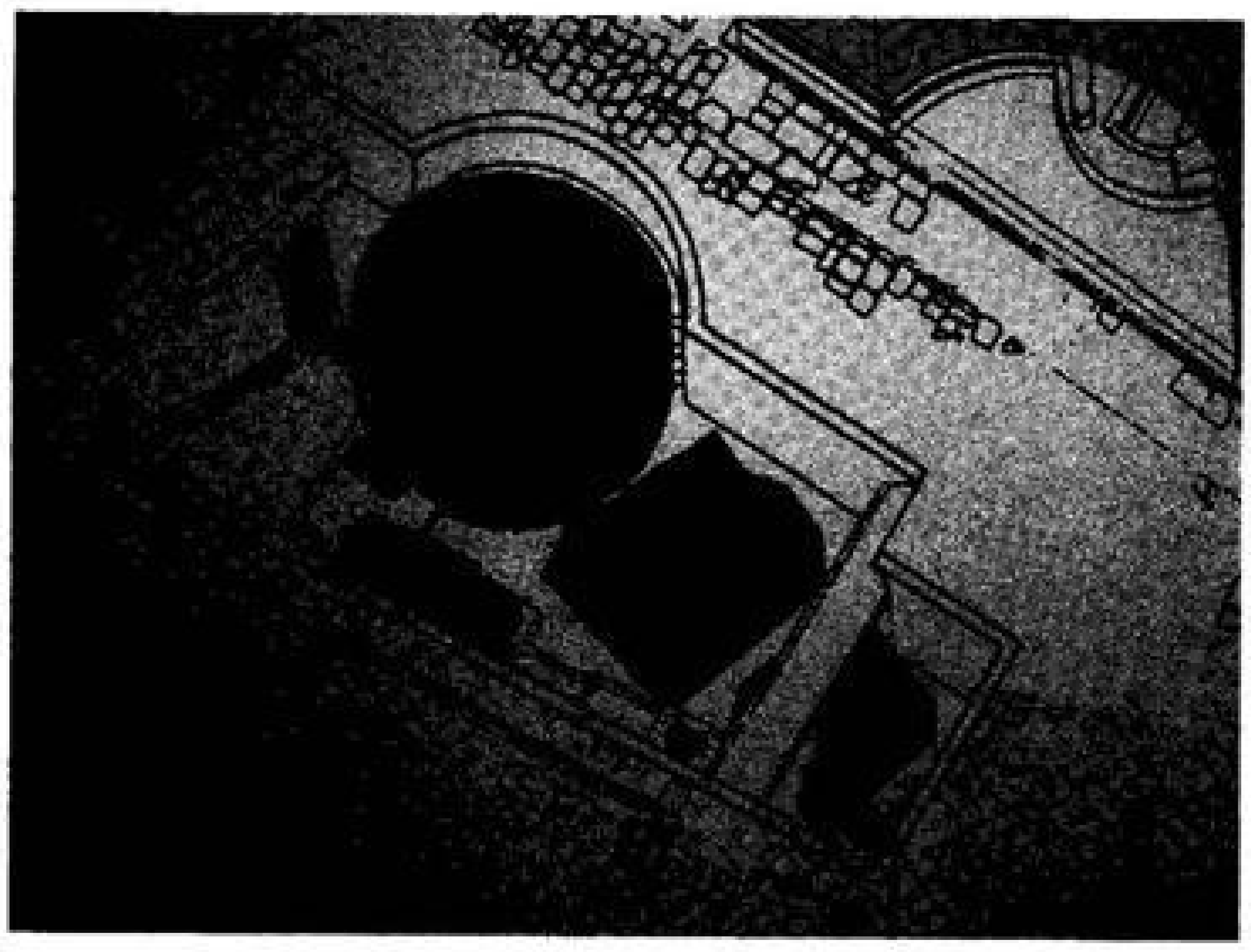


موقع شمتو الأثري

وحسـب ما تذكره المصادر فلقد تسبب أول استعمال لهذا النوع من الرخام بمدينة روما في استياء كبير، إذ اعتبره الكثيرون وقتها نوعا من أنواع البذخ الذي لا يتماشى مع القيم التقليدية للمجتمع الروماني. فحسب مارواه «بلنيوس الأكبر»، أثار استخدام القنصل Marcus. Aemilius Lepidus سنة 78 ق م الرخام النوميدي لصنع عتبات قصره موجة

من الإستنكار لدى العامة على هذا البذخ، لكن سرعان ما أصبح هذا النوع من الرخام علامة من علامات الثراء والجاه. لقد استعمل هذا الرخام لصنع السارية التي قرر سكان روما إقامتها وسط الساحة العمومية للمدينة تخليدا لذكرى «يوليوس قيصر» بعد اغتياله مثلما روى ذلك المؤرخ اللاتيني سوتنيوس في كتابه «حياة القياصرة الإثني عشر».

ولقد تم في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي تحديد مكان استخراج هذا النوع من الرخام بمنطقة شمتو من ولاية جندوبة بشمال غرب البلاد التونسية.



مثال للمقبرة النوميدية

3 ـ شمتو المدينة البربرية :

ما سكتت عنه المصادر التاريخية وما أبرزته التحريات الميدانية هو التاريخ الطويل الذي مرت به المدينة قبل أن يطرد الرومان سكانها الأصليين ويحولوها إلى مستوطنة لقدامى المحاربين الرومان في عهد الإمبراطور «أغسطوس» (27 ق م- 14م) فقد أثبتت الحفريات التي أجراها طوال عدة سنوات فريق تونسي-ألماني بالموقع أن المدينة بربرية الأصل يعود تأسيسها إلى أواخر القرن السادس ق م على أدنى تقدير.

وهو ما تشهد عليه المقبرة التي كشف على جزء بسيط منها، يحتوي على مدافن مختلفة الأنماط بعضها يعرف لأول مرة ويتراوح تاريخها من بداية القرن الخامس قبل الميلاد إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد أي إلى عهد إحداث المستوطنة.

لكن لا تمثل هذه المدافن الشواهد الأثرية الوحيدة عن شمتو البربرية التي تم اكتشافها بالموقع. فلقد تم العثور بأعلى قمة جبل بورفيفة على بقايا ذات أهمية بالغة لمعلم شيّد في عهد الملك النوميدي مكوسن (148-118 ق م)، تكمن أهمية هذا المعلم في كونه أوّل بناية



المقبرة النوميديّة



هضبة بورفيفة



واجهة المعلم النّوميدي

أنجزت بما أسماه القدامى «الرخام النوميدي» وهوالرّخام الأصغر الذّهبي الّذي يميل في بعض الأحيان إلى اللّون الوردي وهو المادة الحجرية المكونة لجبال شمتو.



مكان أول مقطع للرخام النّوميدي بهضبة بورفيفة

وعلى مقربة من هذا المعلم في اتّجاه الشرق يوجد مقطع صغير تدلّ الأثار التي تتوسطه على أنه المكان الذي استخرج منه الرخام لبناء المعلم المجاور وبذلك يكون أوّل مقطع فتح في هضاب شمتو لإستخراج الرّخام النّوميدي.

4 ـ مقاطع الرخام ملك خاصّ للأباطرة الرومان :

بعد انهزام الملك البربربي يوبا الأول أمام جيوش يوليوس قيصر سنة 46 ق م وبعد تحويل مملكته إلى مقاطعة رومانية ثانية بإفريقيا أطلق عليها إسم «مقاطعة إفريقيا الجديدة» (provincia Africa nova).

تحولت ملكية مقاطع الرخام النوميدي بشمتو من الملوك البربر إلى عائلة يوليوس قيصر ثم إلى الامبراطور أكطفيوس أغسطوس (Octavius Augustus) لتصبح بذلك ملكا خاصا بالتوارث للأباطرة الرومان.

وطوال الفترة الرومانية حظي رخام شمتو بانتشار واسع ورواج منقطع النظير شمل أغلب أرجاء الأمبراطورية. ولتلبية الحاجيات المتزايدة لهذا النوع من الرخام الذي أصبح متهافتا عليه في المباني العامة وفي القصور الخاصة، تم تركيز إدارة خاصة للقيام بأعمال الاستخراج وعمليات النقل إلى المواني حيث يتم نقله بحرا نحو أستيا ميناء روما بالأساس ونحو أهم المواني المتوسطية الأخرى.

بالرغم من عدم توفر الأدلّة القاطعة فإنه يعتقد أن أغلب العاملين بالمقاطع كانوا من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدى الحياة (damnati ad metella).

كما كان يوجد أيضا عدد هام من عبيد ومماليك الأمبراطور يقومون بالمهام الإدارية والمالية والفنية يشرف عليهم مملوك إمبراطوري بصفة وكيل للمقاطع النوميدية procurator m(armorum) n(umidicorum).

كما تعرفنا بذلك مجموعة من النقائش نذكر من بينها النقيشة التي نصها كما يلي:

Laribus Aug(ustis) / et Loco San /cto. Primus /Aug(usti) lib(ertus) /proc(urator) m(armorum) . n(umidicorum) / aram / consecravit

(إهداء) إلى الآلهة الحامية والى المكان المقدّس. برموس مملوك الامبراطور و وكيل المقاطع النوميدية أقام هذاالمذبح.



سارية لم يستكمل إستخراجها من المقطع

وكانـت الكتل والسواري المستخرجة تحمل كل واحدة منها نقيشة مكتوبة باللغة اللاتينية تذكر إسم الأمبراطور الحاكم بصفته المالك للمقاطع وسنة الاستخراج والتي يشار إليها بذكر إسمي قنصلي روما لتلك السنة وإسم المشرف على المقطع الذي إستخرجت منه الكتلة أو السارية، وهو عادة ما يكون من بين عبيد الامبراطور والعدد الرتبي للقطعة وإسم المقطع الذي استخرجت منه.



جزء من سارية ضخمة تحمل نقيشة باللاتينيّة

وللسهر على الأمن داخل المقاطع ولحراسة العمال من عبيد وسجناء محكوم عليهم بالأشغال الشاقة وقع الإعتماد على عناصر من الجيش الروماني امتدّ تواجدهم بالمنطقة بصفة متواصلة من بداية القرن الأول ميلادي إلى حوالي منتصف القرن الثالث ميلادي مثلما تدل على ذلك عديد النقائش التي عثر عليها بالموقع والتي توجد من بينها نقائش جنائزية لجنود لقوا حتفهم أثناء أدائهم للخدمة العسكرية بمقاطع الرخام مثل النقيشة التاليـة :



شاهد قبر الجندي الرّوماني Lucius Venidius Repostus

D(iis) M(anibus) s(acrum) L(ucius) Venidius Repostus miles legionis (tertiae) Aug(ustae) (centuria) Antoni(i) Clementis uixit annis XXXXV/ H(ic) s(itus) e(st).

وهـو ما يمكن تعريبه كما يلــي :

«**إهـداء إلى آلهة الموتـى** لكيوس وندیوس ريستوس، جندي بالفيلق الثالث الأغسطي بكتيبة أنطنيوس كلملس، عاش 45 سنة إنه مدفون هنا».

وفـي مرحلة أولى كان الرخام المستخرج من مقاطع شمتو ينقل عبر وادي مجردة إلى ميناء أوتيكا ومنه يصدر

إلى ميناء أستيا قرب روما، والدليل على ذلك هو الشارع الذي تم الكشف عن جزء كبير منه في السنوات الأخيرة والذي كان يربط مباشرة بين المقاطع و وادي مجردة. فلقد عثر على جانبي هذا الشارع الذي يزداد عرضه في اتّجاه الوادي إلى أن يصل إلى5،13م على كتل وأجزاء ساواري مكسرة ملقاة لأنها لم تعد صالحة للنقل.

وبعد أن غمرت أوحال وادي مجردة ميناء أوتيكا وأفقدته وظيفته، وحتى يتسنى مواصلة تصدير الرخام النوميدي إلى روما وإلى بقية الموانى المتوسطية الرئيسية لجأت الإدارة الرومانية سنة 129 م إلى شق طريق جديدة تربط بين مقاطع شمتو وميناء طبرقة رغم الطبيعة الجبلية للمسلك و وعورته مثلما يشهد نص الحجرة الميلية التالي والذي عثر عليه على بعد حوالي 1500 م شمال موقع شمتــو:

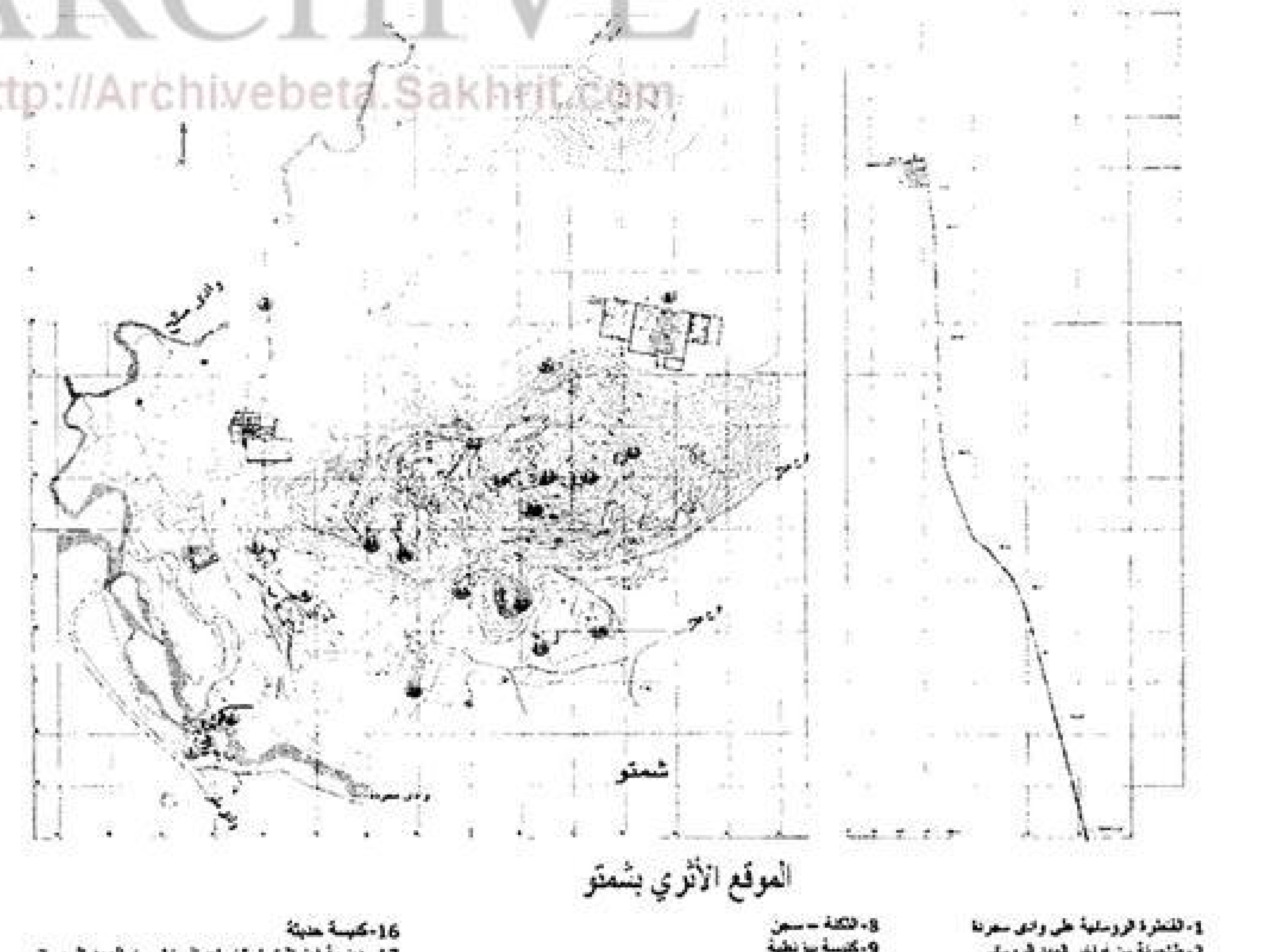
Imp(eraor) Caesar/divi Traiani/Parthic(i) fil(ius)/divi Nervae nep(os)/ [Traianus]/Hadrianus Aug(ustus) / pontifex max(imus)/ trib(unicia) pot(estate) XIII/ co(n) s(ul) III/viam a Simittu/ usq(ue) Thabracam fecit/I.

«الامبراطـور قيصر طريّنوس هدرينوس أغسطوس، إبن المؤله طريّنوس قاهر اليارت وحفيد المؤله نروى القديس الأكبر والحاصل على السلطة الشعبية للمرة الثالثة عشر والقنصل للمرة الثالثة هذه الطريق الرابطة بين شمتو وطبرقة ميل واحد (=1000 قدم).

5 ـ شمتــو مستوطنة رومانـيّـة :

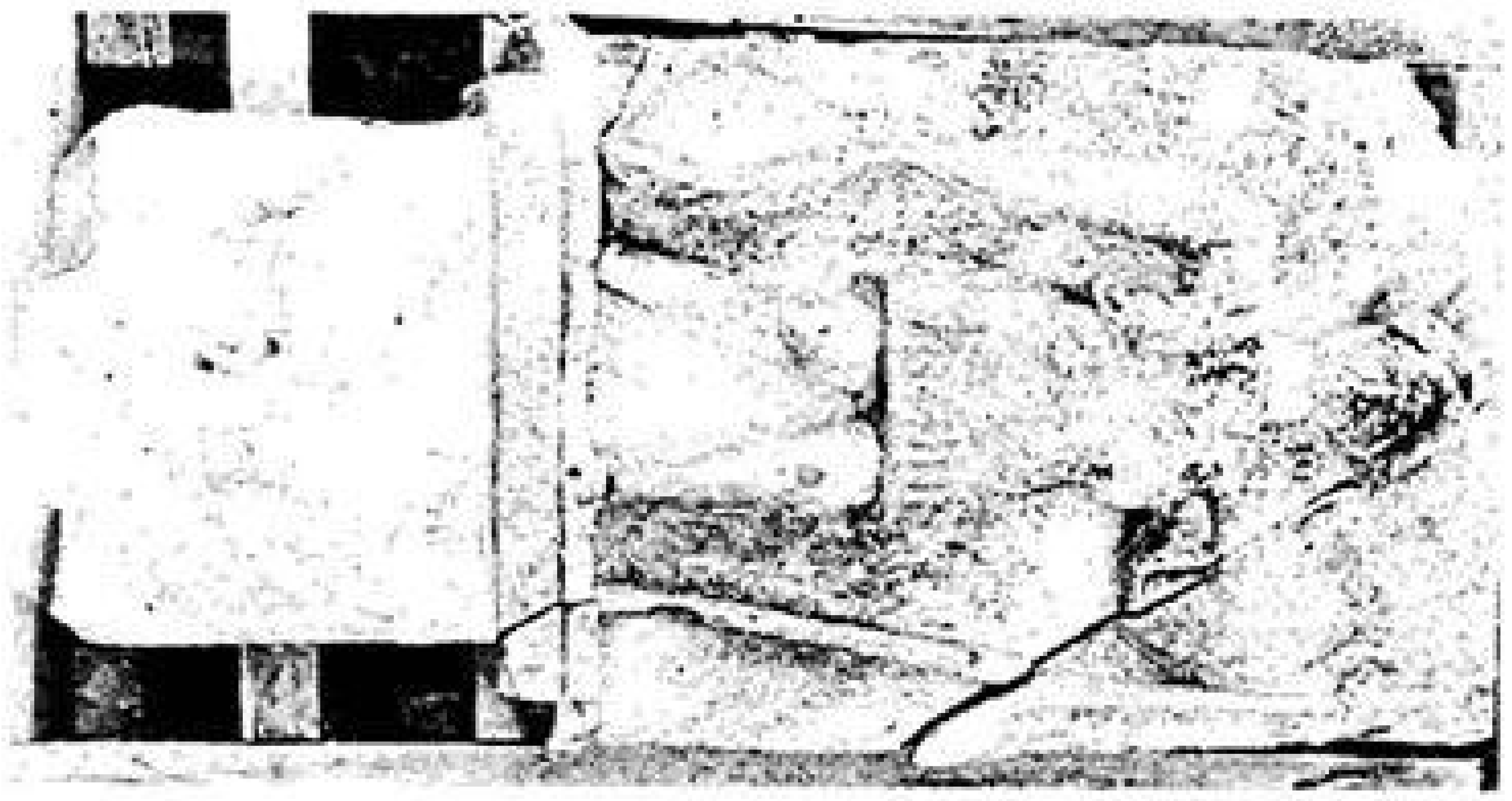
ولدعـم الأمن بالمقاطع وفي المحيط القريب منها ولمزيد تأمين ظروف استخراج الرخام وتصديره بادر الامبراطور أغسطوس بإحداث مستوطنة رومانية مكان المدينة البربرية بعد طرد سكانها الأصليين أطلق عليها إسم «المستوطنة اليولية الأغسطية النوميدية بشمتو» Colonia Iulia Augusta Numidica Simitthus.

مثال لموقع شمتو الأثري



الموقع الأثري بشمتو

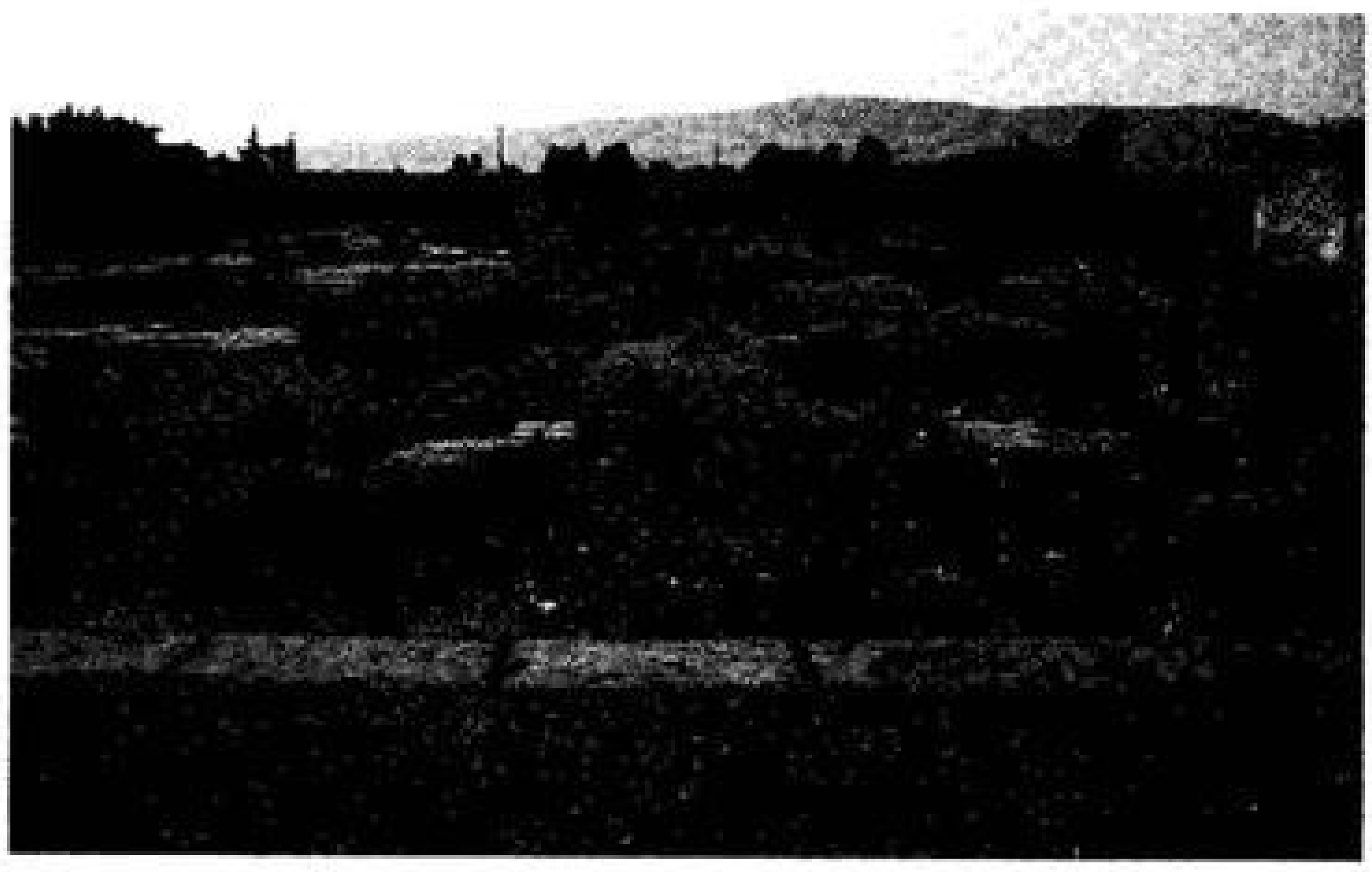
1- القنطرة الرومانية على وادي مجردة
2- طاحونة من أواخر العهد الروماني
3- المسرح
4- الساحة العمومية ،البازيليك ،قوس نصر ،حنية ،المقبرة النوميدية
5- السوق
6- الحمام، قوس نصر
7- الحنايا
8- الثكنة – سجن
9- كنيسة بيزنطية
10- نقش على الصخر
11- مدرج محفور في الصخر لمعبد بعل حمون- ساتورنوس
12- معبد نوميدي حول إلى معبد بعل حمون - ساتورنوس ثم إلى كنيسة
13- معبد الآلهة البربرية
14- معبد تانيت السماوية
15- معلم من العهد الروماني
16- كنيسة حديثة
17- هضبة فضلات استخراج الرخام من العهد الروماني
18- مدرج
19- معالم جنائزية من العهد الروماني
20- طريق نقل الرخام من المقطع إلى وادي مجردة
21- جدار فاصل بين المستعمرة الرومانية و مقاطع الإمبراطور
22- مقطع من العهد الروماني



نذر لإلاه الحرب مارس / أريس

واعتبارا لكون المستوطنين كانوا من قدامى المحاربين فقد اختاروا إلاههم المفضل أريس إله الحرب ليكون الإله الحامي للمدينة وراعيها. وبالرغم من أن المدينة التي أقاموها على أنقاض المدينة البربرية لم يكن تخطيطها منتظما مثلما هو الشأن لتخطيط المستوطنات الرومانية المحدثة مثل قرطاج أو تموغادي (Thamugadi) فلقد كانت توجد بها كل المباني والمرافق المعتادة في مدينة ذات طابع روماني.

ولئن لم يتم الكشف بعد سوى على عدد ضئيل من المعالم فإنه يمكن للزائر مشاهدة الساحة العمومية التي كانت تشكل وسط المدينة وقلبها النابض والمكان حيث تمارس الحقوق المدنية وتنتظم أغلب الطقوس الدينية.



الساحة العامة



مبنى قصر العدالة

وقد كانت توجد على جانبيها أو على مقربة منها أغلب المباني المدنية مثل المحكمة والسبيل والسوق ومقر المجلس البلدي إلخ... وعلى جانبها الغربي كان يوجد قوس نصر ذو ثلاثة ممرات اندثر تماما ولم يبق منه سوى الأسس.



المسرح



القنطرة على وادي مجردة

وعلى مسافة غير بعيدة من وسط المدينة توجد أثار المسرح والحمام والقنطرة على وادي مجردة والتي كانت تمر عليها الطريق التي كانت تربط بين شمتو ومقر قيادة الجيش الروماني بحيدرة ثم بتبسة وبعدها بلمبزيس بالجزائر.

وبعدما انهارت القنطرة للمرة الثالثة والأخيرة جراء الفيضانات المدمّرة لوادي مجردة بنيت بجانبها طاحونة لرحي الحبوب كانت تشتغل بالطاقة المائيّة. ويعدّ هذا



طاحونة لرحي الحبوب

النوع من المعالم نادرا جدّا إذ لا يوجد منه سوى مثال آخر يقع على ضفة وادي مجردة بمدينة تستور.

ومن بين المعالم الأخرى التي يمكن مشاهدتها بالموقع يمكن ذكر الحنايا والمدرج والمعابد الثلاثة التي شيّدت على ما يمكن تسميته «الهضبة المقدسة» أو جبل بورفيفة كما يسمّيه الأهالي، هذا زيادة على المقاطع وعلى الثكنة-السجن التي كان يقيم فيها عمال المقاطع وحراسهم.

«العمـارة التّقليديّـة والقيـم»
من خلال نماذج من جهة باجة (*)

أحمد الحمروني

تمهيد :

في تخصيص شهر التراث لسنة 2007 لموضوع العمارة التقليدية دليل أول على الوعي بقيمة التراث المعماري التقليدي في تونس بروحه العربية الإسلامية ومظاهر تفاعله مع مختلف التأثيرات عبر عصور تطوره، ودليل ثان على المخاطر التي أصبحت تهدده أكثر فأكثر أمام تحديات الحياة العصرية ومتطلبات الحداثة والعولمة، ودليل ثالث على وجود أزمة مزدوجة. هي قبل كل شيء أزمة هوية وذوق، وهي بعد ذلك أزمة تعامل مع التراث عامة والمعماري منه خاصة. كيف نصونه؟ كيف نوظفه؟ كيف نستلهمه أو نجدده في خضم مشاكل العقار من تهيئة الأراضي للبناء إلى التعمير والإسكان مع اعتبار التكاليف واعتبارات أخرى في إطار خطة تنموية شاملة تلبي الحاجات وتراعي الظروف والإمكانيات؟

وتعبّر فكرة صيانة المدن العتيقة مجسمة في ترميم النسيج العمراني التقليدي وتعهّد المعالم التاريخية واستغلال بعضها في العمل الجمعياتي الثقافي والاجتماعي، تعبّر تلك الفكرة عن وجهة نظر قيمية تؤطر العمارة في سلم القيم العربية الإسلامية بما أن مفهوم الصيانة يشمل الممتلكات المادية والمعنوية معا حسب دلالة عبارات : صيانة المال وصيانة النفس وصيانة اللسان وصيانة العرض أو الشرف وصيانة الأبناء وخاصة البنت المحظية بدعاء «ربي يصون». وفي هذا المفهوم علاقة حميمية بين العمارة ككتلة مادية وبين الأحياء الكائنين فيها إلى حد التماهي بين الدار وأهلها حتى أصبح السؤال عن أحوال الدار تعبيرا مجازيا محترما عن أحوال ساكنيها وخاصة الزوجة. هكذا عبرت اللغة التونسية - المعروفة بأنها أقرب اللهجات إلى العربية الفصحى إلى تاريخ وفاة عبد العزيز العروي سنة 1971 - عبرت عن علاقة قيمية معنوية بين العمارة والمجتمع تفوق القيمة المالية للعقار.

فالنشاط التطوعي في إطار جمعية صيانة المدينة عمل ميداني - بطبيعة الحال - ولكنه أيضا - وهذا الأهم - عمل أخلاقي مستوحى من مفهوم الصيانة الواسع ودليل على الحرص على التواصل بين السكان ومساكنهم باعتبارهم الأحفظ لها من الدخلاء، بل على التواصل فيما بينهم، ثم بينهم وبين أجدادهم وأحفادهم، أي بين الأجيال في فضاء الدار الكبيرة وعبر الديار المتجاورة والمتوارثة توارث العقيدة والتقاليد والمكاسب الأخرى. فلنرجع إلى الأصل، والرجوع فضيلة.

كتب أحد عمال الخليفة عمر بن عبد العزيز إليه يستأذنه في بناء مدينة فأجابه : «ابنها بالعدل ونقّ طريقها من الظلم». لم يوصه بأمور البناء بل أوصاه بالقيم لأنها الأضمن لدوام العمران مادام الظلم مؤذنا بخرابه كما قال ابن خلدون والفلاسفة من قبل.

وإذا كان أصل البناء من طين فآدم نفسه صوره الخالق من طين على أحسن صورة وحمّله مسؤولية أبتها السماوات والجبال : أن يعمر الأرض بالبناء المتقن متجنبا الفساد. وبذلك أوصى الرسول (صلى الله عليه وسلم) : «من بنى بنيانا فليتقنه». ومن الإتقان احترام الذوق السليم حتى في الطلاء، فقد نهى الخليفة عمر بن الخطاب رجلا أراد بناء مسجد قائلا : «لا تحمر ولا تصفر». أضف إلى ذلك الحرص على البساطة وتجنب الزخرف والإسراف مخالفة لليهود والنصارى، إذ نهى الإسلام عن التبذير، فالمبذرون إخوان الشياطين. وقد اعتبر الفقهاء بناء البنيان إحياء للأرض يترتب عنه حق التملك والتوريث كشق العيون وحفر الآبار وغرس الأشجار.

ومن هذا المنظور سنبحث في العمارة التقليدية على أنها عمارة قيم تصون المنظومة الأخلاقية والسلوكية متجلية في نماذج من مدينتي باجة (1) وتستور (2).

- العمارة الدفاعية :

إن قصبة باجة وكذلك الأسوار التي كانت محيطة بها - على سبيل المثال - نموذج للعمارة العسكرية والدفاعية التي تصون المدينة - كسائر المدن البيزنطية ثم العربية الإسلامية في الغالب - من أعلى نقطة إشراف، ومن الأطراف، ضد كل عدوان على أهلها وشرفها حتى لا يستبيح حرماتها ظالم مستبد أو معتد أثيم من الداخل أو من الخارج.

وفي تستور مثال مختلف الطريقة ولكنه محقق لنفس الغاية، وهي مرة أخرى صيانة النفوس والمكاسب من شر ثائر أو عدو. ويتمثل في قلاع وأسوار معنوية فاعلة بقوة غيبية هي زوايا الأولياء الصالحين المحيطة بالبلدة في شكل حزامين : الأول على تخومها المتصلة بها، والثاني على مشارفها القريبة. فلا حاجة إلى تشييد قلعة وأسوار مادية مادامت هذه الصيانة مضمونة حسب ما خلدته الرواية الشفوية وقصيدة الشيخ إبراهيم الرياحي (ت1850م) المتعلقة بسيدي علي العريان والقائد ابن صندل الذي حاول بجنده استباحة البلدة واغتصاب بناتها فتصدى له شيخ الأولياء داعيا محرقا (3).

- العمارة الدينية :

اكتسبت العمارة قداستها من علاقتها بالدين منذ نشأتها في شكل أهرامات ومعابد وبيع وأديرة وكنائس ومساجد وجوامع وزوايا. وأقدمها الكعبة المشرفة. قال تعالى : «إن أول بيت وضع للناس للّذي ببكّة مباركا وهدى للعالمين» (آل عمران 96).

وفي هذه الجهة قامت العمارة الدينية متمثلة في الزوايا بالنسبة إلى تستور مقام العمارة العسكرية المتمثلة في القلعة والأسوار المبنية بالنسبة إلى باجة مع التساوي في المرتبة بين سيدي بوتفاحة هنا وسيدي علي العريان هناك (4). فلا غرابة أن يتعهد الأهالي تلك المقامات بالإصلاحات والاحتفالات بالزردة السنوية. ولا غرابة أيضا أن تحظى بعناية الجمعية الخيرية قبل معهد الآثار وقبل جمعية صيانة المدينة. فكل ذلك من مشمولات الخير الذي حث ديننا الحنيف على فعله.

ويتكامل دور الزوايا في الصيانة المادية والمعنوية مع دور المساجد المنتشرة - هي أيضا - في أحياء المدينة لصيانة الدين ووحدة المسلمين واتفاقهم في استقبال القبلة في الصلاة وخاصة أيام الجمعة والعيدين في الجامع الكبير في قلب النسيج العمراني مستجيبين للأذان الصادح من الصومعة - مركز الجذب - متكافلين مصطفين متساوين، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، في مكان أو صعيد واحد تمثيلا للحج وتدريبا عليه (5).

إن انتشار المساجد والزوايا بين المساكن والأسواق

تجسيم لمبدإ شمولية الإسلام ومرآة لفكر المجتمع الإسلامي في تأليفه بين الدنيا والدين.

وفي مثال تستور ارتبط مسجد صاي ومسجد عبد اللطيف بالسوق أي بحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية مثلما ارتبطت العبادة بالنشاط الحيوي، فلا يتميزان بانفصال معماري أو خروج عن النسق العمراني بل يتميزان بارتفاع المئذنتين.

- العمارة المدنية :

أما العمارة المدنية فتنقسم إلى عامة وخاصة. فالعامة كالحمامات لصيانة البدن وحفظ الصحة والنظافة المتصلة بالدنيا والدين، والخاصة كالديار الحامية للسكان وتوابعهم من المتاع والحيوان والمتاجر الحامية لأموالهم والموفرة لأرزاقهم. فعلى هذا النحو تتكامل وظائف العمارة الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن الجمالية. أليست عبارة مسكن مشتقة من سكون النفس على معنى قوله تعالى : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة..» (الروم 21)، «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا» (النحل 80).

ولا يتحقق سكون النفس حتى يتوافق الاسم مع المسمى في عبارة «مسكن» إلا بتوفر شروط الحرمة. وهي حرمة الطريق العام وحرمة الجوار.

- الطريق :

الشوارع والأنهج محمية بمقاييس هندسية وأحكام سلوكية اتفق عليها المهندس والفقيه، وحماها القاضي والمحتسب. منها ألاّ يحتل الطريق أحد، وألاّ يضيقه أحد، وألاّ يلوثه أحد حتى يظل فسيحا صالحا للمارة وللعربات المجرورة ولمنافع المتساكنين فلا يجوز لأحد أن يستغل هواءه فيتعمد بمنتهى الأنانية الزيادة في مساحة السقف على طول الواجهة بحوالي متر، ويقلده جاره قبالته فتصبح المسافة الفاصلة بين المسكنين أقل في مستوى الطابق الأول منها في مستوى الطابق الأرضي بحوالي مترين فتتقلص الحرمة بينهما إذا فتح كل منهما نافذة متسعة على صاحبه. وهذه بدعة لا أصل لها في فقه البناء الإسلامي حيث تكون النوافذ داخلية منفتحة على وسط الدار، ولا تفتح على الشارع إلا للضرورة القصوى فتكون مشروطة بصغر الحجم ويكون ارتفاعها أكثر بكثير من طول القامة الآدمية ضمانا للفصل بين المارة وأهل الدار صورة وصوتا.

وقد لخص الإمام الغزالي آداب الأسواق والطرق في كتاب «إحياء علوم الدين» في فقرة دالة على إلمام الفقه الإسلامي بكل صغيرة وكبيرة فقال : «من منكرات الأسواق وضع الأساطين وبناء الدكاكين متصلة بالأفنية المملوكة وغرس الأشجار وإخراج النوابل والأجنحة ووضع الخشب وأحمال الأطعمة [.....] ومنها سوق الدواب وعُليها الشوك بحيث تخرق الثياب [.....] وكذلك ذبح الجزور على باب القصاب وتلويث الطريق بالدماء [.....] كذلك طرح الكناسات على الطريق [.....] أو رش الماء يخشى منه الزلق [.....]، وكذلك إرسال الماء من الميازيب [.....] فإن ذلك ينجس الثياب لضيق الطريق [.....] فعلى صاحبه على الخصوص كنس الطريق...»

- الجدران :

ومن أسس العمارة الإسلامية احترام الإنسان حتى لا يشعر بالقزامة والحقارة أمام شموخها فيقدسها. ينبغي ألا يتجاوز الارتفاع الحد المعقول لغايات بيئية وصحية واجتماعية ونفسية، فلا يليق بالجار أن يفاخر بالتعالي في البناء بل عليه أن يتواضع في البناء كما في السلوك، فلذلك قلت الطوابق وشعر السكان بالمساواة المقوية للحمتهم.

وإذا كان الغالب على المدينة الإسلامية انخفاض المنازل حتى لا تتجاوز في الجملة طابقا واحدا ولا تحرم الأجوار من حقوقهم في الضوء والشمس

والهواء فإن مداخن الحدادين والخبازين والحمامات ينبغي أن ترفع عالية لتصرف الدخان في الجو العالي حماية للناس من التأذي برائحته وخطره. وكذلك العمل بالنسبة إلى الدباغين والصباغين(6). وكل ما يؤذي يعالج أو يبعد خارج الأسوار، بما يتبع ذلك من ضجيج مزعج وحيوانات وإصطبلات ضارة بحقوق الأجوار، مع مراعاة أصحابها في موارد رزقهم. ولكل مشكل حل كإقامة جدار ثان لعزل الصوت ومنع تسرب الماء وحرارة النار من الحمام المجاور للدار.

وكذلك الشأن بالنسبة إلى الجدران الخارجية والجدران الفاصلة بين الأجوار إذ ينبغي أن تكون عازلة بمتانتها وسماكتها خاصة إذا اتخذت من الطابية. فبقدر الاحترام المتبادل بين الأجوار يكون المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا بلا عدوان سواء بالإطلال أو بالتصنت. ويساهم التسقيف بالقرمود كما في تستور في منع الجار أن يتكشف على جاره خشية السقوط وتكسير القرمود. كما يساهم البعد بين وسط الدار لديهما بقدر عرض البيتين المتلاصقي الظهر في تخفيض الضجيج وتخفيف الإحراج بينهما إذا حدث لدى أحدهما أمر خارق للعادة من الأفراح والأتراح. وهذا يخالف تماما الوضع الحالي خاصة في العمارات الفاضحة للأنفاس والخانقة للحريات والمانعة من الراحة خاصة إذا أقيمت أشغال في إحدى الشقق المبنية بفواصل من الآجر الطنان!

أضف إلى ذلك أن العلاقات بين الأجوار في المنازل القديمة غالبا ما تكون بين أقرباء تقاسموا الإرث - وإن تخاصموا أحيانا - ولكن قرابة الدم تدعمت بالمجاورة، فكل حام لقريبه على معنى الحديث النبوي الشريف الموصي بحسن الجوار إلى حد أربعين جارا من كل جهة مع وصاية خاصة بالجار ذي القربى والجار الجنب على معنى الآية الحاثة على الإحسان (النساء 36) حتى ولو كان من أهل الكتاب.

أورد الغزالي حديثا في كتاب الأربعين في أصول الدين (ص 62) قال (ﷺ) : «أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان أعنته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر جدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات اتبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته. ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإن اشتريت فاكهة فاهدي له، وإن لم تفعل فأدخلها سرا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده... إلخ».

وشتّان بين هذه العلاقة المصانة بالقيم الأخلاقية والروحية وبين العلاقات المتدهورة اليوم بين الأجوار من سكان المنازل والشقق الذين لا يعرفون أن الجار للجار سترة بل يعملون بالمثل الرهيب «اعمل كيما جارك وإلا حول باب دارك».

ولئن كانت الأخوة في الدين تقرب بين أفراد المجتمع فإن الجوار يكمل تلك العلاقة ويضمن الاستقرار لهم من المنزل إلى الحي إلى كامل المدينة. وفي تستور يقوم التجاور على أساس القرابة الدموية شأن المنازل المجاورة لزاوية سيدي نصر القرواشي فجلها تأوي عائلات متصلة النسب بالولي، حاملة لنفس اللقب. كما يقوم التجاور هنا على أساس العقيدة كتجاور اليهود في ناحية من الحارة أو من نهج دار لياهو ميموني أو حتى من الرحيبة إذ كان اليهود منتشرين في أنحاء المدينة وغير ملزمين بحدود الحارة التي تعني الحي في لغتهم ماداموا منتفعين بحقوق الجوار التي منها منع تقارب أبواب المنازل وتقابلها على جانبي النهج حتى لا يطلع الجار على الجار والرجل على المرأة ولا يضيق أحدهما على الآخر. ويتصل بنفس الخلق تحريم التصنت والتطلع من كوة أو سطح، ولذلك بنيت الستائر بل منع المؤذن من الصعود إلى الصومعة. ومثل ذلك تخصيص أول الصفوف في الجامع للرجال وآخرها للنساء.

- قانون الارتفاق :

إن تلاصق المباني كخلايا الجسد المتماسك تقوي لحمة الأخوة والتعاون بين الأجوار حسب رمزية

الجدار المشترك وما يتبع ذلك من تفاصيل قانون الارتفاق فلا مجال لتبذير المساحة في حال إقامة جدارين شخصيين بين جارين. فالجدار المشترك والمشرك للجارين في اعتماده وفي صيانته كل من جهته يحد من تكاليف إقامته وتعهده بالترميم والطلاء والدهن إلى حد النصف. ويحقق غرضا أمنيا هاما أوله راحة وآخره طمأنينة إذ يمنع تسلل السارق وغيره فيعرج لقضاء حاجته على منزل عصري منفتح على حديقة منخفضة الأسوار، فما هي إلا قفزة ثم يفعل ما يشاء حيث كل مستكف بنفسه، يرى الأذى ولا يبالي حتى لا يقال عنه إنه يكلف نفسه ما لا يعنيه. فأين هذا من شيخ الحومة الذي يحمي حرمتها فيسأل الغريب عمن يبحث فيها وإلا صرفه.

هكذا يبدو النسيج العمراني التقليدي بناء مرصوصا يشد بعضه بعضا مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم على معنى الحديث النبوي.

- التخطيط :

وثمة مظهر آخر من الحرمة يتعلق بالمرأة ويتجسد في مخطط المدينة في أحسن مثال. فسوق تستور خاص بالرجال، وهو عبارة عن شارع طويل يقسمها إلى نصفين بالطول في شكل نصف بيضة. ويخترق كلا منهما شارع طويل هو معبر النساء : أحدهما المرير الفوقاني والآخر المرير اللوطاني. وسواء اتجهن إلى الحمام القديم أو إلى الحمام الجديد على طرفي السوق فلسن متحرجات من أحد بما أن ثنيتهن منفصلة عن طريق الرجال. وكذلك شأنهن إذا توجهن إلى الجبانة أو إلى زاوية سيدي علي العريان أو إلى زاوية سيدي عبد القادر أو إلى أي دار فاقتضى الأمر قطع مسافة زائدة وهنّ متحجبات بالسفساري أو بالحايك. إن تميز السوق والمريرين طولا وعرضا على بقية الأنهج المتقاطعة يؤكد حرص فقه التعمير الإسلامي على حق مستعملي الطريق في حرية التنقل دون تضييق أو تعطيل للمارة والعربات والدواب، فلا يسمح بوقوف السيارات أو بإقامة درجات أمام الأبواب أو مصطبات أمام الدكاكين إذا كان في ذلك تضييق على مستعملي الطريق. ومن حرمة الطريق منع الجلوس الذي يضر بالمارة سواء بالنظر أو بالكلام. ومن الحرص على الاحترام المتبادل تخصيص الصباح للنساء والعشية للرجال لزيارة المقبرة، أي عكس توقيت الحمام.

وكذلك تخصيص وسط الطريق للرجال وجانبيه للنساء امتثالا لأمر الرسول (ص) : «استأخرن، فليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق». فكنّ لا يتوسطنه... أما اليوم...!

- التقسيم :

وإذا نظرنا في تقسيم المنزل تمثل لنا مظهر آخر من الحرمة بداية من الباب التقليدي ذي المصراعين والخوخة (أي الباب الصغير) والحلق الثلاث. فالصغرى للصغار والنساء، واليمنى أعلى منها للرجال، واليسرى للغرباء. ولكل حلقة رنين دال عليها وعلى طارقها جنسا وقرابة وسنا أحيانا. فنحن نفرق بين طرق الأطفال المتكرر مرارا كاللعب وبين طرق الرجال القوي مرة أو مرتين. فإذا طرق الباب يخرج الرجل للرجل ويحادثه أمام الدار، في حين تكلم المرأة الطفل والبنت من وراء الباب مكتفية بتشريع صغير، وتستقبل المرأة زائرتها في السقيفة سواء قصدتها لبيع وشراء أو لاستدعاء أو لأمر ما. وهكذا تلعب السقيفة دور الوساطة بين الفضاء الخاص والفضاء العام، فهي أقل حرمة من وسط الدار وأكثر حرمة من الشارع، علما بأن حرمة الشارع هي أيضا متدرجة بالتناقص من الزنقة أو الزقاق إلى النهج إلى الشارع، ومن الحومة إلى بطحاء السوق العامة. فكلما ازدادت عمومية المكان تناقصت حرمته هكذا طردا وعكسا.

كما ينطبق مبدأ الحرمة على سكنى البيوت داخل

المنزل الواحد، فأفضلها للأب باعتباره القوام على العائلة والمسؤول عن حقوق أفرادها بالعدل. وأقل منه درجة من جميع النواحي - كالاتجاه والسعة والزخرفة- للولد، يتزوج فيه. أما وسط الدار فللجميع تجسيما لمفهوم الجماعة شأن الاجتماع للصلاة أو للطعام أو لقراءة الفاتحة أو للسهر قياسا مصغرا على البطحاء العامة دون تمييز طبقي.

وهكذا يضمن المنزل العتيق التواصل بين الأجيال بما يحفظ التقاليد والقيم والتراث المادي واللامادي. في هذه البيئة الاجتماعية والنفسية، تربينا مستفيدين من تجارب الجد والجدة والعم والعمة... وللشيوخ والعجائز دور هام، فلا يستغنى عنهم في مأوى العجز!!!

- المواد :

إن البناء التقليدي بالمواد المحلية من تراب وحجر وجبس وياجور وقرمود وعود وخشب... أقل كلفة من المواد المستوردة وأكثر توافقا مع قيمة الاقتصاد والتدبير وحسن التصرف صيانة لرأس المال من عاقبة التبذير. فإن كان لا بد من مواد أخرى ثمينة، غير متوفرة على عين المكان، وأكثر كلفة، فإن موضعها داخل المنزل حتى لا يظهر على الواجهة ما يدعو إلى التفاخر البغيض، ويثير الأحقاد والأطماع. بهذا التواضع الخارجي تبدو المباني عاكسة لسلوك المسلم المقدر لقيم الإسلام، من تواضع دون رياء، وانسجام مع الجماعة دون تعال، وبساطة في الحياة دون تعقيد.

تلك المواد المحلية هي التي ترافقه في عمارة المقابر مذكرة الأحياء بأن أبناء آدم من تراب، وأن الدار الباقية أفضل من الدار الدنيا بما يدخر لها من العمل الصالح، لا من الرخام ونقش الحديدة. وإنما يتنافس المتنافسون في التقوى التي في القلوب، لا في المظاهر المادية.

وتعكس جمالية العمارة متمثلة في التناظر تخطيطا وفي الزخرفة تشكيلا وتلوينا قيمة الجمال في التصور الإسلامي، ولكنه جمال مقصور على داخل المباني تلافيا للرياء. وكذلك جمال النفس والخلق فهو أولى من جمال الصورة والمظهر.

خاتمة :

إن أزمة القيم المميزة لعصرنا وذوقنا نتيجة تفريط في الهوية وسوء فهم للحداثة وانبهار بالعولمة قد أصابت بسهامها المسمومة كل شيء، بما في ذلك تقاليدنا المعمارية التي لم يحالفنا النجاح دوما في تطويرها بصفة معقولة وتجديدها وفق سنة الحياة المتجددة، لأننا نبني ونبني ونشيد ناطحات السحاب المكسوة بالزجاج، دون اعتبار المناخ وغيره من الأصول. فهذا حي شعبي، وذاك حي راق، وهذا بناء فوضوي، وذاك توسع على حساب الأراضي الزراعية، وهذا تجمع سكني معرض للفيضان، وذاك بناء متسرع مهدد بالانهيار، وهذه شقة ضيقة فيها رطوبة ضارة... تكاليف ومشاكل... مبانينا اليوم لا شرقية ولا غربية، مختلفة الأشكال والألوان، بلا طابع ولا تناسق... تدل على أننا وقد ترفهت أحوالنا بالسياحة والنفط والمال أصبحنا نستورد كل شيء، بما في ذلك الأذواق الأجنبية، بعد أن فرطت مدننا في طابعها حتى تقلصت صيانة المدينة في حدود معالمها التي حجبتها العمارات الشاهقة بعد أن تمزق النسيج العمراني فتمزق بالتالي النسيج الاجتماعي.

ما أحوجنا إلى تنشيط التفكير والاستشارة والاستشراف في موضوع العمارة والتعمير بمشاركة أهل الاختصاص والمثقفين لوضع نظرية معمارية مستقلة، لا مستوردة (7)، أصيلة ومتفتحة إلى الحد المعقول الذي يصون الشخصية التونسية باعتبارها أمّ القيم تلبية لحاجات جديدة لمجتمع متطور، وتواصلا مع تراثنا المادي والفكري في هذا

الموضوع الذي ساهم فيه الفقهاء مع المهندسين، والحرفيون والفنانون مع البنائين، وحتى الأدباء والشعراء، تمجيدا لروعة العمائر العربية الإسلامية وما تأثر بها من المعالم الخالدة، من تاج محل إلى جامع قرطبة وقصر الحمراء، وإن بني عدد منها على الظلم والجور.

ومسك الختام قول تجاوز معنى الوقوف على الأطلال فأثبته أسامة بن مرشد في كتاب المنازل والديار: [الطويل]

إذا أنت لم ترع العهود لمنزل
فلست براع عهود أهل المنازل

ولا سيما دار ولدت بربعها
وكنت بها جذلان في خير آهل

الهوامش والإحالات

*) محاضرة بمقر جمعية صيانة المدينة بباجة في 12/ 5/ 2007 في إطار شهر التراث حول «التراث المعماري التقليدي التونسي».

1) انظر عنها: الحمروني (أ): بلاد باجة / مدائن ومعالم وأعلام. - دار سحر، تونس 2007.

2) انظر عنها: الحمروني (أ): تستور / وثائق ودراسات. - ميدياكوم، تونس 1999.

SAADAOUI (Ahmed) : Testour du XVIIe au XIXe si.- Fac. des Lettres, La Manouba, ANEP, Tunis 1996.

3) الحمروني (أ): تستور/ وثائق ودراسات... (الخلاف بين علي العريان والقائد ابن صندل، ص 70-71).

4) الحمروني (أ): الشمال الغربي التونسي / فصول ومراجع. - دار سحر، تونس 2006 (مقارنة منقبية، ص 200- 205).

5) لذلك لا تجوز خطبتان في بلدة واحدة، اللهم أن تكونا على مذهبين وفي وقتين كأن تكون الأولى حنفية والثانية مالكية - حسب مثال تونس منذ العهد التركي - أو تكون المسافة بين الجامعين طويلة.

6) في موضوع العمارة والبيئة انظر: الحمروني: التراث المعماري التقليدي بباجة من منظور بيئي.

7) السبيعي (عبيد): نحو تأصيل للعمارة الإسلامية. - أطروحة دكتوراه المرحلة الثالثة بالمعهد التكنولوجي للهندسة المعمارية والتعمير بتونس 1982 (مرقونة). انظر خاصة المقدمة، ومشروع الأطروحة.

الجامع الأعظم بالقيروان : معطيات معمارية وتاريخية

سلوى درغـوث

لا ينفصل تاريخ جامع القيروان عن السّياق السياسيّ والتاريخي الذي تمتاز به هذه المدينة المؤسسة للإسلام بالغرب الإسلامي. فهو الشاهد الذي يعرب عن ذاكرتها ويفصح عن نموذج معماريّ وَسَمَ الفنّ بإفريقية والمغرب لزمن طويل.

المراحل الإنشائية للمعلم :

لا نعرف شيئا يذكر عن فنّ العمارة الدينيّة المعتمد في بناء هذا الجامع قبل العهد الأغلبيّ باستثناء عنصرين محدّدين لتطوّره. وهما المحراب الأصليّ الذي يبدو قائما بعد وراء المحراب الحالي، والمئذنة التي أمر الخليفة الأموي ببنائها والمرجّح أنّها مستوحاة من المنارات القديمة الناهضة على سواحل إفريقية.

ويعتبر هذا الأثر أوّل صرح للمعمار الدّينيّ في الغرب الإسلاميّ. ويرتبط دوره بالمدينة وبمؤسّسه عقبة بن نافع. وتروي الأساطير أنّ اللّه قد ألهم عقبة في اختيار موقع المدينة وتحديد قبلة مسجدها. ويفيدنا عبيد اللّه البكري أنّ هذا المحراب احتفظ به بعد إعادة بناء المسجد في عهد حسّان بن نعمان سنة 695. وتجدر الإشارة إلى أنّ مدينة القيروان تمتاز بتأسيس دار للصناعة حذو الجامع كما بيّنته الحفريات التي قام بها الأستاذ إبراهيم شبوح معتمدا في ذلك على ما أوردته المصادر التاريخية في هذا الشأن. وأمّا عن العنصر الرّئيسي الثاني المحدّد لتخطيط المعلم فيكمن في الصّومعة المربعة الشكل المركّبة من ثلاثة طوابق. ويفيدنا البكري أنّ هذا الإنجاز يعود إلى عهد الوالي بشر بن صفوان (721-727) بأمر من الخليفة هشام. ومن الثّابت أنّ اقتناء حديقة بأمر من الخليفة في النصف الأوّل من القرن الثامن هو الذي سمح بتوسيع هذا الجامع وإقامة هذه الصومعة التي حلّت محلّ صومعة سابقة لها.

ولا شك في أنّ الجزء الأعلى قد أعيد تشييده حين بنى الحفصيّون المئذنة من جديد سنة 1284. ويشهد على ذلك التماثل الواضح بين القبّة المتوجة للصومعة وقبّة باب للاّ ريحانة بالجامع. ويظهر هذا التماثل بصفة جليّة في صيغة إنجاز الأركان الحاملة لزواياها. ويستفاد من المعالم الدينيّة التي وقع تشييدها في فترات لاحقة بأنّ هذا النمط القيرواني سيزدهر في حوض

الغرب الإسلامي ويولّد نموذجين من المآذن المربّعة الشكل : النموذج الاندلسي والنموذج الافريقيّ.

تخطيط بيب الصلاة :

لقاعة الصّلاة وصحن المسجد تاريخ أكثر تعقيدا. وقد أثار لدى المختصّين فرضيات عديدة ومتعارضة. فعلى قدر ما يتجلّى لنا تاريخ المدينة واضحا يبدو تاريخ المسجد معقّدا نسبيا، ولا زلنا في حاجة إلى التعمّق أكثر في دراسة عمارته التي لم تكشف بعدٌ كلّ أسرارها خاصّة فيما يتعلّق بالأشغال المتتالية التي أدخلت عليه خلال القرن التّاسع.

لقد تعدّدت الدراسات بهدف تحديد الحقبات التاريخيّة للجامع في الفترات اللاحقة منذ الحفصيّين إلى منتصف القرن العشرين وما سبقها من ترميمات في عهد الحماية الفرنسيّة وأشغال الصيانة والتزويق التي اضطلع بها مراد باي سنة 1618 والتي بقيت منها بعض الآثار المتميّزة. وتوشّح هذه المآثر الصرح الأغلبي للمسجد الذي تسنده المصادر إلى ثلاثة أمراء : زيادة الله الأوّل (سنة221/ 836) وأبو إبراهيم أحمد (سنة 248/ 862) وإبراهيم الثاني حوالي (سنة 261/ 875). ويمكن أن نتبيّن لأوّل وهلة أنّ للمعلم شكلا مستطيلا منحرف الأبعاد (65.30 م إلى 28، 70م على 213 م). وهو بذلك يختلف عن الشكل المتّبع في جامع سوسة. ويبدو وجه الشبه قائما في فترات لاحقة ونذكر في هذا الصدد الجامع الذي بناه المتوكل سنة 245/ 859 بأبو دولاف. ويمثل هذا الجامع العباسي في تصميمه- كما شأن جامع عقبة- نموذجا للمخطط في شكل الحرف اللاتينيّ «التاء» (T). فقد اتّخذت فيه قاعة الصّلاة، هو الآخر، هذا الشكل وهو يشتمل مثله على سبعة عشر رواقا داخليا متعامدة مع حائط القبلة. بيد أنّ جامع القيروان يمتاز بوجود قبّة عند ملتقى الرّواق المحوريّ الرئيسيّ الموسّع والرواق المتقاطع معه الواقع أمام المحراب. ومن شأن هذه القبّة أن تبرز توّطد هذا الرّباط المركزي في قاعة الصلاة، خاصّة وهي ترتفع على مستوى سطح المسجد وتنهض على قاعدة خاصّة بها.

وتشتمل قاعة الصلاة على ثمانية أروقة موازية لحائط المحراب وهو نفس ما نجده في جامع أبو دولاف ويتفق الباحثون على أنّ قاعة الصلاة بجامع القيروان هي التي أدخلت بالغرب الإسلامي هذا الشكل المتّخذ لهيئة الحرف اللاتينيّ « التاء» (T). المبرز للرواق المحاذي لجدار القبلة وللآخر الممتد في واجهة المحراب. وأمّا الأروقة السّبعة عشر المتعامدة مع حائط القبلة فسنجد مثيلا لتخطيطها في بعض المعالم المستجدة مثل الكتوبية الموحدية بمراكش.

وبقاعة الصلاة ثلاثة أروقة تتقاطع مع تلك المتعامدة مع حائط القبلة. وهي تقع في ما بين الرّواق السّابع والرّواق الثامن مخططة في مجموعتين. وإنّ في هذا التصميم ما يغري بالقول بأنّ الأغالبة، سواء في القيروان أو في سوسة، أقاموا بيت صلاة على شكل T يتركّب من ثلاثة أروقة فقط في حين أنّنا لا نلاحظ أي انقطاع في البناء وفي ارتفاعاته : إذ نرى نفس الأقواس ونفس التّيجان القديمة المستعملة من جديد ونفس البناية. وبالتالي يمكن إسناد هذه إلى زيادة الله واعتبار إنشائها سنة 836.

ويجد المتفحص للمجاز المؤدي إلى حائط القبلة ما يسند الفرضية السابقة. وتطالعنا الرسوم والنقائش لهذا الجزء من بيت الصلاة، من خلال أشكالها وتقنياتها البسيطة، أنّها لا تتطابق مع الأنماط المتطورة للجامع والقريبة الصلة بالنقوش التي تزين واجهة مسجد ابن خيرون المجاور والذي أسس سنة 252/ 866.

ويمثل إنشاء رواق مزدوج بصحن جامع القيروان مرحلة ثانية في إعادة بنائه من قبل الأغالبة. إذ نرجّح أن هذا المعلم لم يكن يشتمل، سنة 836، على أي أروقة، على الأقل من ناحية قاعة الصلاة. ويثير تخطيط الجامع تساؤلا حول تأريخ قبّة البهو التي ينسبها البكري إلى الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني (875-902). وتبيّن الأشغال التي

أدخلت على المعلم من عهد الحفصيين إلى مطلع القرن العشرين أنّ شكل القبّة قد تغيّر على أنّ الدور الموكول لها وتموقعها في المبنى يدلان على تطوّر معماري شمل بيوت الصلاة الأغلبية خلال القرن العاشر .

تأثيرات شرقية للمحراب الأغلبي ؟

إنّ الاهتمام الذي يحظى به محراب جامع القيروان قد أوجبه مقامه من حيث إرتقاؤه معماريًا وزخرفيًا بالفنّ الأغلبي إلى أوج امتيازه. وقد وقع التأكيد كثيرا على الجذور الشرقية لعناصر زينته، وخاصّة المربعات ذات البريق المعدني التي توّشح واجهته وتمتد إلى حنيته، وكذلك الأمر بالنسبة للقطع الرخامية المنقوشة المغطية لأجزائه السفلية. وتتميّز هذه المكونات الزخرفية بتأثيرات شرقية واضحة. وقد يبدو أنّها أتت من الشرق كما أفاد به بعضهم مثل ابن ناجي في كتابه معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، حيث يقول رواية عن أبي بكر التجيبي : إنّ الأمير الأغلبي ابراهيم أحمد «عمل المحراب. . . وجاء به مفصلاً رخاما من العراق عمله في جامع القيروان وجعل تلك القراميد في وجه المحراب وعمل له رجل بغدادي قراميد زادها إليه».

ويحتضن جامع الزيتونة بتونس قطعا منقوشة متطابقة مع اللوحات المنحوتة الآنفة الذكر، ولعلّها تنتمي للمجموعة نفسها التي أمر بها نفس الأمير الأغلبي الذي أعاد بناء جامع الزيتونة المعمور. وتحفزنا النقيشة الأغلبية المرتسمة على محراب القيروان والمنسجمة ضمن لوحاته الرخامية أنّ هذه الأخيرة نحتت بالقيروان، واستوحت أشكالها من تأثيرات شرقية سادت الفنّ الأغلبي آنذاك.

لقد حافظ جامع القيروان على أبرز ما وسم الفن الأغلبي، وما من شك أنّ الدراسات وعمليّات التنقيب التي مازال المعلم في حاجة لها ستؤكد هذا الانتماء وتبيّن أنّ ما طرأ عليه من أشغال وتحسينات أثرت الرصيد المميّز لخصائص العمارة الدينيّة ولمقوماتها في العقود الأولى للهجرة.

مكتبة القيروان العتيقة وسبل صيانتها

مراد الزماح

القيروان وإسهاماتها الحضارية :

«القيروان أمّ الأمصار، وعاصمة أقطار، أعظم مدن الغرب قطرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا، وأتقنها بناء. . .وأربحها تجارة. . .»، هكذا أثنى الإدريسي في «نزهة المشتاق» على القيروان، وهي أعظم من ذلك في إشعاع حضارتها، وانتشار معارفها، وعلومها، وإسهام رجالاتها، وفقهائها. فقد استطاعت القيروان أن تبرز طوال أربعة قرون متتالية مدرسة متعددة الخصائص، أبقت على ذكرها خالدا، وحافظت على مجدها شامخا. وكانت المدينة آنذاك سوقا للمعرفة وقطبا ثقافيا بارزا. وانتصبت بها، منذ أواخر القرن الثالث الهجري، بيت للحكمة محاكيا لمثيلها ببغداد في التبحر في مجالات العلوم الطبية والفلكية والهندسية والترجمة، فركزت مقومات النهضة الفكرية والعلمية بالبلاد. وقامت مدرسة طبية متميزة، ترعرعت على يدي إسحاق بن عمران، وبلغت نضجها على يدي أحمد بن الجزار، الذي ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية، وقد نقل قسطنطين الإفريقي (المتوفى سنة 1087م) العديد منها إلى مدرسة سالرنو الطبية، فترجمها وأعاد صياغتها، فكانت أعماله بداية لأول حركات نقل العلوم العربية إلى أوروبا. واشتهرت القيروان إلى جانب ذلك بأدبائها وشعرائها ونقادها، وتميز من الشعراء الحصري وابن شرف.

وواكب ذلك حركة نقدية نشيطة، فاشتهر النهشلي بممتعه، وابن رشيق بعمدته الذي يقول ابن خلودون عنه: «هو الكتاب الذي انفرد في صناعة الشعر وأعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله».

ولعل من أبرز إسهامات القيروان في الحضارة العربية المغربية دورها في ترسيخ العقيدة الإسلامية بالمغرب الإسلامي، وكان السبق في ذلك للفقهاء العشرة الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز لتفقيه أبناء إفريقية، ومساعدتهم على فهم قواعد دينهم، فتعددت المكاتب والحلق، وانتشرت المعارف الدينية، حتّى إذا آل الأمر إلى الأغالبة ظهرت طبقة يمتاز رجالها بالعكوف على أقوال الأئمة المجتهدين في التشريع، يجمعون شتاتها، ويؤلفون بين موضوعاتها، ويبوبون مسائل الفقه وينسقون أحكامها.

ثم انبرت القيروان - بعد ما أنضجته الاختلافات المذهبية من مناظرات وتيارات دينية - إلى المالكية، وإن كان هذا المذهب قد نشأ بالمدينة فقد كان للقيروانيين شرف - تدوينه على يد أسد بن الفرات، ثم سحنون بن سعيد (234 هـ) المؤسس الأول لمدرسة الفقه المالكي بأفريقية، وأبرز علم في المعرفة الدينية بالمغرب الإسلامي قاطبة. وقد واصل تلاميذه إنضاج هذا المذهب بالتبحر في أبوابه، وتفسير أقوال من تقدم وإيضاح آرائهم، ومحاولة تعميم مشاربه، ليكون مستوفيا لحاجة المجتمع، ومعبرا عن مآربه، فكانت مولفات محمد بن سحنون في «البيوع»

ويحيى بن عمر (289 هـ) في «أحكام السوق» ومحمد بن عبدوس (260 هـ) في «تفاسيره».

ورغم الاضطهاد الذي تعرض له أعلام المالكية على يد الشيعة فإنّهم استطاعوا ترسيخ المجتمع الإفريقي خلال العهد الفاطمي في انتماءاته السنيّة واستيفاء مقومات المذهب وتنويع فروعه. ومن أبرز شخصيات هذا الطور عبد الله بن أبي زيد القيرواني (386 هـ) صاحب «الرسالة» و«النوادر والزيادات» على «المدونة» وأبو الحسن القابسي (403 هـ) وأبو عمران الفاسي.

وبذلك يعود الفضل إلى القيروان في إثراء الفكر المالكي، ونشره في كامل بلاد المغرب، فكان أحد مقومات وحدة الديار والمصير، وحامياً للمجتمع المغربي من آفات التناحر المذهبي.

مكتبة القيروان العتيقة ومآثرها :

لقد حافظت القيروان على بعض بقايا هذا التراث الفكري، وعلى ذكر علمائها، من خلال الدفاتر والأوراق التي كتبوها بأيديهم، أو كلفوا غيرهم بكتابتها، والتي كانت جزءا من مستندات التعليم بالقيروان، وقد حفظت هذه الدفاتر والأوراق في الجامع الكبير، ومازالت أجزاء كاملة منها موجودة إلى الآن. ودونت هذه الوثائق في الفترة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلادي، وهي تشتمل على معلومات حضارية فريدة، ترتبط خاصة بفنون الكتاب والتسفير والقراءات والأسانيد والمقابلات.

وتتميز مكتبة القيروان العتيقة بأن الجزء الأوفر منها قد كتب على الرق، وتعتبر مجموعة الرقوق القيروانية أشهر وأكبر المجموعات المتبقية في العالم العربي الإسلامي، وهي تتكون من ثلاثة أقسام متكاملة، هي: قسم الوثائق والرسوم، وقسم الكتب والأصول الفقهية، التي يرجع تاريخ أقدمها إلى سنة 231 هـ، ثم قسم المصاحف الباذخة والأنيقة المكتوبة على الرق، والتي يفوق عدد أوراقها التسع والثلاثين ألف ورقة.

وإنّه من حسن الطالع أن ظلت مخطوطات القيروان محفوظة إلى الآن، في حين أن كل المكتبات القديمة التي تحدثت المصادر عنها حرقت أو نهبت، أو تفرقت كتبها وضاعت، وتمثل مخطوطات مكتبة القيروان مادة قيمة وفريدة، تيسّر البحث في مجالات هامة من مجالات الحياة الفكرية والدينية، لما كانت القيروان عاصمة المغرب الإسلامي. وعلى غرار ما كان متبعا في المشرق، وقفت مخطوطات القيروان على طلبة العلم، ابتغاء وجه الله ورضوانه، كما هو مدون على العديد منها، ويقع التنصيص كذلك على اسم الواهب، وتاريخ تحبيسه، وربما ظروفه وأسبابه.

وتسمح بعض الكراريس المحفوظة بتتبع تاريخ تداول الكتاب، وسلسلة الأسانيد في قراءته وسماعه وتعليمه، وكيف قوبل بالأصل، والحلقات التي قرئ فيها، والعلماء الذين شهدوا ذلك.

وتزخر مكتبة القيروان العتيقة بالمعلومات المتعلقة ببعض الكتب في الحديث والفقه المالكي، وكيف أمكن تداولها بافريقية. وهي تشتمل على أسفار علمية من أمهات كتب المذهب، كـ «المدونة» و«المختلطة» و«الواضحة» و«الموازية» و«العتبية». وفيها قطع من «جامع» عبد الله بن وهب، ومن «الموطأ»، رواية سحنون عن ابن القاسم، وقطعة من «الموطأ»، رواية علي بن زياد التونسي، وأجزاء عديدة من «تفسير» يحيى بن سلاّم ومن كتاب «التصاريف» ليحيى الحفيد، وقطع من «النوادر والزيادات»، ومختصر «المدونة» لعبد الله بن أبي زيد القيرواني، و«كراس في الرد على الشافعي» لابن اللباد (ت: 333 هـ) و«أدب القاضي والقضاة» للهيثم بن سليمان، وكتاب «الأمالي» لابن الحداد، وكتاب «أحكام القرآن» للجهضمي (ت : 280 هـ) إلى جانب سفرين من «الأسدية».

ويشتمل القسم الثاني على عقود تتعلق بالمعاملات بين الناس، أو بعض التحابيس أو الأصدقة، وهي تزخر بالمعلومات الحضارية حول المجتمع القيرواني من أواسط القرن الخامس إلى أوائل القرن الثالث عشر الهجري.

وكثيرا ما كان العلماء في ذلك الوقت ينسخون بأيديهم النصوص الهامة، وهو ما يمكن من تتبع الخطوط والعلم بأصحابها. وقد ثبت أنّ العديد من الكتب يحتوي على خط المؤرخ وكاتب السيّر المعروف أبي العرب التميمي. كما تميز من بين الخطوط خط الحارث بن مروان، الذي عاش في أوائل القرن الخامس الهجري.

إلا أن ما يميّز مكتبة القيروان العتيقة هو المصاحف المكتوبة على الرق، وهي مجموعة فريدة من نوعها، يتراوح عمرها بين القرنين الثالث والسابع الهجريين.

ويرجع أقدم مصحف مؤرخ إلى سنة 295 هـ/ 908 م ويعرف بمصحف «فضل»، إلا أنّنا نكاد نوقن أن هنالك مصاحف أقدم منه، يعود أحدها إلى أواخر القرن الثاني للهجرة، وهو مكتوب بخط حجازي.

ومجموعة رقوق القيروان هي بقايا مفككة ومجزأة لمصاحف كانت محبسة على جامع القيروان وبعض مساجدها، ويقدر عدد الباقي منها بمائة مثال.

ولعل أهم بقايا هذه المجموعة وأكثرها دلالة على الصناعات الفنية وعلاقتها بالموضع، هو ذلك المصحف الكبير الحجم الذي أعد باسم سيدة رسمية في البلاط الصنهاجي ذات أصول مسيحية، هي فاطمة، حاضنة الأمير أبي مناد باديس بن المنصور، وأشرفت على تمويله ومتابعة العمل فيه كاتبتها درة، وتولى صنتعنه أحمد بن علي الوراق. وإذا كنا نعرف أن صناعة الكتاب تقوم على جملة من الاختصاصات والاختصاصيين، كالمذهّب، والمزوق، والخطاط، والمجلد، الذي يعمل كل منهم في حدود معرفته، ويستكمل الثاني مهمته في الكتاب نفسه، فإن هذا الوراق القيرواني الذي أنجز عمله الكبير سنة 410 هـ (1020 م) قد شكل النص، ورسمه، وذهبه، وجلده، وهو عمل جد مهم على المستوى الفني، خاصة وأنه كتب هذا العمل الضخم بخط مولد من الخط الكوفي، عرف اسمه لأول مرة محددا ضمن السجل القيم الذي أشرنا إليه، وخاصية هذا الخط أنه مكتوب بقلم عريض القطع، يوضع في هيئة ثابتة، بحيث تتحرك اليد لترسم هيئة الحرف بدون أن تتغير زاوية القلم، وبذلك تصبح أجزاء الحرف الواقعة فوق السطر غليظة هندسية الهيئة وما تحته دقيقا، بدون أن يخل ذلك بالجمالية والتناسب.

ومن مآثر مكتبة القيروان العتيقة المصحف المكتوب على الرق الأزرق بخط كوفي مذهب وجميل. وتبين الأبحاث الأولية أن الكتابة المذهبية قد أثبتت بفضل أبيض البيض الذي استعمل كمادة ملصقة، ثم أحيطت جوانب الحروف باللون البني لإبرازها وتحديدها. وقد صبغ المصحف بالنيل المستجلب من التجارة الهندية التي ازدهرت بداية من القرن الرابع هجري خاصة. والمصحف الأزرق بالقيروان هو مثال فريد من نوعه في العالم، ومختلف الأوراق موزعة في متاحف الأصقاع وتنسب إما خطأ أو افتراء لمشهد أو غيرها من البلدان، وتعود جميعها إلى أصل واحد كما نتبين ذلك من خلال مقاساتها وأبعادها وخطوطها وزخرفها ومساطرها وموادها.

وحافظت مكتبة القيروان العتيقة كذلك على مصحف مكتوب بماء الذهب، مسطرته 5 ومقاساته 21 × 15 وهو يتميز بخطه الكوفي، ومنمنماته الرقيقة والمزخرفة بأشكال هندسية بديعة.

كما توجد من بين هذه المجموعة مصاحف أميرية متميزة، قد حبستها العائلة الصنهاجية على جامع القيروان، وهي مصحف المعز بن باديس، ضمنه موقفه من الفاطميين بعد إعلان العصيان ومصحف أم ملال عمّة المعز، ومصحف أم العلوّ أخته، ومصحف حاضنة أبي مناد باديس المذكور.

إن مجموعة المصاحف القيروانية تسمح بتتبع فنون الكتابة والصناعة والتذهيب والتجليد على خمسة قرون، وهي تمكن من التعرف على تطور الكتابة بالخط الكوفي، إلى جانب القراءات التي كانت سائدة بإفريقية خلال تلك الحقبة الزمنية.

وتحتوي هذه المكتبة كذلك على مجموعة من المخطوطات المتأخرة نسبيا، والتي كتبت فيما بين القرن

الخامس عشر وأواخر القرن التاسع عشر الميلاديين، وهي تشتمل خاصة على مصاحف مكتوبة على الورق، وكتب مخطوطة في الفقه والأصول والنحو والبلاغة، وقد كان أغلبها محبسا على جامع القيروان، والمدرسة الصحابية، والمدرسة الغريانية، وتبرعت بالجزء الأوفر منها بعض العائلات القيراونية العلمية كآل صدام وآل عظوم. ويبلغ مجموعها نحو ألفي مخطوط.

إن تكامل مجموعة مكتبات القيروان يجعلنا مؤهلين دون غيرنا لإقامة متحف للكتاب العربي الإسلامي حيث أننا نملك نماذج تمتد على ألف سنة.

تأريخ مكتبة القيروان العتيقة :

يظل تأريخ نشأة مكتبة الجامع الأعظم بالقيروان غير محدد بالنسبة إلينا لانعدام الوثائق والنصوص المبيّنة لذلك. ولا يمكن اعتماد وجود سماع على أحد أسفارها المؤرخ من سنة 231 هـ لضبط هذا الأمر. ولا يستبعد أن تواكب مكتبة الجامع الأعظم بالقيروان تطور المدينة ونمو الحركة العلمية بها، وربما رافق ذلك أواخر القرن الثاني للهجرة، لتنجو مكتبة القيروان العتيقة بأعجوبة من غوائل الزمن، خاصة بعد الزحفة الهلالية، التي خربت القيروان، فهجرها أهلها، واندرس رسم عمرانها، وبقيت هذه المجموعة كشاهد على مجدها التليد، وازدهار العلوم فيها. وظل معظمها محفوظا بجامع القيروان، وربما أضيفت له بعض الكتب والمصاحف التي كانت توجد في مساجد بأطراف المدينة قد خرجت بعد نكبتها.

وكانت هذه المكتبة تعرف في السجلات القديمة منذ سبعة قرون بـ «بيت الكتب» الذي بمقصورة الجامع. وقد دخل هذا البيت الرحالة العبدري في سنة 688 هـ فذكرها بقوله: «ودخلنا به (أي الجامع) بيت الكتب فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقي ومنها ما كتب كله بالذهب ومنها كتب محبسة قديمة التاريخ من عهد سحنون وقبله منها موطأ ابن القاسم وغيره، ورأيت بها مصحفا كاملا مضمونا بين لوحين مجلدين غير منقوط ولا مشكول وخطه مشرقي بيّن جدا مليح طوله شبران ونصف في عرض شبر ونصف، وذكروا أنّه الذي بعثه عثمان رضي الله عنه إلى المغرب وأنه بخط عبد الله بن عمر رضي الله عنهما». وقد سمحت الأقدار ببقاء كشف في إحصاء كتب ومصاحف هذه المكتبة. وهذا الكشف مكتوب على الرق بالخط القيرواني مؤرخ بسنة 693 هـ في إحدى عشرة صفحة، منها الصفحتان الثانية والثالثة من ضمن ما ضاع وتلف من المكتبة في العصور المتأخرة.

وقد تولى الأستاذ ابراهيم شبوح نشره محققا، ويشتمل على تفصيل البيانات عن كل مجموعة، وأسماء خطوطها، ووصف ألوانها، وجلودها، والربعات الخشبية المبطنة بالجلد والحرير والتي كانت تحفظ فيها (1).

ومما عثر عليه في أوراق المكتبة وثيقة ثانية، في ورقة واحدة مكتوبة بخط مغربي، ولكن لا تزال فيها بقايا من الخط القيرواني المشرقي، في إحصاء ما في المكتبة من المصاحف، وهذه الوثيقة مؤرخة في سنة 809 هـ، وبمقارنة ما اشتملت عليه هذه الوثيقة بما في الوثيقة الأولى المؤرخة في سنة 693 هـ، ظهر أن ما ضاع وتلف من المصاحف شيء كثير. وفي سنة 1896 م زار محمد بيرم بك القيروان، ودخل جامعها، وعاين بقايا كتب هذه المكتبة العتيقة، فوصف (في محاضرة له ألقاها في الجمعية الجغرافية المصرية ونشرها (المقتطف) بعدد شهر أفريل 1897) مصاحفها، وأسفارا عاينها مربوطة بالأمراس، أوراقها متداخلة من هنا وهناك، وعليها من نسيج العنكبوت، والغبار ما شاء الله، وكيف حُلّت له تلك الأمراس، فرأى أوراقا من المصاحف مدهشة، وأنه لم يسبق له أن رأى لها نظيرا في مكتبات ومتاحف العالم الإسلامي، وعبر عن أسفه العظيم، وحزنه العميق، لما شاهده من الإهمال الذي عليه تلك الآثار النفسية الغالية، وأفاد أن والده، محمد بيرم الخامس، كان حدثه عنها، وأنه كان عازما على تنظيمها وحفظها (2).

وكان من نتائج ذلك أن اهتمت سلطة الحماية بمكتبة القيروان العتيقة، حيث قام الكاتب العام للحكومة، M.Roy بتأليف لجنة لتنظيمها، وجمع الأوراق إلى

نظائرها، وصنعت لها محافظ بحجم كل مصحف طولا وعرضا وكمًا.

واتخذت إدارة الأوقاف في المدة اللاحقة عددا من الإجراءات لتحسين ظروف حفظ المخطوطات وترتيبها ترتيبا جديدا، وتولى الشيخ محمد طراد إنجاز فهرس أوّليّ لها سنة 1933 م. وقد ضاع أصل هذا الفهرس، وبقيت صورة منه محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة، أحضر الأستاذ ابراهيم شبوح صورة عنه، سلمها لأبنائه.

وقد عهدت جمعية الأوقاف الحافظة للمجموعة، بأمانتها إلى الشيخ محمود بن جريو، وبعد وفاته، تسلمها السيد عثمان جراد.

وفي حوالي سنة 1949 م خصصت جمعية الأوقاف اعتمادا لتصوير بعض المحتويات من الكتب والوثائق، وذلك بإشراف المرحوم محمد البهلي النيال ومباشرة المصور المرحوم مصطفى بوشوشة.

وبعد الاستقلال وحل الأحباس، بُعث معهد الآثار برئاسة المرحوم حسن ح. عبد الوهاب، فألحق مجموعة جامع القيروان ومحافظها السيد عثمان جراد، بالمعهد، وبدأ في تكوين المتاحف الصغيرة الإسلامية، فأخرج من القيروان كميات من الأوراق الجميلة لتكوين متحف دار حسين، والقيروان، وصفاقس، والمنستير، وإثراء متحف باردو، بدون أن يكون هناك ضبط لما خرج وما يوجد.

وفي سبتمبر 1967 م صدر الأمر عدد 296 الخاص بتجميع المخطوطات بدار الكتب بتونس، وقد فسر خطأ بحيث كان بالإمكان إلحاق المجموعات المخطوطة إداريًا بدار الكتب وإبقائها في موقعها، تأكيدا للخصوصيات الثقافية للجهات، وحفظا للمجموعات في مناخها الأصلي الذي تلاءمت معه، وتكليف المختصين في شؤون الفهرسة والضبط لتسجيلها والتعريف بها.

وقد كلف مدير الدار وقتها الأستاذ حمادي الرزقي شخصا منتدبا للعمل كان يعمل في سلك «الخلفاء»، وأبعد بعد الحرب، هو السيد محمد العنابي، فأقام بالقيروان فترة صحبة راقن من الجهة، وصنع لها ثبتا، يذكر المصاحف بعبارة: «مصحف على الرق ناقص الأول والآخر». ثم نقلها في عربة شحن إلي تونس وتفرّد بالعمل فيها وحده، بطريقة لم تكن واضحة المنهج. وعندما فارق الإدارة، تداول على قسم المخطوطات بعده السيدان عبد الحفيظ منصور، والسيد جمال حمادة الذي مكن منها القراء فيما بعد.

وعندما عاد الأستاذ الشاذلي القليبي إلى الوزارة، اهتم بالموضوع، وكلف لجنة لمراجعة أحوالها (إثر انتشار الشائعات) تتكون من السادة : رشيد بن أحمد (مدير الادارة المركزية)، إبراهيم شبوح، سعد غراب، عبد الحفيظ منصور، جمال حمادة. وبدأت هذه اللجنة تجمع ملاحظاتها وفي الوقت نفسه تظبط عدد أوراق الكتب والمصاحف ومقاساتها وعدد سطور كل واحد منها للتوثيق.

أثناء هذا العمل أبدل وزير الثقافة بالسيد محمد اليعلاوي الذي أعاد فتح المجموعة للقراء، وأقنعه أحد مستشاريه بأنه لا يوجد ريبة بالأمر، ولذلك طويت الصفحة.

وفي 12 سبتمبر 1982م صدر الأمر عدد 1250 بإعادة مجموعة القيروان إلى موقعها، وتكونت لجنة لضبطها وتسجيلها تتكون من : عثمان جراد، والباجي بن مامي، ومراد الرماح، وجمال حمادة وعبد الحفيظ اليحياوي، وحميدة بن صميدة.

ونقلت إلى القيروان إثرها أوائل سنة 1983 م، حيث أودعت بمتحف رقادة. وبعد عرضها والتعريف بها في السنة نفسها، بدأت مساعي مدير مركز دراسة الحضارة والفنون الإسلامية، الأستاذ إبراهيم شبوح، لصيانة المجموعة. وأمكن في سنة 1985 م إقامة نواة لمخبر متطور للترميم والصيانة، بالتعاون مع جامعة Göttingen بألمانيا.

وقد تُوّجت جميع هذه المراحل بإصدار أمر رئاسي بإقامة المخبر الوطني لترميم المخطوطات وصيانتها برقادة وذلك خلال شهر مايو 1995.

وقد هيأت هذه المعطيات الظروف للقيام بتجربة فريدة، قوامها أن التراث المخطوط بحاجة إلى نظرة متطورة لمهفوم الصيانة، تقوم على اعتبار أن النص هو المادة التي تعني الباحثين، أما الجانب المادي للكتاب وما يمثله من فنون فهو وثيقة حضارية ينبغي أن تُعامل حسب قواعد أخرى.

إن علاقة الباحث يجب أن تكون بالنص المكتوب، الذي يمكن استخراجه بالصورة، وعزل المخطوط عن التداول، على أن تعرض نماذج فنية رائعة للعين البصيرة، عسى أن تستمتع بجمالياتها الفنية. وهذه النظرة توافق ما قرره مؤتمر الآثار التاسع بصنعاء سنة 1981م حول الكتاب المخطوط، وقد بدأ الإعداد لتحقيق ذلك، وتهيئة وسائله وأسبابه.

سبل صيانة مكتبة القيروان العتيقة :

لقد تطلب ذلك صياغة خطة لصيانة المخطوطات وتسجيلها وتصويرها، وذلك بإقامة ثلاثة مخابر أو أقسام:

أ - مخبر التصوير والميكروفيلم

ب - مخبر الترميم والصيانة والتجليد

ج - قسم الفهرسة والنشر

أ - مخبر التصوير والميكروفيلم :

وتتمثل مهمة مخبر التصوير والميكروفيلم في أخذ صور لأهم النماذج وأجملها، وبداية عمل تسجيل على الميكروفيلم لكامل المجموعة، وذلك بنية ضبطها نهائيا بالنسبة للمصاحف المكتوبة على الرقوق، واستنساخها بالنسبة للكتب العلمية، حتّى تكون في متناول الباحثين. وقد شملت عملية المسح (بعد ست سنوات من العمل) ربع المجموعة، ونأمل أن يتحسن العطاء حتّى يتم تصوير كامل المجموعة في السنوات الخمس القادمة. وقد تلقى المركز من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في نطاق نداء صيانة مدينة القيروان، مساعدة سمحت باقتناء جميع آلات التصوير اللازمة من فرنسا، كما أن آلة الميكروفيلم قد تم اقتناؤها في نطاق برنامج التعاون التونسي الألماني.

ب - مخبر التريم والصيانة والتجليد :

تم في مجال الصيانة تركيز المشروع في نطاق اتفاقية للتعاون، أبرمت بين الحكومتين الألمانية والتونسية Göttingen، التي عينت الأستاذ غونتر برانال Günter Brannahel لمعاينة المجموعة، والتعرف على مشاكلها، وتكوين فريق من المرمّمين التونسيين، وتأطيرهم، وتركيز الآلات والأجهزة اللازمة. وبعد وفاة الأستاذ برانال، كُلفت السيدة كتزر Ketzer بتأطير العملية، وقد انطلق المشروع بتكوين 4 من المرممين التونسيين في مكتبة Göttingen تمرسوا بمشاكل مخطوطات المجموعات، بعد التعرف على أمراض الرقوق والجلود، وسبل معالجتها. وتتمثل بعض المشاكل فيما يلي:

- تقلص الرق بمفعول الرطوبة وإفرازه مادة لزجة: gelatineuse ينتج عنها استرخاء الرق وتغيّر لونه إلى البني ثم يبدأ في التفتت والتلاشي.
- تأثير حوامض الأحبار في الرق مما يسبب تآكل الكتابة.
- تكمش الرقوق وفقدانها لطلاقتها.
- تيبس الأسفار الجلدية وميلانها إلى اللون الأسود.
- تأكسد الزخارف الفضية بمفعول الرطوبة.

أما فيما يتعلق بالورق: فإن أمراضه لا تختلف عما هو متعارف نتيجة مفعول الحشرات والبكتريات والأحبار.

وخلال فترة التكوين التي تواصلت ستة أشهر بالنسبة لكل مرمّم، تم تركيز خمس وحدات:

1 - وحدة التنظيف.
2 - وحدة ترميم الرقوق وصيانتها.
3 -وحدة ترميم الورق وصيانته.
4 - وحدة التجليد.
5 - مخبر التحاليل.

وقد تولت جمعية صيانة مدينة القيروان، بالتعاون مع المعهد الوطني للتراث، بناء القاعات اللازمة لذلك،

وهي تغطي، إلى جانب البناءات السابقة والمخصصة للمخابر، ما يربو عن خمسمائة متر مربع. وخصص الجانب الألماني اعتمادا قدره 200 ألف مارك، صرف منها ما يزيد على 120 ألف مارك للأجهزة و40 ألف مارك للمواد، و40 ألف مارك للنقل.

1 – وحدة التنظيف:

تم تدعيم ورشة التنظيف بآلة متطورة تمتص الأتربة، وبآلة تعمل بالأشعة تقضي على البكتريات في ظرف 15 يوما.

وقبل تنظيف المخطوط من الأتربة والحشرات وغيرها، تستند له بطاقة فنية، تحمل مواصفاته، وحالته العامة من حيث التسفير ونوعية الورق والحبر والعوارض البادية عليه.

2 – وحدة ترميم الرقوق وصيانتها:

جهّز مخبر ترميم الرقوق بجهاز من ابتكار الأستاذ برنال، توضع فيه ورقة الرق، حيث تبلغ رطوبتها نسبة 100 % مما يكسبها اللّيونة اللازمة لمباشرة ترميمها، ثم تنظيف من الأوساخ والمواد العالقة بها بالماء والكحول، أو تقطع حيث يلزم مع استبعاد كل المواد الكيمياوية، ثم توضع في مكبس بين أوراق خالية من الأحماض. وعندما يتعلق الأمر بنماذج هامة ومتميزة، فإنّه يقع ترميم ما تآكل منها بالرقّ المهيأ لذلك، والموضوع على نفس المثال العتيق. ويقع التركيز على ترميم الرقوق خلال فصلي الخريف والشتاء وبداية الربيع، حيث مازالت الرطوبة في الجو تسمح بذلك قبل أن تضعف خلال فصل الصيف فيصعب مباشرة الرق.

وقد أمكن حاليا ترميم أربعة آلاف ورقة أو قطعة من الرق من مجموع 10 آلاف ورقة من المصاحف المكتوبة على الرق، التي تستحق الصِّيانة، وعدد غير مضبوط من الكتب الفقهية، لا يقل عدد أوراقها عن 20 ألفا، أ ي أن العمل على النسق الحالي يتطلب ثلاثين سنة على الأقل

ويتولى أعوان المخبر صناعة مجموعة من الصناديق لحفظ المصاحف، تعوض الصناديق القديمة التي كانت لا تفي بمقاييس الصيانة من حيث طريقة الحفظ واحتواء الورق المقوّى على مواد حامضة.

3 – وحدة ترميم الورق وصيانته:

تشتمل ورشة ترميم الورق على جهاز لتصفية الماء من الأملاح والرواسب المعدنية سعته 200 لتر، ويكرر ما يربو عن 110 لتر في الساعة، ويستطيع تصفية 99 % من الأملاح وفيما بين 90 و95 % من المواد العضوية والجراثيم. ويشتمل الجهاز على أربع مصفاوات، ويرتبط بماجل تبلغ سعته 36 ألفا، يسمح بالاستغناء عن ماء الحنفية العمومية عند ضعف الضغط.

ويوضع الورق في حمام من الماء المصفى، حيث ينظف من المواد والحشرات والجراثيم العالقة به، ثم يقع طمس الثقوب بالألياف بفضل جهاز خاص، ثم يوضع للتجفيف على سلالم خاصة. وبالنسبة للورق المكتوب بأحبار منحلة، فإنه يقع سد الثقوب بقطع من الورق الياباني الذي يثبت بمبضع من العظم.

وتعتبر هذه الطريقة شديدة البُطء. وتتمثل الوسيلة المبتكرة في صنع عجين حسب الطريقة التالية:

تقطع الأوراق القطنية إلى أجزاء صغيرة وُتنقع في الماء لمدة 24 ساعة، ثم تؤخذ في اليوم الموالي، وتمزج بألياف تتخذ من الأوراق القديمة. ثم يعصر العجين ويصفى من الماء بصورة جديدة، وتؤخذ منه مائة غرام، يضاف إليها خمسمائة مليلتر من الكليسال «ج» Klussel G بنسبة 2 % وهي مادة تتخذ لتيسير تماسك الألياف، ويمزج الخليط من المادتين المذكورتين من جديد حتّى يصبح سهل الامتصاص.

وقد جربنا طريقتين للعمل، الأولى تتمثل في توزيع العجين على حواشي الورقة وتم سد الثقب الصغير والكبير منها. وتتحقن بها كل الثقوب.

وتتميز التجربتان بسرعتهما الفائقة، ونجاعتهما، وبسهولة إزالة العجين إذا دعت الحاجة لذلك.

إلاّ أنّنا لاحظنا أن الطريقة الأولى يتولد عنها بعض التمدد في الورقة، نتيجة الزيادة في سمكها المنجر عن توزيع العجين على كامل الحاشية، وهو ما يجعلنا نعتمد الطريقة الثانية بصورة نهائية في مخبرنا.

4 – وحدة التجليد :

جهزت ورشة التسفير والجلود بكل ما تحتاج له من أجهزة ومواد للقيام بصيانة تقليدية ناجحة. وتم الاتصال بالمعامل المختصة بكامل البلاد للتحصيل على نوعية للجلود تتماشى والحاجة، ولا تحتوي على مواد حامضة، فأمكن تطوير طرق جديدة للعمل لم تكن معتمدة في المصانع المختصة بالجلد في بلادنا، وقد تم إلى الآن تسفير ستين كتابا، في حين أن المجموعة التي تستدعي ذلك تفوق الألف مثال. أي أنه يحتاج إلى ما يربو عن الخمسين سنة لإتمام العمل بالنّسق الحالي. وقد تم في مرحلة أولى الاكتفاء بتسفير المخطوطات أو بالأحرى تغليفها بالورق المقوى الذي لا يشتمل على أحماض في انتظار القيام بالتجليد اللازم.

ويحتوي المخبر على جهاز لقياس الحموضة، وعلى مجهر يشتغل بالأشعة الحمراء، وآخر يشتغل بالأشعة ما وراء البنفسجية، ويسمح بأخذ صورة دقيقة للمخطوط.

وقد وضعت المخطوطات في مخازن أمكن تتبع نسبة الرطوبة ودرجة الحرارة بها لمدة طويلة، وتبين أن الرطوبة بالقيروان تتراوح بين 20 % و 85 %، في حين يتأرجح معدل درجة الحرارة بين 7 و35 لتصل 45 درجة في أغسطس، وتهبط إلى حد درجتين في الشتاء. وقد أمكن تعديل ذلك حسب الفصول، وحسب الأيام الممطرة أو الجافة، فأمكن المحافظة على نسق مستقر للرطوبة، يتراوح بين 55 و60 %، وقلما يتجاوز إلى 70 %، وعلى حرارة تتراوح بين 18 و25 درجة. وهذه هي المقاييس المعتمدة لدى أهل الاختصاص لصيانة المخطوط والمحافظة عليه.

وتعتبر مسألة تعديل الرطوبة والحرارة بالمخزن من أدق العمليات، لتأثيرها المباشر على المخطوط، وانعكاسها على تمدده وبسطه. وتفاديا لذلك، فقد تم تجربة وضع المخطوط في صندوقين متداخلين، للحيلولة دون تعرضه لتغييرات الحرارة والرطوبة التي تؤثر على سلامته. وقد أثبتت التجربة أن هذه الطريقة يمكن اعتمادها بالنسبة لمجموعة القيروان في فصل الصيف فقط، حيث أنّها تمكن من تخفيض الحرارة درجتين، مما يجنّبنا اللجوء إلى استعمال المكيف بصورة مكثفة، مع ما في ذلك من تأثير غير مستحب على المخطوط. وسعيا لمقاومة جميع أصناف الحشرات والبكتريات، فإنه يتم تنظيف الرفوف ومداواتها كل ستة أشهر.

إن مشروع صيانة مخطوطات القيروان يتجاوز السنة السابعة من عمره، ورغم ذلك فإنه يعتبر أحد المشاريع الرائدة في مجال صيانة المخطوطات ببلادنا، وقد حقق نجاحات ثابتة.

ومؤسستنا هي المؤسسة الوحيدة بالمغرب التي نجحت في إقامة مخبر للصيانة على أعلى مستويات الفن. وإن الشباب المتخصص، الذي تكوّن بألمانيا، يعد من خيرة الفنيين المتمرسين في فنون الكتاب، وهذا بشهادة أهل الاختصاص من الأوروبيين وغيرهم. إلا أن غزارة المادة التراثية تدعونا إلى زيادة الحزم في السعي لإنقاذ تراثنا المخطوط من الضياع، فالفريق الذي تم تكوينه قليل العدد، والمادة المتوفرة يعسر صيانتها خلال جيل، ونقدر تحقيق ذلك في خمسين سنة على الأقل، بقطع النظر عن توجه المركز الآن نظريا لصيانة جميع المخطوطات الموجودة بالبلاد التونسية، سواء كانت في مجموعات خاصة أو عمومية. وهذا النّقص تشكو منه مختلف المراكز العربية الإسلامية المتخصصة في مجال صيانة المخطوطات.

وتدعو الحاجة الآن إلى الاكتفاء من التوجه نحو الدورات التدريبية التي لا تعدو أن تكون توعوية، والاتجاه نحو التفكير الجديّ في إقامة ثلاثة أو أربعة معاهد مختصّة، في مختلف البلاد الإسلامية، تتولى تكوين الشبان، تكوينا علميا دقيقا، حسب اختصاصات دقيقة.

ج - الفهرسة والنشر

إن مكتبة القيروان لم تحظ بالعناية الكافية في مجال الفهرسة والنشر، نتيجة صعوبة المادة وتداخلها. كما أن مكتبة القيروان تمتاز بقيمتها التراثية التي تفوق قيمتها العلمية، ومن المؤسف حقّا أنّه طوال قرن كامل لم ينشر لمكتبة القيروان أي فهرس. وقد تصدى مركز دراسة الحضارة والفنون الإسلامية للأمر، وانتدب ثلاثة أساتذة مختصين، وزعوا على مجالات ثلاثة: الوثائق، والكتب الفقهية القديمة المكتوبة على الرق، ثم الكتب المخطوطة الحديثة نسبيا. وقد ضبطت استبيانات للغرض.

ولم يتواصل عمل هذا الفريق إلا سنتين، حيث لم نوفق في تجديد إلحاقهم بالمركز، واكتفينا بأقدمهم، وأكثرهم كفاءة، وهو الأستاذ الصادق الغرياني، الذي سبق أن عمل بدار الكتب الوطنية، خلال الخمسينات. واتجهنا لفهرسة هذه المجموعة، معتمدين طريقة التفصيل، وإبراز الأهمية الوثائقية للنّسخ الموجودة، من حيث الجودة، والصحة، وإبراز الجانب الفني المتصل بالتجليد، والتفسير، والتحبيس، والتملك، وجودة الخط، ليعين ذلك الباحثين في تاريخ الفنون، وليساعد على التعرف على النماذج الصالحة، لتاريخ الورق، وبتحديد مراكز الكتابة، وتواريخها، والتنصيص على مصادر الانجرار، حفظا للتاريخ الثقافي لبلادنا. وقد أهمل هذا الجانب، فاختفى اسم المجموعات، والمكتبات القديمة، وذلك ضمن خطة ظالمة، لتزييف التاريخ، وقطع الجذور.

ومع ذلك، فقد تمت فهرسة جميع الوثائق ونحو 90 % من المكتبة العتيقة و1920 عنوانا من مجموع 2350 عنوان من المكتبات الأخرى. وتتجه النية حاليا لعقد اتفاقية مع الهيئة الألمانية للأبحاث، بالتعاون مع جامعة برلين، لاستيفاء العمل ونشره.

ورغم تفوق الناحية الأثرية في مكتبة القيروان العتيقة فإن ذلك لم يمنع من تحقيق بعض كنوزها، والقيام بالدراسات حولها، وقد تم تحقيق المخطوطات التالية:

1 - «أدب القاضي والقضاء» لهيثم بن سليمان، توفي 310 هـ (المحقق : الدكتور فرحات الدشراوي)

2 - «الرد على الشافعي» لمحمد بن محمد بن اللباد، توفي 333 هـ/ 944 م (المحقق : الدكتور عبد المجيد بن حميدة)

3 - «التصاريف» ليحيى بن سلام، (المحقق: الدكتورة هند شلبي)

4 - «سجل قديم لمكتبة جامع القيروان» (المحقق : الأستاذ إبراهيم شبوح)

5 - «موطأ مالك» رواية علي بن زياد، توفي 183 هـ/ 828 م (المحقق : الشيخ النّيفر الشاذلي).

6 - «كتاب المحاربة من الموطأ» رواية عبد الله بن وهب، (المحقق: الدكتور ميكلوس موراني)

7 - «الجامع في علم القرآن» رواية عبد الله بن وهب (المحقق: الدكتور دكتور ميكلوس موراني)

كما نشرت بعض الأبحاث المتعلقة بمكتبة القيروان، منها «حول محتوى مكتبة القيروان العتيقة» للنيّال، ومؤلفات الدكتور ميكلوس موراني حول مصادر الفقه المالكي وحول الماجشون بالاعتماد على رقوق مكتبة القيروان.

الهوامش والإحالات

1) إبراهيم شبّوح : سجل قديم لمكتبة جامع القيروان، القاهرة 1957.
2) البهلي النيّال : المكتبة العتيقة بجامع القيروان - مجلة الندوة التونسية، السنة الأولى، العدد الأول، يناير 1953.



المجال الحضريّ بحوض مجردة الأوسط والتلّ الأعلى في الفترة التّاريخيّة القديمة

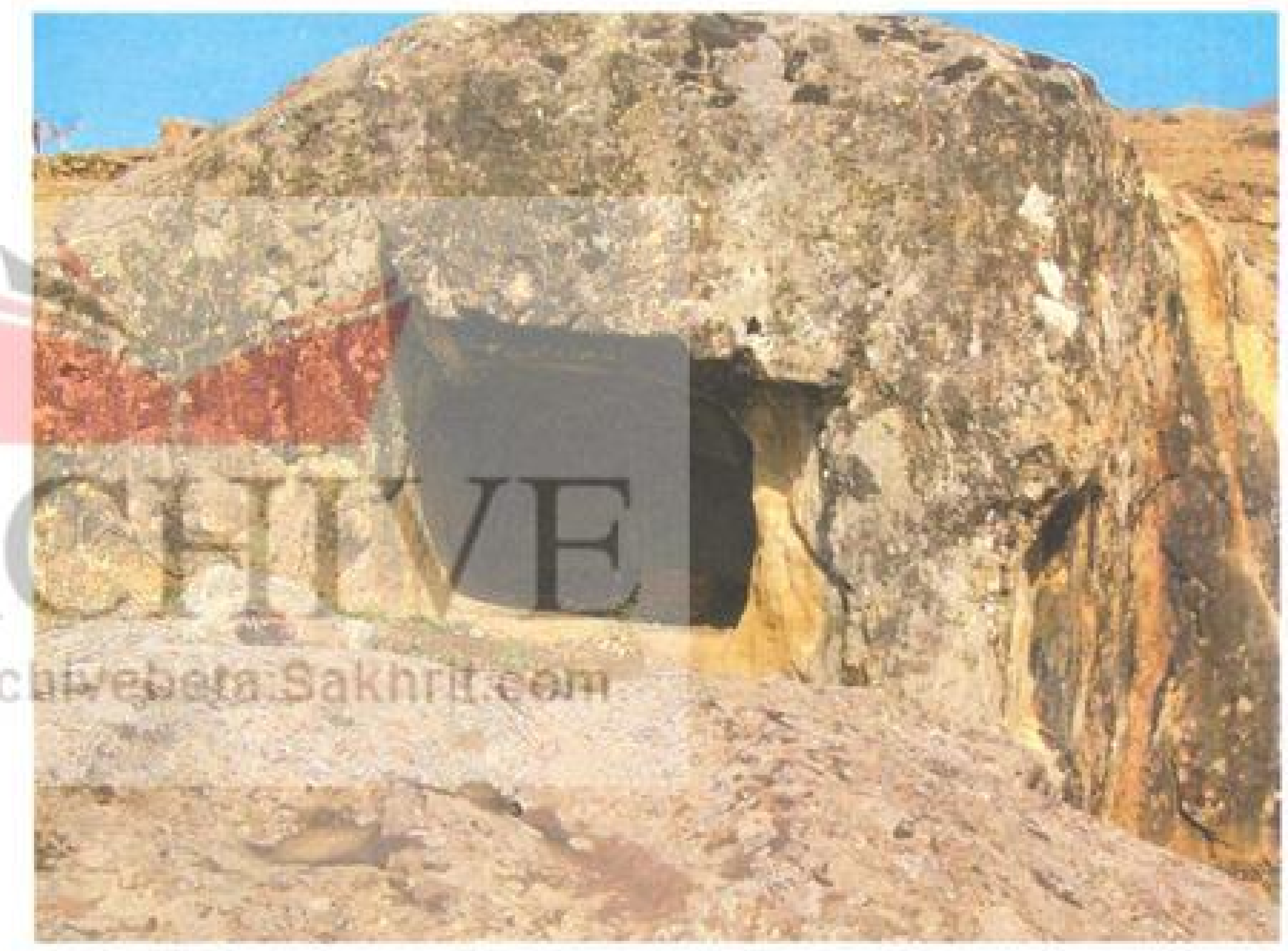
محي الدين الشوالي

إن الدراسات حول مدن شمال إفريقيا في الفترة التاريخية القديمة عديدة، وهي تتطرق إلى إشكاليات عامة وتقدم نتائج كبيرة، وإن القيام بدراسات لجهات معينة من شمال إفريقيا يمكن بدورها أن تعطينا أفكارا جديدة وخلاصات ومقاربات هامة. كما يمكن أن تعطينا هذه الدراسات الجهوية نظريات تغير الأطروحات القديمة والكلاسيكية حول واقع المدينة في الفترة التاريخية القديمة.

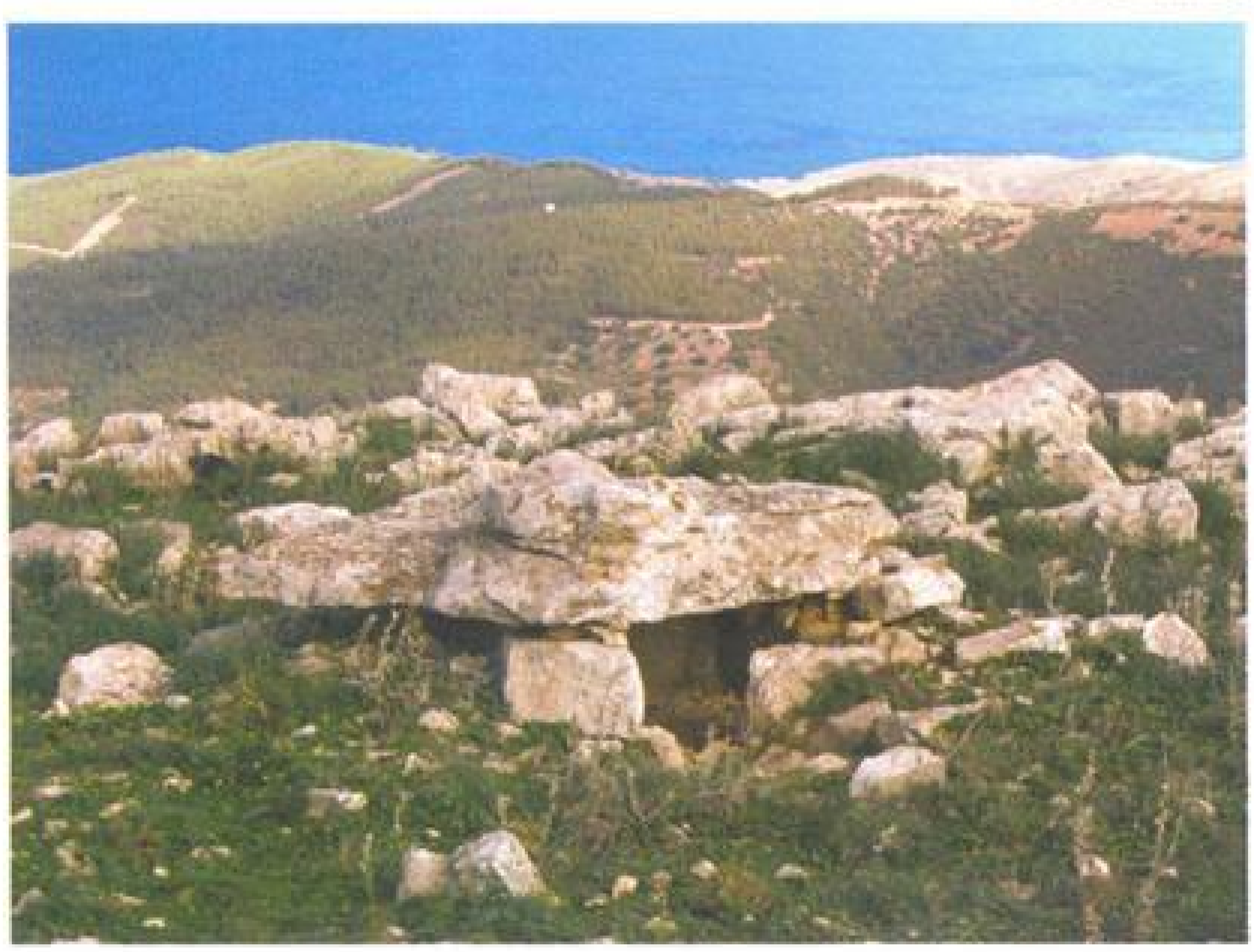
سنتناول بالدرس في هذا المقال واقع مدن الشمال الغربي التونسي وتحديدا جهة حوض مجردة الأوسط والتل الأعلى التي عرفت ازدهارا حضريا وكثافة عمرانية خلال الفترة التاريخية القديمة.

وستشمل الدراسة الفترة التاريخية القديمة من بداية ظهور أول التجمعات البشرية في الفترة النوميدية وبروز بدايات النواة الحضرية إلى غاية نهاية الفترة البيزنطية مرورا بالفتراة الرومانية والوندالية.

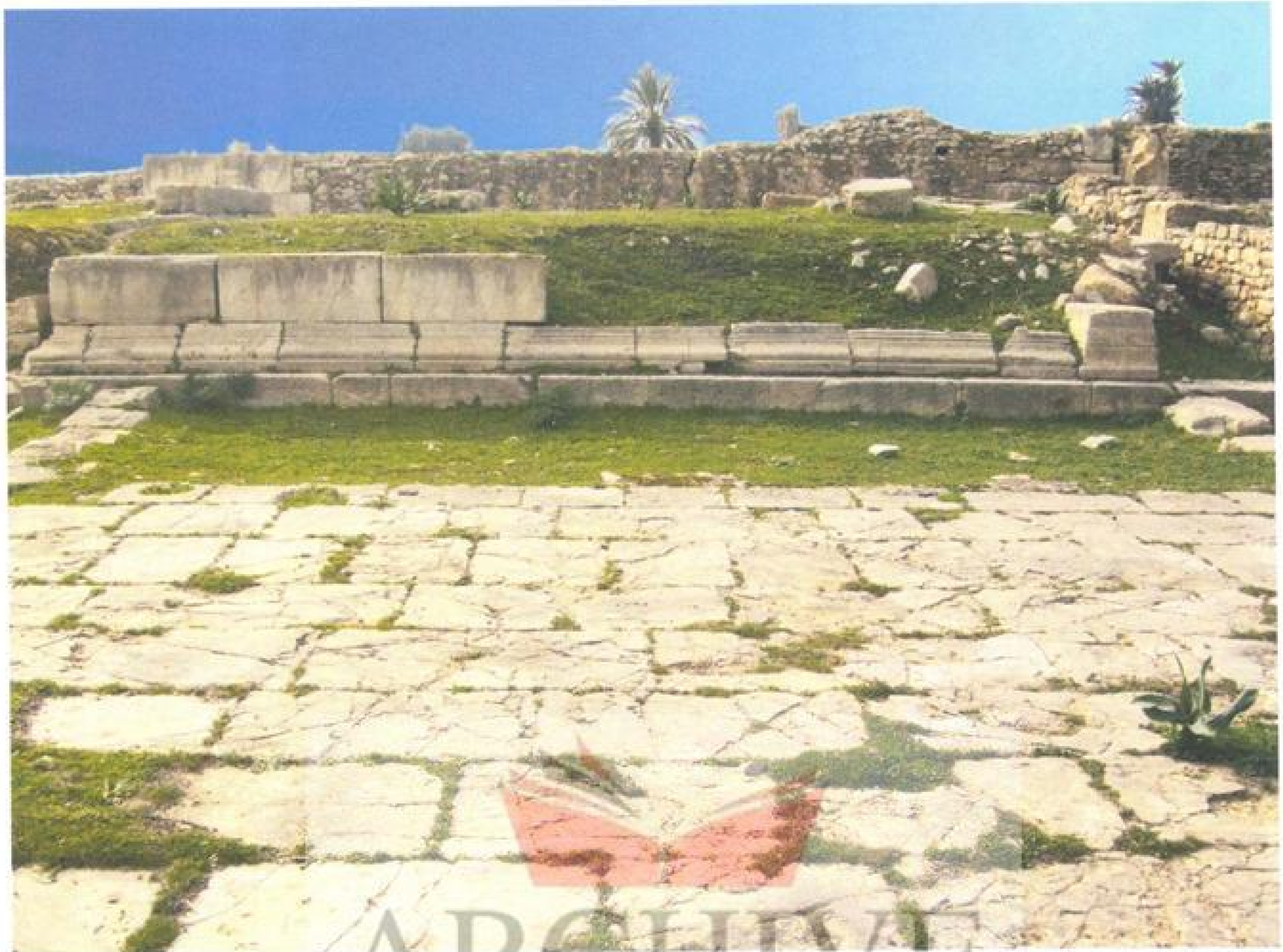
أما أهمّ مميزات الإطار الجغرافي فمناخ معتدل وتساقطات تتراوح بين 500 و700 ملم سنويا. أمّا المجاري المائية فهي متعدّدة ونذكر من بينها أودية خالد، ملاق، بوهرتمة ومجردة. نوعية التربة طينية وكلسية ذات لون أسود وأحمر داكن تمثل إطارا ملائما للنشاط الفلاحي. هكذا سيقع الحديث عن مجال أقل ما يقال عنه أنه شاسع ومتشعب ألا وهو المدينة في



حانوت بجهة بلطة



مقابر جلمودية بجبل قرّاعة (Dolmen)



معبد نوميدي جنوب المسرح ببلاريجيا

الفترة التاريخية القديمة. ولقد عملنا على تلخيص هذه الدراسة مع الحفاظ على أبرز مقوماتها والأفكار الرئيسية وذلك حتى نتجنب الإطناب في تفاصيل تاريخية.

يعود تواجد الإنسان في جهة حوض مجردة الأوسط والتل الأعلى إلى الفترات ما قبل التاريخية الغابرة ولعل أهم اكتشاف عن قدم الحضور البشري بهذه الربوع موقع كاف عقاب الذي يرقى إلى الفترة الحجرية Le néolithique وهو يبعد قرابة 4 كلم شمال مدينة جندوبة، زد عل ذلك عديد المواقع الأخرى والتي ترقى بصفة عامة إلى فترات ما قبل تاريخية لاحقة أذكر من بينها موقع دجبة الذي يبعد قرابة 6 كلم شمال تيبار.

ولقد تدعم حضور الإنسان في فجر التاريخ بهذه المناطق، والدليل على ذلك العدد الكبير للمقابر الجلمودية Dolmen بجبل قراعة ودقة وبلاريجيا وجبل حيرش والحوانيت ببلاريجيا وجبال بلطة وجبال خمير، كاف البليدة القريبة من باجة.

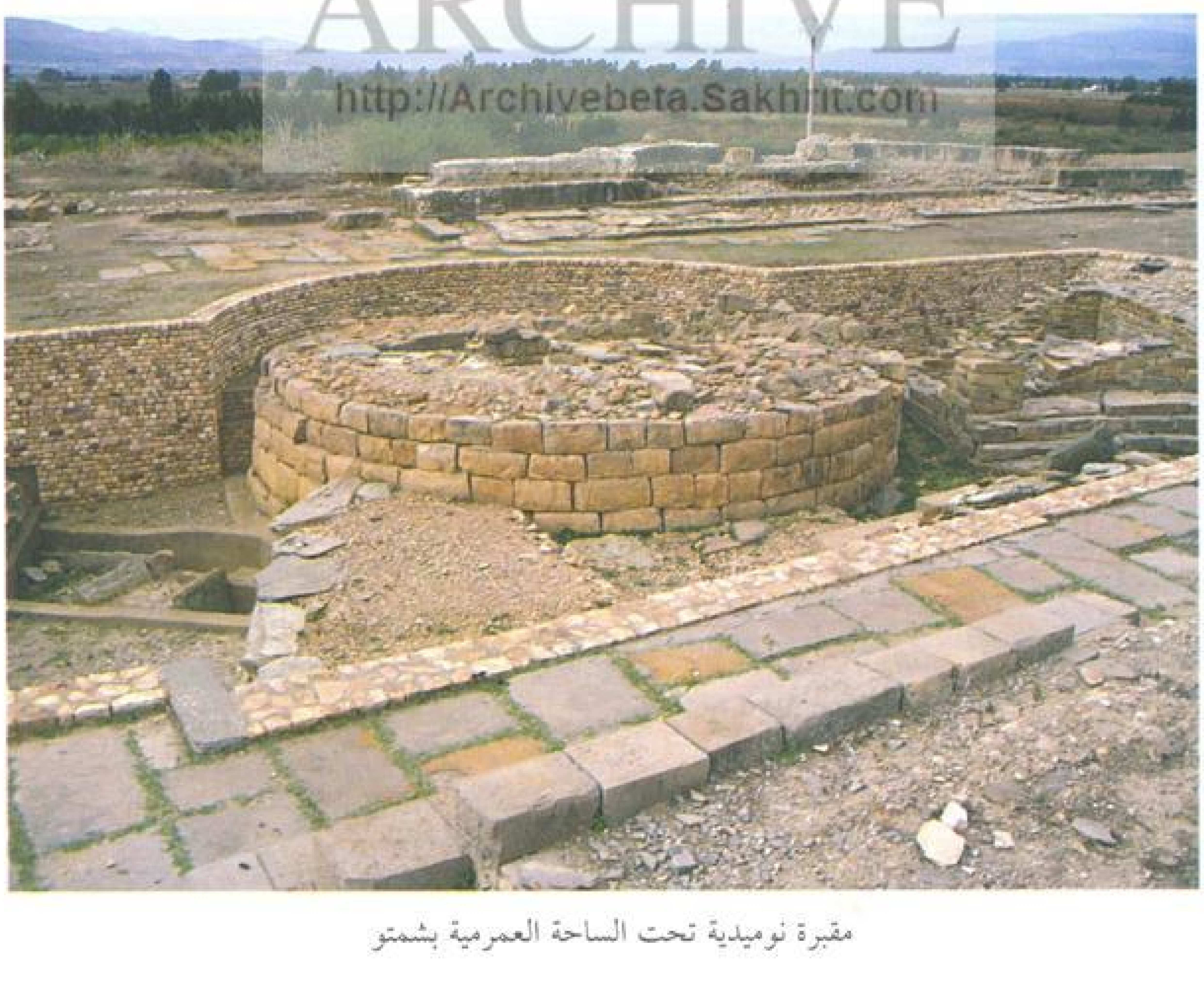
ونذكر أنه بدأت بالظهور في بدايات القرنين السادس والخامس قبل ميلاد المسيح نواة لتجمعات سكنية بدائية يصعب تحديدها زمنيا بصفة دقيقة، ولعل البناءات التي ترقى إلى الفترة الرومانية فوق المدن النوميدية هي التي تعيق دراساتنا في هذا المجال.

ومهما يكن من أمر فإن مدنا نوميدية كانت موجودة قبل مجيئ الرومان، والأدلة على ذلك عديدة منها اسم المدينة فلقد برهن قبريال كامبس G.Camps أن المدن التي ترقى إلى الفترة الرومانية والتي تبدأ بحرف TH هي في الأصل مدن نوميدية. مع الإشارة إلى أن هذه المدن كثيرة في جهة حوض مجردة الأوسط والتل الأعلى Thibaris= تيبار، Thibursicum Bure = تبرسق،

Thuburnica= سيدي علي بلقاسم، = Thunusula برج هلال، Thugga= دقة.

أما المصادر الكلاسيكية فقد تحدثت عن البعض من هذه المدن النوميدية ويذكر ديودروس الصقلي Diodore de Sicile في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد أن مدينة توكاي TOKAI (أي دقة) كبيرة، ويتحدث المؤرخ سالوستيوس Salluste أن الجنرال الروماني ميتولوس Metellus قد قام بنهب مدينة باجة (Vaga) وذلك ثأرا لجنوده. ونذكر أن هذه المدينة كان يقطن بها العديد من التجار الإيطاليين. ويتحدث عن بلا المؤرخ بول أروز Paul Orose (قبل أن يطلق عليها الرومان اسم بلا الملكية) أن الملك النوميدي هيرباص Hiarbas قد اتخذ من هذه المدينة ملاذا بعد الهزيمة التي مني بها ضد الرومان سنة 81 ق.م. إن المصادر الكلاسيكية شحيحة وقليلة ولذلك فإن الأبحاث الأثرية تبقى أهم ما يمكن التعويل عليه في هذا المجال. ولقد أثبتت العديد من الحفريات والأسبار وجود معالم نوميدية تحت معظم البناءات التي ترقى إلى الفترة الرومانية وسنذكر على سبيل المثال ما وقع كشف النقاب عنه في مدن دقة، بلاريجيا وشمتو.

ففي مدينة دقة النوميدية أثبتت الدراسات وجود عديد المعالم منها: الضريح اللوبي- البوني ومعالم جنائزية مثلما أثبتته دراسات الأستاذ مصطفى الخنوسي في السنين الأخيرة و معبد ماسينيسان Massinissa بجانب معبد الكابتول ومعبد بعل ساتورن. أما معرفتنا بمدينة بلا الملكية النوميدية فتبقى محدودة رغم تقدم الأبحاث في هذا المجال. فلقد وقع العثور على سور نوميدي جنوب المسرح وحائط نوميدي تحت أنقاض السوق الرومانية وسور شمال شرق المدينة وجانب من السور شمال المدينة ومعبد نوميدي جنوب المسرح ومعلم مجهول الهوية تحت حمام يوليامامیا Thermes memmiens وربما معبد وتوفات وهو الواقع غرب المدينة.



مقبرة نوميدية تحت الساحة العمرمية بشمتو



مدينة شمتو في الفترة الرومانية حسب جون كلود قولفان



حمام يولياماميا

ولقد بينت الدراسات االتونسية الألمانية أن مدينة شمتو النوميدية كانت تضم بعض المعالم والتي نذكر من بينها المعبد النوميدي فوق الهضبة الرخامية المقدسة ومقابر نوميدية تعرف بإسم بازنا Bazinas ومقاطع رخامية على ملك الملوك النومديين (تذكر أحد النقائش اللاتينية في القرن الثاني بعد الميلاد اسم المعمل الرخامي الملكي Officina regia.

كما وقع العثور مؤخرا بمدينة سيدي علي بلقاسم (وهي التي تعرف بـ Thuburnica في العهد الروماني) على معبد توفات مؤخرا وأثبتت الحفرية أن هذا المعبد يرقى إلى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني ميلادي. ومن المرجح أنه قد انتصب في مكان معبد توفات نوميدي وقد كانت التأثيرات النوميدية - البونية واضحة وجلية في هذا المعبد من خلال النصوص وديكور النصب النذرية والخزف مع الإشارة إلى أن هذه المدينة قد حافظت على العديد من التقاليد النوميدية في مختلف المجالات في فترات رومانية متأخرة.

إن وجود أسوار بمدن مثل باجة النوميدية التي عرفت بـ Oppida وبلا الملكية Bulla Regia ودقة... لدليل قاطع عن ضرب من ضروب التحكم في المجال الحضري وهو ما يعكس أسلوبا حضريا معينا.

ولقد بنيت مدينة شمتو النوميدية قبل اكتشاف المقاطع الرخامية وبداية استغلالها في منتصف القرن الثاني ق.م حيث وقع استعمال الحجارة الكلسية ذات اللون الأخضر من مقاطع حجرية توجد بكدية الأرنب وبرج هلال.

إذا استثنينا مدينتي كركوان وقرطاج البونيتين، فإن معرفتنا بالمعمار والهندسة البونية - النوميدية في بقية مدن شمال إفريقيا تبقى محدودة جدا. فكل معلوماتنا الأثرية تتعلق إما بالمعابد أو بالأضرحة وحتى المعلم النوميدي الذي وقع اكتشافه من طرف تيبار Thebert يبقى مجهول الهوية إذ لا يمكن ضمه إلى قائمة الأضرحة والمعابد. ومهما يكن من أمر فإن الرومان عند مجيئهم في سنة 46 ق.م حاولوا التعمير فوق مدن نوميدية وأصبح من الصعب عليهم تطبيق التخطيط الهندسي الشطرنجي المثالي المتكون من شوارع رئيسية وأخرى فرعية وهو ما يفسر عدم وجود شوارع مستوية في مدن دقة وبلاريجيا في الفترة الرومانية، ولقد وصل الأمر بالرومان إلى تشييد معالم الساحة العمومية فوق المقابر النوميدية ووقع بناء قنوات تصريف المياه داخل المقبرة النوميدية. لقد وقع تشييد مدن بأكملها في الفترة الرومانية مما يعيق دراساتنا حول المعمار والهندسة النوميديين لمدن حوض مجردة الأوسط، وهي مدن نوميدية تتمركز بصفة عامة قرب العيون

والمقاطع الحجرية وذات تنظيم معماري وبها معالم عديدة ومفتوحة حول العالم الخارجي المتوسطي.

أما في الفترة الرومانية فقد ظهرت مدن من أبرزها بلاريجيا Bulla Regia، شمتو Simitthus، تبرسق Thibursicum Bure، هنشير الدواميس Uchi Maius، هنشير الفوّار Belalis Maior، باجة Vaga، تيبار Thibaris، سيدي علي بلقاسم Thuburnica، برج هلال Thunusula، هنشير الدواميس Saia Maior، هنشير فرس Gillium، ترجبة Trisipa، هنشير واداكة Aptucca.

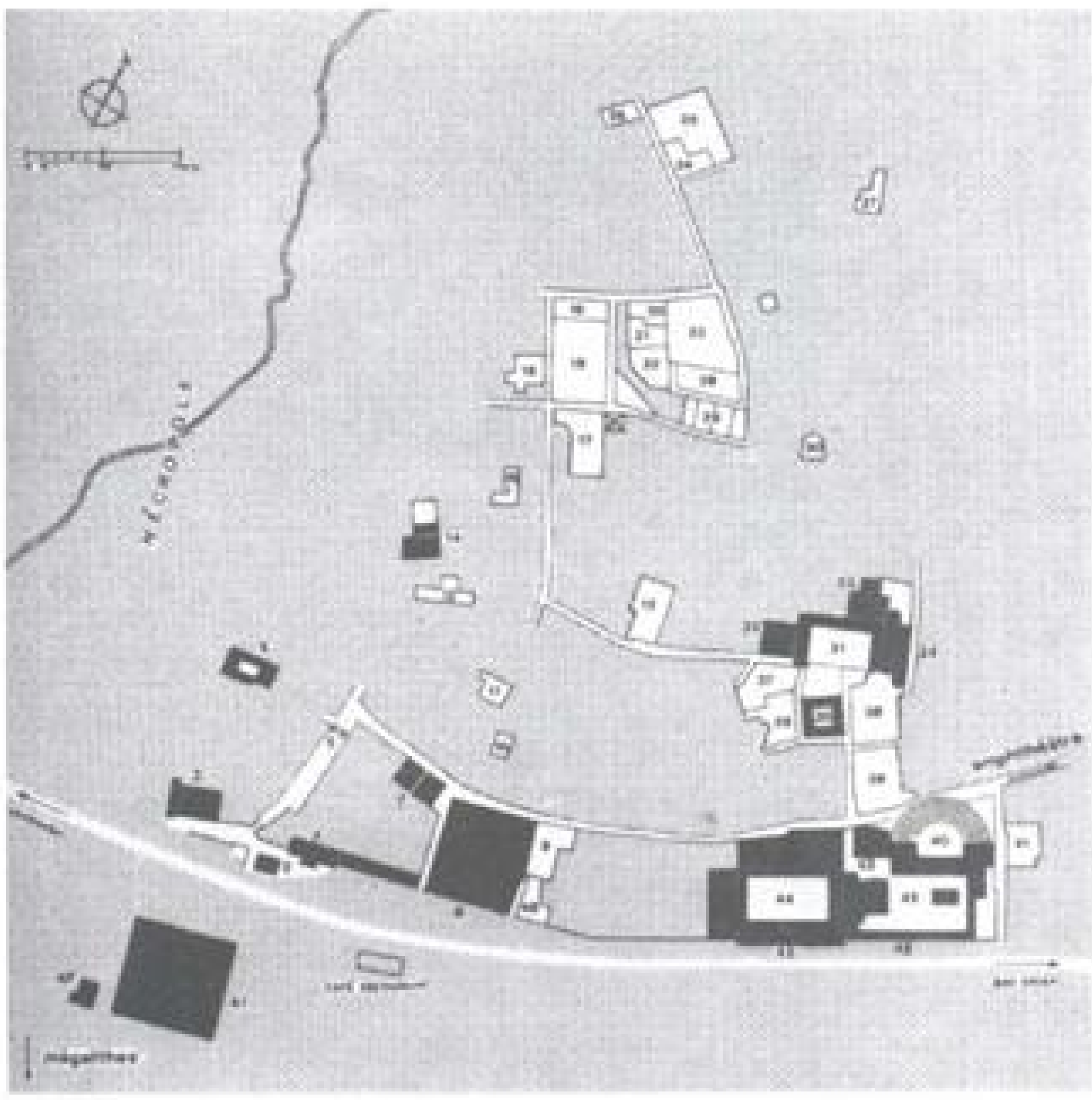
لقد عرفت هذه المدن مختلف أشكال الرقي البلدي وذلك في فترات تاريخية مختلفة فعدد من هذه المدن تحصّل على لقب المستعمرة (Colonie déduite) منذ عهد الإمبراطور أغسطس Auguste (شمتو مثلا) ولقد مكن هذا الإمبراطور عددا من الجنود الرومان المتقاعدين من الاستقرار بأراضي حوض مجردة الأوسط ليستغلوها فلاحيا وهو لقب كان مرغوبا بصورة كبيرة. أما البعض الآخر من المدن فلقد تحصل في البداية على لقب المونيقيبيوم Municipe.

تحصلت بلاريجيا على هذا اللقب في القرن الأول ميلادي وقد أجمع المؤرخون على أنه يرقى إلى عهد الإمبراطور فسبازيانوس Vespasien الذي حكم بين 69 و79 م (؟) ثم البلدية Colonie (في عهد الإمبراطور هادريانوس 117-138 بعد ميلاد المسيح تحصلت مدينة بلاريجيا على هذا اللقب). ونجهل التسلسل البلدي لبعض المدن الأخرى رغم معرفتنا أسماء أعضاء المجلس البلدي. ومهما يكن من الأمر فقد عملت هذه المدن بإنشاء بناءات ضخمة شاهدة على الرفاهة والرقي الاجتماعي.

وتجدر الملاحظة إلى أن البناءات العمومية (حمامات، مسارح، مسارح دائرية، معابد، ساحات عمومية...) قد بنيت في معظمها بجهة حوض مجردة الأوسط طيلة القرون الثلاثة الأولى التي تلت ميلاد المسيح.

لقد كانت هذه البناءات مستغلة في فترات زمنية لاحقة لتاريخ تشييدها وكثرت إجمالا عمليات الترميم والتهذيب وإعادة البناء، لكن في المقابل عرفت بعض المعالم نوعا من التقهقر والانحطاط ويعود ذلك إلى تغيّر نمط العيش والعقليات والمعتقدات خاصة مع ظهور المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية.

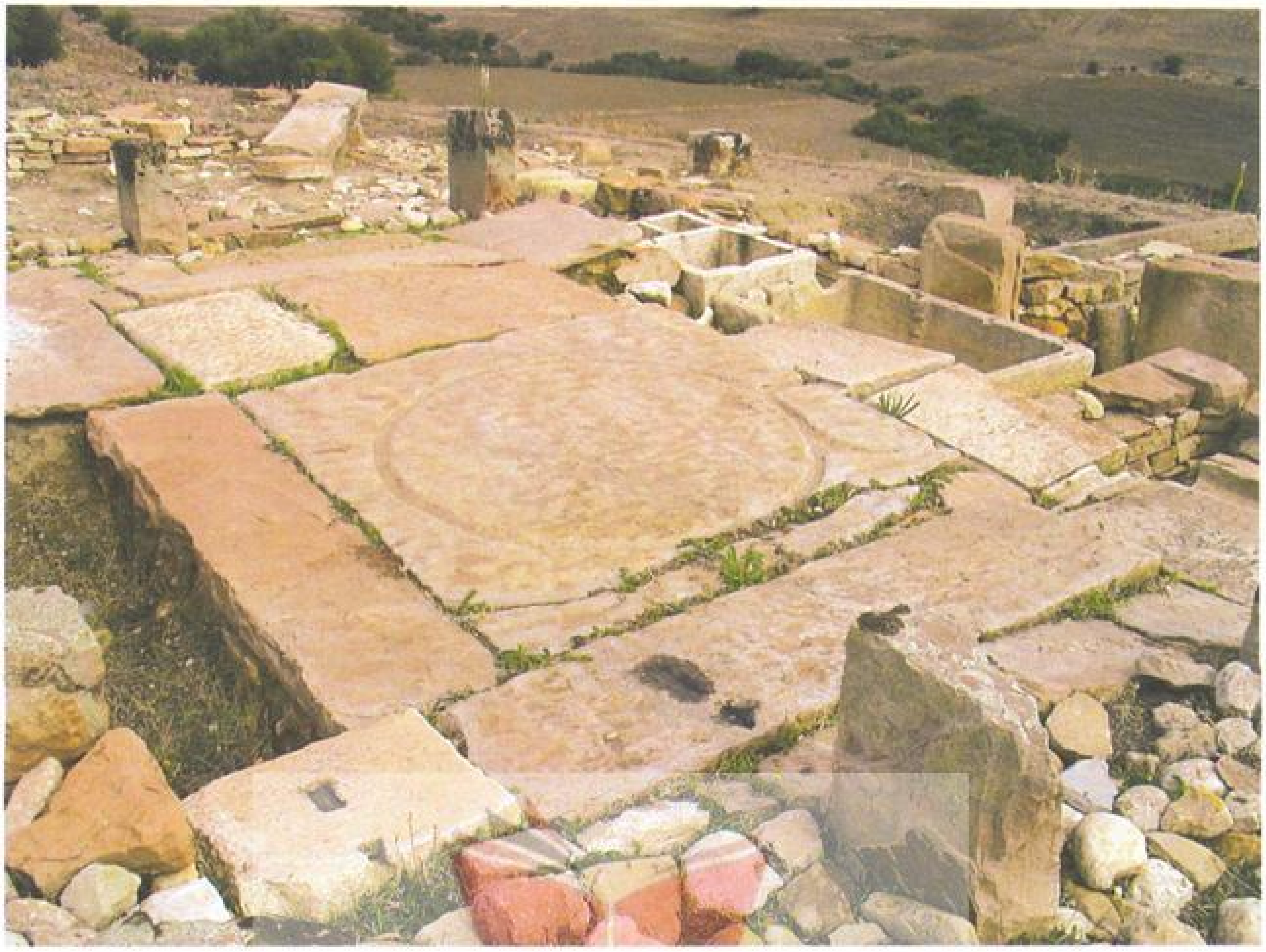
عرفت الساحات العمومية داخل مدن حوض مجردة الأوسط والتل الأعلى تقهقرا وتغييرات عديدة، فالساحة العمومية بدقة مثلا قد تحولت إلى حصن بيزنطي،



مثال لمدينة بلاريجيا في العهد الروماني



الكنيسة الشمالية ببلاريجيا



معصرة للزيتون بهنشير الدواميس

أما الساحة العمومية بهنشير الفوار Belalis Maior فقد شهدت تغييرات وبروز بناءات جديدة في أطرافها، وشهدت الساحة العمومية ببلاريجيا بدورها تحويرات متمثلة أساسا في نقل التماثيل الوثنية من قلب الساحة إلى داخل معبد أبولون المجاور.

وعندما أصبحت المسيحية ديانة رسمية تحولت المباني الوثنية المتمثلة في المعابد شيئا فشيئا إلى كنائس بمدن شمتو وبلاريجيا ودقة وهنشير الفوّار. لكن الملفت للانتباه أن التحول من الوثنية إلى المسيحية لم يكن سريعا رغم اتخاذ هذه الديانة الأخيرة طابعا رسميا فلقد وصل الأمر بالقس أغسطس Saint Augustin إلى حد التذمر من تصرفات أهالي بلاريجيا غير اللائقة والمهينة للمسيحية والسبب هو أن هؤلاء السكان ما زالوا يؤمّون المسرح ويواكبون المشاهد التي تعرض فيه والتي كانت محرمة. كما اعتبر أهالي مدينة شمتو بالمسيحيين الصالحين.

وتوجد بمدينة بلاريجيا كنيستان متجاورتان (الجنوبية أكبر من الشمالية) ترقيان إلى القرنين السادس والسابع ميلادي. أما ما يعرف بإسم كنيسة ألكسندر الموجودة جنوب المدينة قرب الحمامات الجنوبية فمن المرجّح أن يكون معلما ذا طابع اقتصادي وليس كنيسة Monument à auges. إن المعالم المسيحية بمدينة دقة ليست متعددة وكل ما نعرفه حاليا هو المقبرة الجماعية Hypogée وكنيسة فكتوريا التي بنيت في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس ميلادي. أما بمدينة شمتو فقد تحوّل معبد الإله ساتورن Saturne إلى كنيسة وذلك في القرن الرابع والخامس ميلادي.

ويجمع العديد من المؤرخين على أن بعض المدن بجهة حوض مجردة الأوسط والتل الأعلى قد اكتسب طابعا ريفيا في الفترة التاريخية القديمة المتأخرة ويوجد مثالان على ذلك وهما : أولا المقابر الموجودة داخل مدينة بلاريجيا والتي ترقى إلى فترات متأخرة أما المثال

الثاني فيهمّ المنشآت الزيتية الوندالية بهنشير الدواميس Uchi Maius إذ تحوّلت العديد من البناءات إلى منشآت ذات طابع صناعي ومعاصر للزيتون.

يعبّر هذان المثالان عن تحوّل جذري فيما يخص التحكم في المجال الحضري بهذه المدن مما يجعلنا نراجع بعض النظريات والأطروحات الكلاسيكية وخاصة منها المتعلقة بالحضارة الوندالية بشمال إفريقيا.

ولعلّ أحد أهم مقوّمات التحكم في المجال الحضري في هذه المدن هو بناء الحصون في الفترة البيزنطية والأمثلة على ذلك متعددة، منها حصن مدينة باجة وحصن بمدينة بلاريجيا موجود غرب الموقع وحصن بسيدي علي بلقاسم وحصن بدقة موجود بوسط المدينة يضم الساحة العمومية والكابتول وحصن ببرج هلال Thunusuda وهو من أكبر حصون شمال إفريقيا وهو الذي يضم داخل أسواره جزءًا كبيرًا من المدينة الرومانية.

إن بناء الحصون في الفترة البيزنطية يعكس نمطا جديدا للعيش داخل المجال الحضري بمدن الشمال الغربي التونسي وطريقة جديدة لاستغلال المدينة، ولم يكن الهاجس الأمني هو الوازع الوحيد لبناء الحصون إذ أن البعض الآخر من المدن لم يكن محصنا. فقد وقع العثور بمدينة شمتو عن طاحونة قمح تشتغل بمياه وادي مجردة موجودة حذو القنطرة الرومانية وترقى إلى القرنين السادس والسابع وتعكس حياة اقتصادية مزدهرة وتطورا تكنولوجيا.

أصبحت المدن مع انتهاء الفترة التاريخية القديمة وما شهدته من تطور حضري وازدهار عمراني تواصل حتى القرن الحادي عشر ميلادي تقريبا مثلما تبيّنه اللّقى الخزفية بدقة وبلاريجيا خاصة تشهد اضمحلالا وتقهقرا. وانتقلت الزعامة إلى مدينة واحدة أصبحت تمثل عاصمة لجهة حوض مجردة الأوسط والتل الأعلى وهي مدينة باجة، وحتى المدن التي وقع ذكرها في المصادر في الفترة الوسيطة مثل بلطة وخولان لم تشهد نفس الرقيّ الذي عرفته مدينة باجة في تلك الفترة.



خريطة أهمّ المدن بحوض مجردة الأوسط والتلّ الأعلى في الفترة الرومانية

حناية زغوان - قرطاج



الحبيب بن حسن

باسم اللّــــه الــرّحمــــان الـــرّحيم.

«وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ» صدق اللّه العظيم.

كان الماء في العهد الرّوماني يمثّل أهمّ عنصر بالنّسبة للحياة المدنيّة، وهو يفوق بالمقارنة بما نتمتّع به الآن من فوائد الكهرباء والغاز وذلك لأنّ الحياة اليوميّة للمواطن الرّوماني كانت مرتبطة كثيرا بالماء والمنشآت المائية من حمّامات وحنفيّات وحتّى بعض العروض المائية فهو يقضي جزءا هاما من يومه داخل الحمّامات العموميّة حيث يستحمّ ويمارس شتّى أنواع الرّياضة. لذلك نجد كلّ أغنياء الإمبراطوريّة الرّومانية في القرنين الأوّل والثّاني بعد المسيح ساهموا في تشييد الحنايا التي تجلب المياه إلى المدن.

وجلب المياه إلى المدن الرّومانية يعتبر في تلك الفترة عنصر مساواة بين كلّ طبقات السّكّان أغنياء أم فقراء إذ كلّهم يتمتّعون بالماء سواسية أمّا سكّان الريف فليس لهم أيّ نصيب من الماء الذي تحمله الحنايا إلى المدن. لذا فكما يذكر فرانتون (Frontin) المسؤول عن المياه بروما في القرن الأوّل فإنّ الحنايا مجعولة لحمل الماء إلى المدن دون سواها وهي تمثّل كما يذكر المؤرخ الفرنسي فيليب لفو (Ph. Leveau) هيمنة المدينة على الرّيف.

لذا فالحنايا التي كانت تربط زغوان بقرطاج في العهد الرّوماني كانت تجلب الماء لقرطاج فقط دون أن تدرّ بقطرة واحدة لسكّان الرّيف الذي تمرّ به.

إنّ هاته الحنايا زغوان-قرطاج هي من أهم وأكبر الحنايا الّتي عرفها العهد الرّوماني فهي تبلغ 132 كلم طولا. وهي تفوق حنايا برقام Pergame (60كلم)؛ نيم Nîmes (50كلم)؛ أو ليون Lyon (58 كلم) أو شرشال Caesara (54 كلم) أو طرّاقون Tarragone (53 كلم) أو مايونس Mayence (6، 28 كلم) أو لوتاس Lutèce باريس القديمة (24 كلم) أو سيقوفي Ségogie بإسبانيا (17 كلم) أمّا روما فكانت تملك إحدى عشرة حنايا ولكن لم تبلغ أيّة واحدة منها طول حنايا زغوان- قرطاج.

أغلب الحنايا القديمة كانت تجلب مياه العيون لكن في بعض الأحيان كانت تحمل أيضا في قنواتها مياه غير صالحة للشراب مثل ما هو الشأن بالنسبة لبعض الحنايا التي كانت تجلب مياه الأودية الصغيرة الملوّثة بالأوحال أو مياه الأسبخة ولكنّ هاته المياه كانت تستعمل للمصانع الموجودة خارج المدن.

تربط الحنايا مدينة زيكا القديمة Mons Ziggensis (زغوان حاليا) بمدينة قرطاج وهي من روائع الهندسة المعمارية الرّومانية حيث جلبت لها اهتمام كل الزائرين والباحثين وقد اعتبرها العبدري» من جملة غرائب الدّنيا». أمّا ابن خلدون فهو يعتبر هذه الحنايا من أضخم البناءات التي شيّدت في العهود القديمة وهي تعتبر من إنجازات الدّول العظمى، وتنطلق هذه الحنايا من معبد المياه بزغوان. وإن لم يكن لدينا أيّة وثيقة تاريخية تحدّد بدقّة تاريخ بناء هذه الحنايا فإنّنا نعتقد أنّ هذه المنشآت المائية الهائلة كانت من إنجازات الإمبراطور هدريانوس (117-138م) إثر زيارته لإفريقيا البروقنصلية سنة 128 التي شهدت جفافا طيلة خمس سنوات.

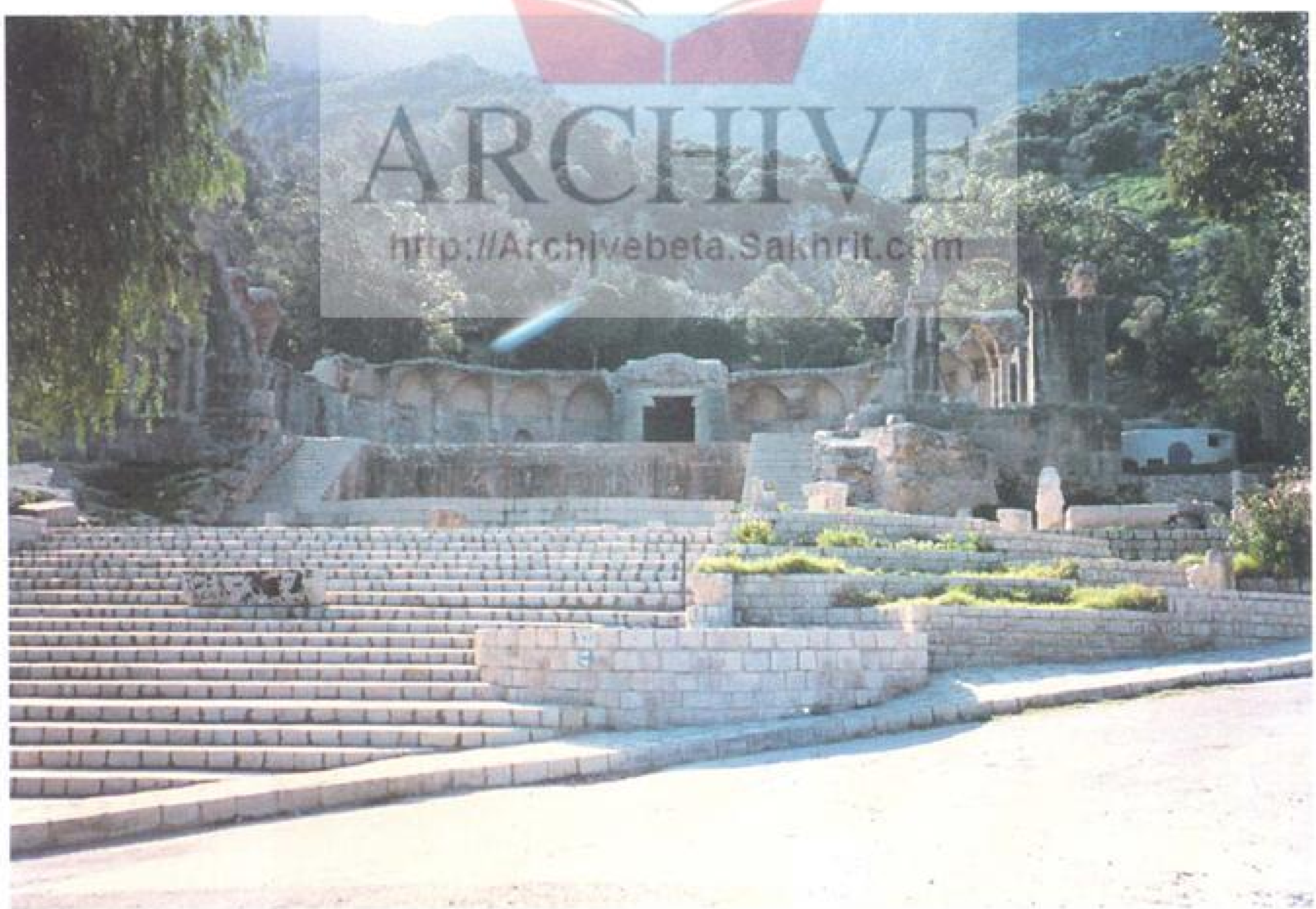
ترك لنا الباحث الألماني ف. راكوب (F. Rakob) وصفا دقيقا للحنايا الممتدّة من جبل Ziggensis إلى قرطاج يتمثّل فيما يلي: «في البداية وفي أسفل الجبل تمرّ المياه مباشرة تحت الأرض وتعبر التّضاريس غير المستقيمة عبر قنوات في شكل ثعبان، متّبعة في ذلك التواء الهضاب، ثمّ تطفو فوق سطح الأرض على حافة السّهل الخصب لوادي مليان. . . . تعبر الساقية

المقبّبة (البالغة 80صم عرضا وحوالي 180صم علوا) والواقعة فوق الأقواس العالية حيث يبلغ بعضها أكثر من 20م علوا، السّهل وتشق الوادي على قنطرة متكوّنة من أقواس مصفّفة ذات طابقين بـ 65،33م علوّا و 125،78 م عرضا. إثر ذلك تنعرج الحنايا غربا ثمّ تتجه شمال بحيرة تونس، لتنتهي داخل مدينة قرطاج من النّاحية الغربية لهضبة تهيمن طبيعيا على حمامات أنطونيوس في خزّان كبير ذي أروقة متعدّدة».

وبالتّالي فإنّ الحنايا هي عبارة عن مجموعة من العقود محمولة على دعامات وتوجد في أعلاها قناة مقبّبة حيث يجري بداخلها الماء.

وبخصوص جلب المياه إلى الحنايا لا بدّ أن نشير إلى ثلاث عيون رئيسية مهيّأة جميعها بمعابد مائية مختلفة، أهمّها ما نسميه اليوم بمعبد زغوان للمياه الذي يبدو أنّ بناءه تمّ في عهد الإمبراطور هدريانوس . ويرتبط بناء هذا المعبد ببناء حمّامات أنطونيوس بقرطاج إذ هي بنيت خصّيصا لتزويد هذه الحمّامات بالمياه. وقد تمّ العثور داخل هذه الحمّامات على نقيشة كتبت باللّغة اللاتينية تثبت أنّ انطلاق بناء حمّامات أنطونيوس يرجع إلى سنة 145ميلادي وذلك تبعا لقرار اتخذه الإمبراطور أنطونيوس التّقي أو الورع Antonin le Pieux (541-261 م).

أمّا فيما يخص تاريخ بداية استعمال الحنايا فهو يرتبط بنهاية أشغال بناء الحمّامات الكبرى أي حوالي سنة 162 ميلادي. وقد شيّد معبد المياه بزغوان في مكان تنبع منه عين وافرة المياه فوق أرض منبسطة ترتفع على مستوى البحر بـ295م وتشرف على سهول منطقة زغوان، و يسند هذا المعبد إلى جبل زغوان ويتميّز بشكله النصف دائري وبحوض سفلي تنسكب فيه مياه العين قبل مرورها



معبد المياه بزغوان

داخل الحنايا ويتمّ الصّعود إلى البناء النّصف دائري بواسطة مدرجين يوجدان على يمين وشمال الحوض، وتتوسّط هذا البناء النّصف الدّائري الشكل بيت الآلهة، حيث يوجد بها مذبح القرابين تعلوه مشكاة (Niche) ربّما كانت تحوي تمثال الآلهة عشتروت (Astarte) إلاهة قرطاج؟ والذي يجعلنا نفكر في هذا الإفتراض هو العثور على ميداليات ضربت للإمبراطور سبتيموس سيفروس (Septime Sévère) الذي كان إمبراطورا لروما من سنة 193 إلى سنة 211 بعد المسيح ويمثّل الوجه الخلفي لهذه الميداليات عشتروت تمتطي أسدا يجري قرب عين متدفّقة من صخرة.

يعبّر هذا البناء عن المكانة المرموقة والمقدّسة التي كان يحظى بها الماء لدى الإنسان في القديم، وقد تمّ الكشف في منتصف القرن على معلم متكوّن من مجموعة كبيرة من الحجارة أقيم قرب عين ماء تنبع على ضفاف شط القطار بالجنوب التّونسي (على بعد حوالي 30كلم شرقي قفصة) وهو يرمز إلى قدسية الماء في عصور ما قبل التّاريخ، إذ أنّ هذا المعلم يرجع تاريخه إلى حوالي 50 ألف سنة قبل الميلاد وهو معروض الآن بقاعة ما قبل التّاريخ بمتحف باردو (Le Hermanion).

ومن هنا نستطيع أن نستخلص أن قدسية الماء ليست حكرا على الفترة الرّومانية بل هي موغلة في القدم.

ويمثّل هذا الحوض نقطة انطلاق الحنايا التي تحمل الماء من زغوان إلى قرطاج. العين الثانية هي عين جوقار Djouggar يحتوي معلمها المائي على حوض صغير يليه حوض كبير وقد وقع ربطها بحنايا زغوان



صورة لحالة الأقواس والأعمدة أثناء أعمال الترميم



قبل أعمال الترميم

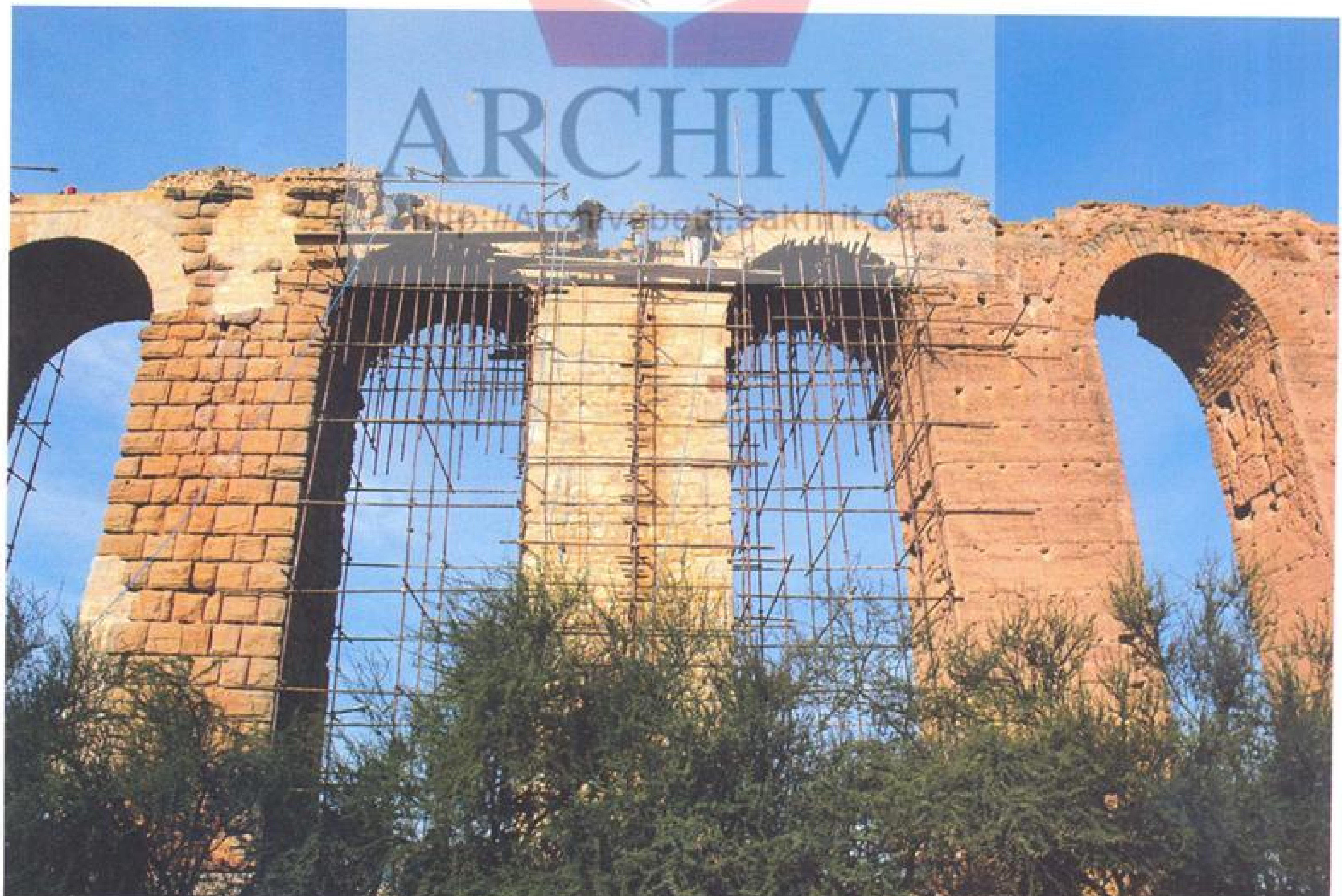
قرطاج في عهد الأباطرة السيفيريون. على بعد بضع كيلومترات شمال زغوان نجد عين دجور Djour أين يختلف فيها المعبد عن الأوّل والثاني من حيث التّخطيط ويعتبر حوضه المستطيل الشكل من أهمّ مركباته. تنضاف إلى هذه العيون الرئيسية عيون أخرى ثانوية نذكر منها عين بنت سيدان Aïn Bent Saïdane وعين سيقل Aïn Seguel.

ويذكر الباحث فيليب كايا (Ph. Caillat) أنّ هاته الحنايا تحمل يوميّا إلى قرطاج 32 مليون لترا من الماء أمّا قناتهما الرّئيسية فيبلغ طولها 124 كلم نجد منها حوالي 17كلم فوق الارض أمّا القنوات الثانويّة فيبلغ طولها 8 كلم. وقد طرحت الحنايا إشكاليات عدّة نظرا لمميّزاتها ولخصوصيتها التي تتعلّق خاصّة بطولها وإيجاد الحلول التّقنية الملائمة لكل الصّعوبات والعراقيل التي اعترضت المهندسين الرّومانيين. أهمّ هذه الإشكاليات هو اختلاف مواد البناء وتنوّعها من خلال الحجارة المستعملة حسب المقتضيات.

وأيضا كيفية استغلال المقاطع المجاورة بمختلف تركيباتها ومكوّناتها. ويبدو التّعامل مع التركيبة المرفولوجية للأرض واضح إذ يتميّز بطريقة علميّة مدروسة، من ذلك مثلا تشييد معبد المياه بزغوان الذي يستند إلى الجبل ومحاط بأدعمة هائلة. ولنا أن نتساءل أيضا عن كيفية بناء الحنايا من ناحية تنظيم فرق العمل هل انطلقت الأشغال من زغوان ثمّ وقع الإتّجاه تدريجيا نحو قرطاج؟ أم كانت هناك فرق عمل عديدة بنقاط مختلفة؟ وإن كان كذلك فكيف وقع التّنسيق؟ وكيف وقع تزويد الحضائر أو الحضيرة بمواد البناء؟ ربّما وقع اللّجوء إلى الفيلق III الرّوماني كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرّخين. وتبقى لنا تقنية جلب المياه من مختلف العيون وتجميعها داخل الحنايا الرّئيسية من

أهمّ الإشكاليات أيضا حيث يتطلّب ذلك دراية كبرى بالموقع ككل وبالتّركيبة المروفولوجية للأرض.

وقطعت الحنايا لأوّل مرّة منذ إنشائها من قبل الملك الوندالي الأخير جاليمار Gélimer 534-530 في محاولة لافتكاك مدينة قرطاج. وإن لم تقع العناية بها في عهد الوندال فقد رمّمها البيزنطيون وأعادوا استعمالها منذ سنة 539 ميلادي ولكن لمدّة غير طويلة. إذ أنّ ألكسندر ليزين (A. Lézine) يعتقد أنّ حمّامات أنطونيوس لم تعد مزوّدة بمياه الحنايا في القرن السادس، إذ أنّه وقع الاستغناء عنها كحمّامات. وقد قطعها العرب عند الفتح مرّة ثانية وبقيت عاطلة إلى عهد الفاطميين حيث خصّوها ببعض الإصلاحات. لكن تبقى أهمّ الإنجازات المتعلّقة بالحنايا تلك التي أمر بها أوّل خلفاء الحفصيين وهو المستنصر بالله (1249-1277م) فبدأت الأشغال في 648 هـ وانتهت حسب ابن أبي دينار سنة 666 هـ، حيث أصلح الحنايا الرّومانية وأضاف إليها حنايا أخرى جديدة قصد سقي جنانه بأبي فهر وتسرّب جزء قليل من هذه المياه إلى جامع الزّيتونة «يستقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء» (العبدري) يذكر سولينياك (Solignac) أنّه ليس من الثابت أنّ هذه الترميمات في عهد المستنصر شملت الجزء المستغل من جوقار. وتتمثّل عمليّة التّرميم في تعويض الحجارة الكبيرة المصقولة والموجودة في واجهات الأعمدة أو بالعقود بأخرى صغيرة (moellon). كما أنّه تمّ تعويض العديد من الأعمدة بالتربة (pisé) وهو خليط من التّراب الحي



أشغال الترميم



مشهد لجزء من الحنايا أثناء ترميم الأعمدة والقناة

والكلس الصغير يوضع عن طريق طبقات الواحدة فوق الأخرى.

ويذكر ابن أبي دينار القيرواني أنّ ترميمات المستنصر لم تشمل كلّ أجزاء الحنايا. أمّا العبدري فهو يعتقد أنّ كمّيات الماء التي كانت تصل إلى مدينة تونس في آواخر القرن الثالث عشر لم تعد تفي بالحاجة ناهيك أنّ المتساكنين أصبحوا يعتمدون على تجميع مياه الأمطار.

وقد أثّرت الاضطرابات التي شملت البلاد في القرن الرّابع عشر على صيانة الحنايا، وفي النّصف الأوّل من القرن الخامس عشر ميلادي أمر الأمير الحفصي أبو فارس عبد العزيز ببناء خزّاني مياه ممّا يدلّ على أنّ هاته الحنايا لا زالت تموّل العاصمة بكمّيات هامّة من المياه. ومن المحتمل أنّ الأمير الحفصي أبو عمر عثمان (1435-1487) قام بترميم وصيانة الحنايا إذ هو أمر ببناء عديد المنشآت المائية بمدينة تونس، وقد فصل بين الصهاريج الملكيّة بباردو والقنوات التي تزوّد سكان مدينة تونس بالماء ممّا جعل المياه تصل إليها بانتظام.

ثمّ قام محمّد باشا سنة 1638 م بترميم الأجزاء المتضرّرة من الحنايا أمّا الباي حسين بن علي فلقد قام هو أيضا بين سنة 705 و 735 بترميمات هامة شملت المنظومة المائية بتونس والتي تعتمد أساسا على الحنايا. عموما فإنّ كميّات الماء المجلوبة إلى تونس من خلال الحنايا لا تتجاوز يوميا 14.000م^3 في العهد الحفصي بينما كانت تزوّد قرطاج يوميّا بـ 32 مليون لترا من الماء كما ذكرنا.

ثمّ تداولت عمليات التّرميم دون أهمّية كبرى وكان علينا انتظار الفترة الواقعة بين 1859-1862 لإعادة جزء كبير من المعلم إلى حالته الأصلية. وفي القرن العشرين

بقيت الحنايا مهملة ولم يخصها بالعناية سوى المهندس ألكسندر ليزين A. Lézine قصد إنقاذها من السقوط والإنهيار فوقع تدعيم جزء من الحنايا الواقع بسهل وادي مليان سنة 1953. ومنذ ذلك التّاريخ بقيت الحنايا في حالة سيّئة حتّى أصبحت مهدّدة بالإنقراض تماما وتمثّل خطرا على المتساكنين بقربها وعلى مستعملي الطّريق الرّئيسية رقم 3.

وإثر سقوط قوس من الحنايا على الطّريق (ط.ر.3) التي تربط تونس بزغوان في بداية 1999 قرّر المعهد الوطني للتّراث بالتّعاون مع وكالة إحياء التّراث والتّنمية الثقافية تكليفي بالإشراف على ترميم الجزء البارز من الحنايا الذي يربط بين منطقة ثكنة أوذنة ومدخل المحمديّة والبالغ من الطّول حوالي 4،5 كلم. وذلك نظرا لتواجدها قرب موقع أوذنة الأثريّة وإمكانية استغلال الآليات والعملة المختصّين والفنّيين المتوفرين في هذا الموقع. وتمّ ضبط خطّة للتّدخل لإنقاذ ماتبقى من هاته الحنايا. وقد خصّصت الوكالة لهذا الغرض اعتمادا طارئا قدره 150.000د وذلك بعد موافقة مجلس المؤسّسة. وانطلقت أشغال التّرميم والصّيانة والتّدعيم مع بداية شهر أفريل1999 وقد تلا هذا الاعتماد الأوّلي اعتمادات أخرى بلغت سنويا 200.000د. ورغم عمليّات التّرميم السّابقة التي وقع ذكرها فإنّه عند تسلّمي هذا الجزء وجدته في حالة سيّئة جدا يهدّد بالإنهيار، حتّى أنّ البعض منه انهار أمام أعيننا، لذا كان على الفريق المكلّف بالإنقاذ أنّ يتدخّل بسرعة حتّى ينقذ أوّلا ما يمكن إنقاذه ويحمي ثانيا مستعملي الطريق التي تربط تونس بزغوان من الخطر المحدق بها.

وإثر عمليّة التّرميم والتّدعيم اتّضح للفريق المرمّم أنه تمّ استعمال عديد الطرق لتدعيم هذه الحنايا وهي في بعض الأحيان لا تمتّ بصلة لأبسط قواعد التّرميم، فهمّ المتدخّلين كان أوّلا وآخرا إيقاف سقوط هذا الجزء دون مراعاة الشّكل الأصلي أو محاكاة مواد البناء الأصلية التي استعملت وهم معذورون في ذلك لأنّ الحالة السّيّئة التي كانت عليها هذه الحنايا وسرعة التّدخل تفرض ذلك.

أمّا الفريق المتدخّل الذي أشرفت عليه فلقد حاول قدر المستطاع تدعيم الأعمدة والأقواس المتداعية للسّقوط بأساليب علميّة تأخذ بعين الاعتبار خصوصيّة كل جزء من المعلم، غايته في ذلك إنقاذ هاته الحنايا من الضياع وإبرازها للمشاهد في مظهر لائق. أمّا ما تمّ إنجازه حتّى الآن فهو يتمثّل في ترميم حوالي 150 عمودا و75 عقدا بصفة كلّية وتدعيم جلّ بقيّة الأعمدة والعقود. ونشير إلى أنّ ترميم عقد فقط يمكن أن ينقذ جزءا كاملا من المعلم. كما وقع إعادة هيكلة جزء من القناة المقبّبة على المستوى الفوقي من المعلم قرب مفترق الطّريق المؤدّية إلى الخليدية على مسافة قدرها 20م لم يقع تغليفها بأيّة مادّة لتتميّز عن البقيّة. وقد حاولنا أن نجد اللّون المناسب، ووفّقنا في ذلك إلى حدّ ما، مع العلم أنّ مرور الزّمن والعوامل الطّبيعية من مطر وهواء وشمس ورطوبة سيكون لها مفعولها الايجابي من ناحية إعطاء هذا الجزء المرمّم أخيرا لونا مناسبا تستسيغه العين.

القصر الأثريّ و دوره في التّنمية المحليّة لمدينة الجم (*)

عماد بن جربانية

تعتبر «تسدروس»، الجم حاليا، إحدى أبرز المدن الرومانية بشمال إفريقيا. فبالرغم من محيطها الجغرافي الصعب (فمناخها شبه صحراوي وأمطارها قليلة وغير منتظمة وموارد المياه بها نادرة ومقاطع الحجارة نادرة) لعبت هذه المدينة دورا هاما بحكم موقعها الاستراتيجي الذي مكنها من أن تكون نقطة وصل بين الساحل والداخل وبين الشمال والجنوب. نشأتها تعود في حقيقة الأمر إلى العهد البوني (القرن الثالث قبل الميلاد وفقا للمعطيات الأثرية المتوفرة لدينا) الذي لم تتمكن خلاله على ما يبدو من بلوغ مكانة هامة تؤهلها لمزاحمة بعض المدن الأخرى آنذاك مثل «حضرموت» (سوسة) و«لبتيس» (لمطة). لكن لابد هنا من التذكير بالصعوبة التي تواجه الباحث في دراسة التاريخ البوني لهذه المدينة وذلك نتيجة لندرة المعطيات التاريخية والأثرية. فأول المعلومات التي وصلتنا والخاصّة بالوضعية السياسية والاقتصادية «لتسدروس» تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد.

فبعد أن تمت الإشارة إليها خلال الأحداث التي شملت البلاد التونسية وخاصة منها منطقة الساحل والتي تتعلق بالحرب بين أنصار الدكتاتور «جول سيزار»(CESAR)



«تيسدروس» تعتبر من أهم المدن الرومانية بالبلاد التونسية

*) نص مترجم لمداخلة تم تقديمها باللغة الفرنسية بمناسبة الملتقى الذي انعقد بمدينة باجة في شهر ماي 2005 حول المواقع والمعالم التونسية المسجلة تراثا عالميا ودورها في التنمية المستديمة.

وأنصار «بومبي» (POMPÉE)، أصبحت هذه المدينة تلعب شيئا فشيئا دورا هاما لتحقق بذلك خلال القرنين الثاني والثالث ميلادي فترة إقلاع في كل الميادين.

إن الثروات التي حققتها «تيسدروس» بفضل دورها التجاري وخاصة بفضل الإنتاج الهام لزيت الزيتون مكنتها من بناء عدة معالم لعل أهمها القصر الأثري الذي غالبا ما يؤرّخ إلى بداية القرن الثالث ميلادي.

ولا يزال إشعاع مدينة الجم منذ الفترة القديمة إلى اليوم مستمدا من هذا المعلم الضخم. كما أن تواجدها على بعد 30 كم من البحر وعلى الطريق الرئيسية التي تربط شمال البلاد بجنوبها جعلها منذ القديم منطقة عبور ومنحها اليوم دورا سياحيا هاما.

لكن لا يفوتنا في البداية أن نشير إلى المفارقة التي يطرحها اليوم وجود معلم هام وضخم مثل القصر الأثري، الذي يذكرنا بعظمة «تسدروس»، في مدينة متواضعة التجهيزات والإمكانيات ألا وهي الجم، التي لا يتجاوز عدد سكانها 18500 نسمة. فالسؤال الذي غالبا ما يطرحه العديد من الزوار هو لماذا يوجد هذا المعلم في مثل هذه المدينة ؟

لكن من ناحية أخرى، إضافة إلى قيمته التاريخية والأثرية يعتبر القصر الأثري المسجل ضمن قائمة التراث العالمي منذ سنة 1979 مرحلة رئيسية من مراحل المسلك السياحي للبلاد التونسية. بفضل العدد المرتفع للزيارات، يحتل هذا المعلم المرتبة الثالثة من حيث عدد الزوار بعد موقع قرطاج ومتحف باردو.

لذلك ونتيجة لما سبق ذكره، تطرح اليوم مدينة الجم جملة من الإشكاليات لعل أبرزها تلك المتعلقة بكيفية التوفيق بين القيمة الأثرية والسياحية لهذا المعلم من ناحية، ومستلزمات التطور الاقتصادي والاجتماعي للمدينة من ناحية أخرى. ويبدو أن السؤال الأساسي الواجب طرحه في هذا السياق هو: هل أن القصر الأثري بالجم يمثل عاملا من عوامل التطوّر المحلّي للمدينة ؟

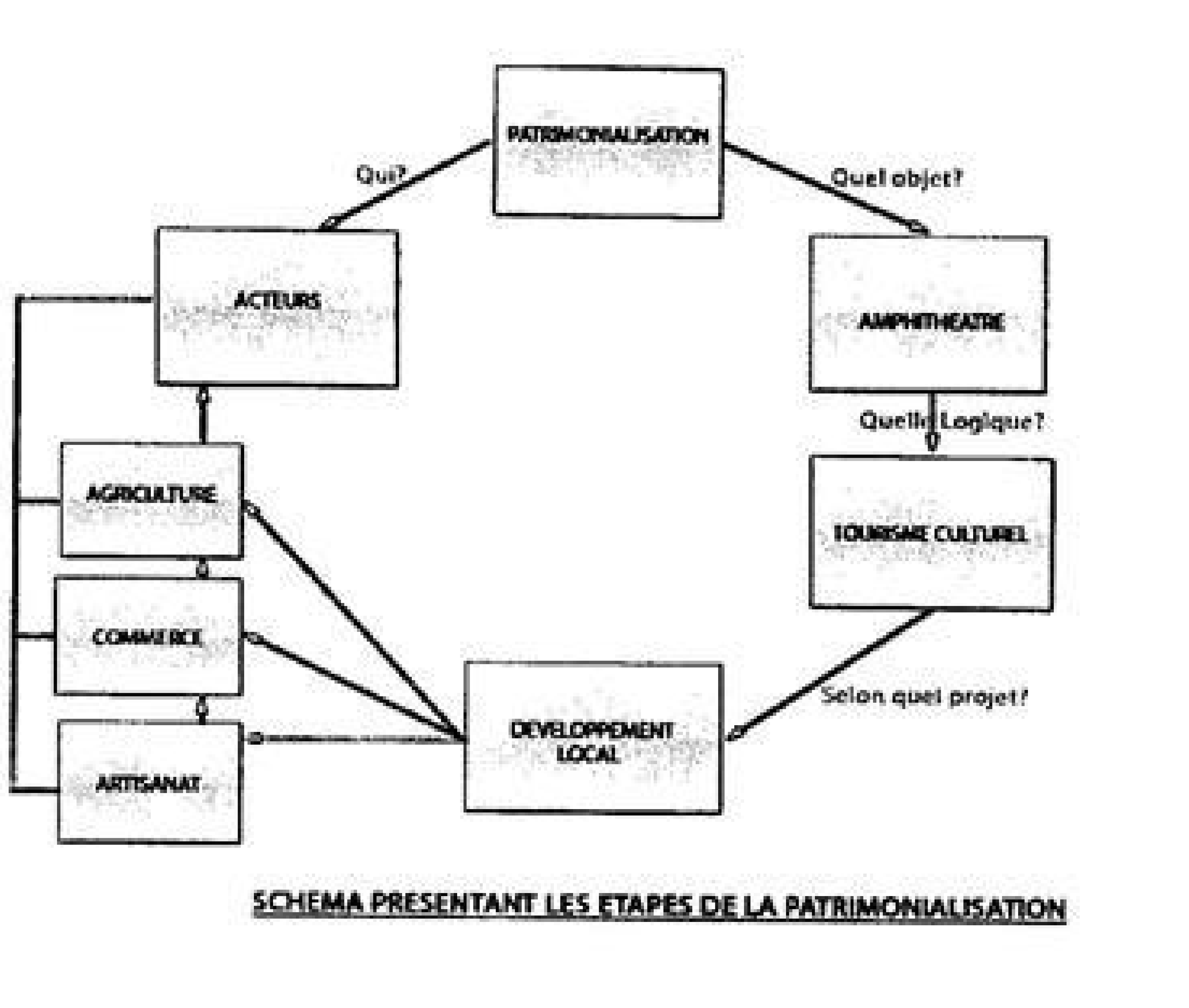
I – القصر الأثري ومكونات المدينة :

يبدو من الضروري في بداية الأمر تعريف القصر الأثري «كأداة تراثية» (objet patrimonial) ذات قيمة ثقافية وتاريخية تستقطب عددا هاما من السائحين والزوار ويحيط بها سكان كثيرا ما عبروا عن عدم انتمائهم لهذه الأداة، أي للقصر الأثري وتاريخه الروماني.

لكن يجدر التذكير أيضا بأن مدينة الجم لا تستمد قيمتها فقط من تاريخها وآثارها، بل أيضا من تقاليدها وتراثها الفلاحي والتجاري والصناعي. لذلك نعتقد أن حسن توظيف هذا التراث من ناحية وجعله في متناول المجموعة من ناحية أخرى يمكن أن يشكل عنصرا من العناصر الأساسية للتنمية.

في هذا السياق يبدو لنا أنه بفضل التعويل على السياحة الثقافية سيمثل القصر الأثري عاملا أو عنصرا باعثا للحركية والتطور الاقتصادي. فالسياحة الثقافية في رأينا، قادرة على توفير منتوج ذي قيمة مع المحافظة في نفس الوقت على التقاليد المحلية.

واستنادا لذلك يكون السؤال المطروح في هذه المرحلة من الدراسة هو الآتي: هل يمكن لمختلف مكونات هوية مدينة الجم (المعلم كأداة تراثية والسكان بمختلف أنشطتهم الاقتصادية) أن تعمل في إطار منظومة مشتركة هدفها التنمية المحلية؟



SCHEMA PRESENTANT LES ETAPES DE LA PATRIMONIALISATION

- إنّ من بين المكونات الأساسية لهذه المدينة نذكر:

ـ القصر الأثري:

يعتبر القصر الأثري النقطة الرئيسية التي تشد إليها كل الأنظار وتتمحور حولها جميع الأنشطة داخل مدينة الجم. فهذا المعلم الذي يعكس أهمية الفترة الرومانية لهذه المدينة، يستقطب سنويا قرابة 500000 سائح معظمهم يأتون في إطار رحلات منظمة. أما بالنسبة إلى مدة الزيارة فهي لا تتجاوز في غالب الأحيان أربعين دقيقة، ما جعل المدينة ومعالمها مجرّد «محطة أو نقطة عبور». إن هذه النوعية من السياحة الخاطفة (Tourisme éclair) لا يمكن أن يكون لها الأثر الإيجابي على التطور المحلي وإدخال الحركية الاقتصادية المنشودة.

ـ القصر الأثري والسكان «اللّجامة»:

لقد كان القصر الأثري طوال الفترة الرومانية مكانا مخصصا للألعاب. أما اليوم فهو فضاء معد للزيارة وإقامة بعض الأنشطة والتظاهرات الثقافية. لقد أفرز هذا المعلم بحكم موقعه الإستراتيجي نوعية معيّنة من النسيج الحضري تتميز بوجود منازل ذات طابق واحد لا يتجاوز ارتفاعها 6 أمتار، وهو محدد في حقيقة الأمر بعدّة قوانين تضبط عمليات البناء، لعلّ من أهمها ما يعرف «بزاوية الرؤية» الذي يهدف إلى عدم حجب الرؤية على المعلم المسجل تراثا عالميا.

وقد أدّت هذه القوانين في الواقع إلى نشأة علاقة نزاع متواصل بين التراث الأثري والسكان الذين أصبحوا يعبرون عن عدم انتمائهم لهذا الموروث الروماني بما فيه القصر. بذلك صار هذا الأخير بمثابة العائق بالنسبة لهم بعد أن كان يشكل في السابق قيمة تاريخية ورمزا للهوية.

طبيعة العلاقة بين سكان المدينة والمعلم

الوظيفة	الفترة
فضاء ألعاب	الرومانية
حصن	البيزنطية
ملجأ	العربية الإسلامية
فضاء مقاومة + مقطع حجارة	الفترة الاستعمارية
بداية الوعي بالقيمة الأثرية والتاريخية	سنوات 1960- 1970
Objet patrimonial أداة تراثية	من 1980 إلى اليوم

لكن بالرغم من هذه الوضعية لا يزال المعلم والفضاء المحيط به يستقطبان عددا هاما من الأنشطة التجارية. إذ ركّز هؤلاء السكان محلاتهم بمحيط القصر الأثري نتيجة لوعيهم بأهمية عدد الزوّار.

ولا يفوتنا في هذا الإطار التذكير بالدور التجاري الذي لعبته " تسدروس" الرومانية وتأتي اليوم مدينة الجم لتواصل في نفس النشاط، حيث أنها تعتبر مفترقا للتبادل التجاري ومكانا يزخر بعديد الأنشطة المرتبطة بالصناعات التقليدية. فإضافة إلى صناعة الجلد و"المرقوم"، شهدت المدينة خلال السنوات الأخيرة تطورا هاما لصناعة قديمة جديدة ألا وهي صناعة الفسيفساء التي أصبحت توفر عددا هاما من مواطن الشغل وصارت تمثل ثراء هاما للتراث المحلي.

لكن لابد من القول بأن الإستراتيجية المحلية المعتمدة على الربح السريع لا تأخذ بعين الاعتبار هذا التراث التقليدي. ففي ظل وجود "سياحة خاطفة" (Tourisme éclair) وفي ظل السعي إلى تحقيق هذا الربح السريع وقع الالتجاء إلى عرض مواد لا علاقة لها بالإنتاج المحلي، ولا تساهم بذلك في التنمية

المستديمة، إذ يتم جلب هذه المواد عادة من عدّة بلدان أخرى كمصر والصين.

السياحة الثقافية كأداة تنمية:

نتطرق هنا إلى السياحة الثقافية بوصفها أداة قادرة على إفراز تطوّر هام يضاهي ذلك الذي تبعثه مختلف الأنشطة الاقتصادية الأخرى.

ـ عنصران هامان يفسران اختيارنا لهذه الأداة كوسيلة تنمية:

1 ـ مدينة الجم غنية بتراث غير مستغل. التراث الأثري، خاصّة القصر، بيّن أهميته وقدرته على استقطاب عدد هام من الزوار. لذلك لابد من تطوير وإحياء الأنشطة التراثية الأخرى الموازية له.

2 ـ يوجد اليوم ظرف وطني وعالمي مناسب لاعتماد السياحة الثقافية عنصرا من عناصر التنمية المستديمة.

السؤال الذي يطرح نفسه اليوم إذن هو الآتي: هل لمدينة الجم الإمكانيات والتجهيزات الضرورية التي تمكنها من الاستجابة لمتطلبات سياسة السياحة الثقافية؟

ـ نعتقد أن وضعية المدينة اليوم من ناحية التجهيزات لا تساهم في الاعتماد على السياحة الثقافية. فالجم لا يمكنها أن تستجيب لمتطلبات إقامة السواح والزوار وليس لها القدرة على تقديم خدمات ذات نوعية راقية. ففي هذا الإطار نكتفي ربما بالإشارة إلى عدم توفر مسلك سياحي مهيأ وغياب هيكل سياحي (office de tourisme) يوفر المعلومات والإرشادات الضافية للزوّار.

ـ لذلك نرى أن انفتاح هذا التراث على السياحة الثقافية يتطلب ما يلي:

- التفكير في تهيئة الفضاء المحيط بالقصر الأثري ليكون قادرا على استقطاب الزوار دون حوادث.
- ربط هذا الفضاء بالأماكن الحيوية الأخرى بالمدينة.
- توفير فضاءات استقبال مجهزة.
- توفير العلامات الضرورية.
- توفير النزل والمطاعم ذات الخدمات الراقية.
- توفير المعلومات الضرورية والتفكير في كيفية إيصالها للزوار بمختلف انتماءاتهم.
- تشريك كل الأطراف (بلدية، منظمات...).
- توفير يد عاملة مختصّة.

II ـ نحو استغلال العدد الهام لزوار القصر في إطار سياحة ثقافية تنمّي المدينة:

نسعى في هذه المرحلة من الدراسة إلى تقديم جملة من الأفكار والمقترحات التي من شأنها أن توفر إجابة للمشاكل التي وقع طرحها.

هذه المقترحات تهدف إلى إيجاد علاقة تربط القصر الأثري بوصفه «أداة تراثية هامة» (objet patrimonial important) بمختلف مكونات المدينة، وذلك قصد خلق حركية اقتصادية واجتماعية بمساهمة من الأهالي. على هذا النحو تكون هذه العلاقة القائمة بين القصر الأثري والسكان عنصرا أساسيا من العناصر الفاعلة في التنمية المحلية.

ـ هذه المقترحات تتمثل في:

1 ـ تنويع مراكز الجذب «Les pôles d'attraction» لتوفير أنشطة وعروض مختلفة وذات قيمة.

2 ـ تشريك السكان في سياسة السياحة الثقافية.

3 ـ حسن استغلال الأعداد الهامة من الزوار بتسهيل إقامتهم بالمدينة.

4 ـ توفير المعلومة الضرورية.

1 ـ إن القصر الأثري بالجم بصدد تحقيق اكتفاء ذاتي من حيث عدد الزوار الذي يصل إلى قرابة 500000 سائح سنويا. لذلك لا بد من التفكير في تهيئة الفضاءات الأثرية الأخرى وإدخال الحركية الكافية عليها قصد استفادتها هي أيضا من هذا العدد.

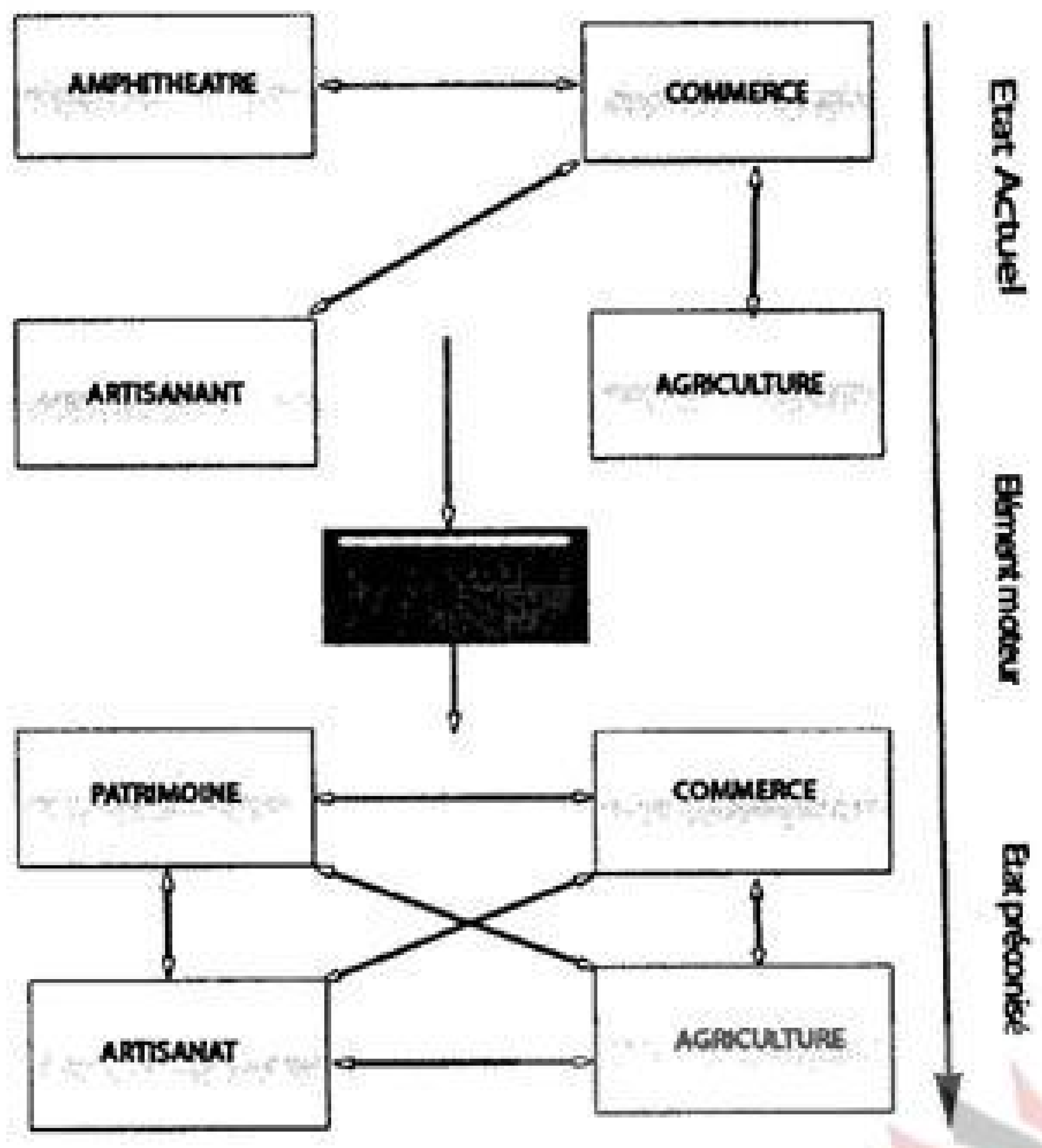
فإلى جانب القصر، تحتوي مدينة الجم على متحف هام ودار إفريقيا وقصر صغير وموقع للمنازل الرومانية. كما ننوه أيضا بأن تراث المدينة لا يقتصر على ماهو أثري بل يشمل عديد القطاعات الأخرى خاصة منها قطاع التراث الفلاحي وقطاع الصناعات التقليدية. هذان القطاعان بإمكانهما توفير المنتوج الكفيل بجلب الزائر وإدخال الحركية الاقتصادية والتجارية المرجوّة.

في نفس السياق نذكّر بالمكانة الهامة التي تحتلها الزيتونة في مجال التراث المادي واللامادي لمدينة الجم، فتوفير فضاء خاص بمتحف الزيتونة مثلا من شأنه أن يمكن هذه المدينة من ربط ماهو حضري بما هو قروي وربط العادات الفلاحية بالسياحة الثقافية.

2 ـ لابد هنا من مزيد تحسيس السكان بأهمية وثراء التراث المادي واللامادي لمدينة الجم. ونشير في هذا المجال إلى أن التظاهرات الثقافية التي تقام داخل المعالم الأثرية بالجم تساهم بصفة كبيرة في تجديد العلاقة بين السكان وتراثهم الأثري وإحيائها. إضافة إلى ذلك، فإن مثل بعض هذه التظاهرات كمهرجان الموسيقى السنفونية مثلا ومهرجان الفسيفساء، تلعب دورا هاما في التعريف بالمدينة وأهميتها لا على المستوى المحلي فحسب بل أيضا على المستويين الوطني والعالمي.

3 ـ من الضروري في هذا الإطار التفكير في إنجاز مسلك سياحي يربط القصر الأثري بمختلف الأقطاب الأخرى لمدينة الجم، ونعني خاصة هنا المتحف الأثري. هذا المسلك من شأنه أن يسهّل تجوّل الزوار داخل المدينة ويعطي بذلك الفرصة للسكان لتقديم منتوجهم التراثي وربط علاقة مع الزائر.

4 ـ تهيئة هذا التراث لا بد أن تكون مصحوبة بتوفير المعلومة الضرورية والكافية للتعريف به. في هذا الجانب على المدينة أن تكون مجهزة بنقاط وأماكن إرشادات توفر للزائر وللسكان المعلومات المتعلّقة مثلا بتاريخها ومختلف أنشطتها الثقافية.



الخلاصة :

لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة أن نبيّن كيف أن تراث مدينة الجم ثري وهام لكنه لا يساهم في عملية التنمية المحلية. فالقصر الأثري-كأداة تراثية تستقطب عددا هاما من السوّاح- بقي شبه منعزل عن بقية مكونات المدينة. فهو في الوقت الحالي مجرّد «repère spatial» تتركّز حوله عدّة أنشطة اقتصادية ذات انعكاسات إيجابية محدودة.

لذلك اقترحنا لتغيير هذه الوضعية وحتى يكون هذا المعلم عاملا محرّكا للتنمية المحلية مجموعة من المشاريع التي تدور حول فكرة السياحة الثقافية. بفضل هذه السياسة يمكن الربط بين مختلف مكونات المدينة من أجل غاية أساسية ألا وهي إعطاء قيمة للتراث وتقديمه لجمهور كبير ومتنوع.

واحة قابس وبحرها من خلال كتب الرّحلة

عمّار عثمان

انفردت قابس عن سائر المدن التونسية بل عن سائر مدن العالم بأهميتها الجغرافية حيث تميز موقعها الجغرافي بتوفر البحر والواحة والصحراء.

«فتوجد مدينة قابس تكاباس القديمة في مؤخرة خليج سرت، في أعلى مصب واد يحمل نفس الاسم يروي واحتها. وهي مدينة بحرية وصحراوية تتحكم في المجاز الضيق الواقع بين منطقة الشطوط والبحر، والرابط عن طريق البر بين البلاد الطرابلسية ومصر وتونس والمغرب» (1). هذا الموقع الجغرافي الفريد جعل هذه المدينة قبلة الزوار منذ القدم فأولى البعض منهم اهتمامه بها ودوّن ما تمتاز به خاصة عن الواحة والبحر.

وحديثنا هنا يقتصر على نظرة الرحالة نحو واحة قابس وبحرها، باعتبار أن كتاباتهم تعد من المصادر الرئيسية التي يمكن الاستناد عليها لما فيها من وصف مفصل ومشاهدات تساعد على فهم ما قد يتعذر فهمه عند قراءته في مصادر أخرى. وأردت أن أبين أيضا أن كلام هؤلاء في هذا الخصوص أمر لافت للنظر بشكل واضح على مدى التاريخ. ومع ذلك فلن يمنع هذا الالتزام من الاستعانة في توضيح أو تفصيل ما ورد في هذه الرحلات وبعض ما لم يرد فيها عن موضوع الدراسة بمصادر تاريخية لتكتمل الصورة. هذه الاستعانة تستمد شرعيتها من حقيقة أن البعض من هؤلاء الرحالة اهتموا بالكتابة عن قابس دون أن يروها أو يتجشموا السفر إليها. وبالتالي يمكن القول إن المدلول اللفظي لكلمة الرحالة أو الرحلة لا يقتصر فقط على الذين زاروا قابس فعلا بل من كتبوا عنها مستندين في ذلك على ما سمعوه إما في شكل روائي أو وصف جغرافي أو في شكل أشعار...

ولقد أوليت اهتمامي في هذا الموضوع نظرة الرحالة نحو واحة قابس وبحرها خلال العصر الوسيط معتمدا في ذلك بالأساس على مجموعة من الرحالة تضم ابن حوقل، المقدسي، البكري، الإدريسي، ابن سعيد المغربي والتيجاني. ويبدو أن هذا الأخير هو الوحيد الذي زار المدينة فكان شاهد عيان بحق. فقدم لنا قابس في صورتها التي كانت عليها زمن الرحلة، وهو بداية القرن الرابع عشر، بالإضافة لما يمتلكه من مستوى علمي وأدبي، لذلك كان وصفه أكثر دقة وثراء وثقافة وتيقظا من الآخرين الذين اكتفوا في كثير من الأحيان بنقل الأخبار دون ملاحظات ومواقف تترجم شخصياتهم العلمية. وبالتالي قد تكون معلوماتهم عن قابس تصور حالة أسبق من القرن الذي عاشوا فيه، غير أن ذلك لا يمنع استقاءهم لمعلومات مباشرة من رحالة عرفوهم أو من مصادر معاصرة لهم. وهنالك رحلات أخرى غير هذه يتعذر استيفاؤها لمجرد نقلها لنفس الأخبار والوصف.

لقد قدم لنا هؤلاء مادة متنوعة من بيانات جغرافية وتاريخية وأدبية ولمسوا عن كثب جوانب من الحياة

الاقتصادية والاجتماعية في مدينة قابس ولفت انتباههم عمرانها فوصفوه، واسترعى انتباههم واحة قابس وبحرها فأفادونا بتفاصيل عن بعض جوانبها، فكان بعضها مثار استغرابهم أو إعجابهم والبعض الآخر مثار استنكارهم ونقدهم.

وينقسم هذا البحث إلى شقين أولهما حول ما قيل عن الواحة، وثانيهما ما ذكر عن البحر.

الواحـــــة :

أول من اهتم بالتدوين عن واحة قابس خلال العصر الوسيط، اليعقوبي في القرن الثالث (توفي بين سنة 282 و292 هجري 895 و905 ميلادي)، الذي تكلم بشكل عام عن الواحة معتبرا قابس مدينة هامة ومزدهرة وفيها من الأشجار والثمار الكثير: «كثيرة الأشجار والثمار والعيون الجارية» (2).

وأمدنا ابن حوقل، في منتصف القرن الرابع هجري/ العاشر ميلادي، ببعض التفاصيل عن منتجات الواحة من زيتون وحرير، حيث قال في كتابه صورة الأرض (3): «وقابس مدينة منها (طرابلس) على ست مراحل إلى جهة القيروان. وجادة الطريق ذات مياه جارية وأشجار متهدلة وفواكه رخيصة. وبها من البربر الكثير. ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم، إلى زيتون وزيت وغلات... ويعمل بها الحرير الكثير الغزير... وهي خصبة في أكثر أوقاتها...» (4).

وفي أواخر القرن الرابع هجري/العاشر ميلادي أضاف المقدسي في كتابه أحسن التقاليم في معرفة الأقاليم (5) أن الواحة تنتج النخيل والعنب والتفاح «قابس أصغر من طرابلس. لهم واد جرار... كثيرة النخيل والأعناب والتفاح مسورة...» (6).

ولنا أن ننتظر أواسط القرن الخامس/ الحادي عشر ميلادي حتى نرى وصفا أكثر تفاصيل عن تميز الواحة بإنتاج الفواكه فائقة بذلك القيروان، خاصة الموز والتوت وقصب السكر، والتأكيد على ما قاله ابن حوقل حول إنتاجها للحرير ونوعيته وعن كبر مساحتها التي تصل مقدار أربعة أميال، حيث قال عنها البكري في كتابه المسالك بعد حديثه عن عمران المدينة «...وفيها جميع الثمار والموز بها كثير. وهي تتميز عن القيروان بأصناف الفواكه. وبها شجر التوت الكثير، ويقوم من الشجرة الواحدة من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها. وحريرها أطيب الحرير وأرقه. وليس في عمل افريقية حرير إلا في قابس واتصال بساتين ثمارها مقدار أربعة أميال. ومياهها سابحة مطردة يسقى بها جميع أشجارها. وأصل هذا الماء من عين خرارة في جبل بين القبلة والغرب منها يصبّ في بحرها. وبها قصب السكر كثير.» (7).

وفي أواسط القرن السادس هجري/الثاني عشر ميلادي وافانا الجغرافي المغربي الشريف أبو عبد الله الإدريسي (494-562هـ/ 1100-1166م) في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (8) أو الكتاب الروجاري (9) بأكثر تفاصيل عن الواحة. فذكر كثرة زيتونها وزيتها وتصديره إلى الخارج والتمر الرطب الكثير الطيب وكيفية حفظه ورخص الفواكه كدليل على وفرتها، فقال: «وقابس مدينة جليلة عامرة حفت بها من نواحيها غابات جنات ملتفة وحدائق مصطفة وفواكه عامة رخيصة. وبها من التمر والزروع والضياع ما ليس بغيرها من البلاد. وفيها زيتون وزيت غلات... ويتصل بآخر غابة أشجارها إلى البحر، رملة، متصلة مقدار ميل. وهذه الغابة أشجار وجنات وكروم وزيتون كثير ويستعمل منه زيت كثير يتجهز به إلى سائر النواحي. وبها أيضا نخل ملتف به من الرطب الذي لا يعدله شيء في نهاية الطيب. وذلك أن أهل قابس يجنونها طرية ثم يودعونها في دنانات. فإذا كان بعد مدة من ذلك خرجت لها عسلية تعلو وجهها بكثير ولا يقدر على التناول منها إلا بعد زوال العسل عنها من أعلاها. وليس في جميع البلاد المشهورة بالتمر شيء من التمر يشبهه ولا يحاكيه ولايطابقه في علوكته وطيب مذاقه...»(10).

وفي القرن السابع هجري/ الثالث عشر قدم رحالة

مغربي أيضا، وهو ابن سعيد المغربي علي بن موسى العنسي (685هـ/ 1286م) في رحلته وصفا لواحة قابس شبهها فيه بدمشق الشام، وأضاف عن سابقيه أنها تنتج حب عزيز والحناء حيث قال عنها: «. . . مدينة قابس التي هي في افريقية كدمشق في الشام. وينزل إليها نهران من الجبل في جنوبها يخترقان غوطتها، وينبوع جداولها عليها. وقد اختصت من بين بلاد افريقية بالموز وفيها الرطب الكثير الطيب. وحب عزيز والحناء. . .» (11).

وفي بداية القرن الثامن هجري/ الرابع عشر ميلادي وصف لنا الرحالة التونسي التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الواحة عند رحلته إلى الحج مارا بقابس حيث قضى أربعة أيام في جمادى الأولى سنة 706 هجري/ نوفمبر 1306 ميلادي، فكان شديد الإعجاب بها واعتبرها جنة الدنيا وأكد أن معظم الواحة ما بين المدينة والبحر، فقال في رحلته: «. . . فأشرفنا على غابة قابس ووصلنا إليها ضحى، فرأينا بلدا قد استوفى المحاسن واستغرقها، وأذكر بمنظره الأنظر، وورقها الأخضر جنة الخلد وإستبرقها، وقد أحدقت غابته من جميع جهاتها، وبهذه الغابة من الجواسق والنخل المتناسق ما يستوقف الطرف ويستوفي الحسن والظرف ويحقق ما قيل من أن قابس جنة الدنيا، وأنها دمشق الصغرى. . . ولها واد يسقي بساتينها ومزارعها ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها وأصل هذا الوادي من عين خرارة في جبل بين القبلة والمغرب منها. وأكثر جناتها فيما بين المدينة والبحر. وبتلك الجهة الساحة المعروفة بساحة عنبر» (12).

ونقل لنا التجاني ما وصفه ابن عمه الفقيه والكاتب البليغ أبو الفضل محمد بن علي التجاني للواحة والبحر وما اقتضبه من الأنس والراحة مما ألهمه قصيدة شعرية يقول فيها:

«اذكر عشيتنا بساحة عنبر (13)

والجو يتحفنا بنكهة عنبر

حيث النخيل عرائس بسط الحيا

بسطا لها من أخضر أو أصفر

والشمس تستحي فتستر وجهها

عنا بستر للعروس محبر

والنور بين مفضض ومذهب

والنور بين مدرهم ومدثر

والنهر والغدر أدرعن تحصنا

إذ صفت الغابات صف معسكر

والبحر يرمقنا بمقلة أزرق

والبر يرمقنا بمقلة أعفر

في جنة لونلت من خلد بها

قصدي بلغت إلى النعيم الأكبر

ومحل أنس قلت بين رياضه

برياضة قادت لأبهى منظر. . .»(14)

ونقل التجاني أيضا وصف أبي المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي، قاضي قابس خلال مدة الخليفة المستنصر، لبساتين هذه المدينة ونخيلها قائلا: «بلد غوطي البساتين، طوري الزيتون والتين، فأما النخل فجمع عظيم، وطلع هضيم وسكك مأبورة ونواعم في الخدور مقصورة، وأن بقعته لوارفة الظل آمنة الحرم والحل، جنة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل، وبالجملة فهو تام الغرابة مدهام الغابة مستأثر بسيد من سادات الصحابة، ولاعيب بتربته إلا وخامة مائها، وحميات قلما يعرى من عدوائها»(15).

اعتمادا على ما تقدم يمكن القول إذن أن واحة قابس كانت متسعة ومزدهرة ومصدر ثروة للمدينة بانتاجاتها المتنوعة من تمر وموز وحناء وزيتون وتوت وحرير وتصديرها ليس عن طريق البر فقط بل عن طريق البحر الذي يعتبر مكملا طبيعيا لهذه الواحة.

البحـــــر

أول من ذكر البحر من الرحالة، البكري في أواسط القرن الحادي عشر حيث قال إن المسافة بين مدينة قابس والبحر ثلاثة أميال وساحلها مرفأ للسفن من كل مكان وبها منار منيف. ويحدو الحادي عند قدومه من مصر إلى إفريقية فيقول: لا نوم، لا نوم ولا قرار حتى أرى قابس والمنارا (16). وخلافا للبكري، فإن الإدريسي في أواسط القرن الذي يليه قلل من قيمة مرفأ السفن حيث قال متحدثا عن قابس «. . . ومرساها في البحر ليس بشيء، لأنه لا يستر من ريح، وإنما ترسي القوارب بواديها، وهو نهر صغير يدخله المد والجزر وترسى فيه المراكب الصغرى وليس بكثير السعة. وإنما يطلع المد للإرساء نحو من رمية سهم. . . » وعن علاقة الغابة بالبحر قال: ويتصل بآخر غابة أشجارها إلى البحر، رملة، متصلة مقدار ميل. . . »(17).

وفي القرن الثالث عشر أكد ابن سعيد المغربي ما قاله الإدريسي عن بعد المدينة عن البحر ثلاثة أميال وقال إنّ المراكب المتوسطة تدخل نهرها (18).

وفي بداية القرن الرابع عشر قال التجاني، الذي زار قابس، إنّها «مدينة بحرية صحراوية فإنّ الصحراء متصلة بها والبحر على ثلاثة أميال منها» ومن شدة إعجابه بذلك قال إنّها أحق بقول ابن عيينة وهو عبد الله بن محمد المهلبي في مدحه لقصر عيسى بن جعفر بالخريبة:

«زر وادي القصر نعم القصر والوادي

وحبذا أهله من حاضر بادي

ترسي قراقره والعيس واقفة

والضب والنون والملاح والحادي»(19)

مدحها كذلك بأبيات قيلت في مدح البصرة، تعكس حياة البحر وكثرة سفنه:

«يا جنة فاقت الجنان فما

لعلقها قيمة ولا ثمن

صاهر حيتانها الضباب بها

فهذه كنة وذا ختن

من سفن كالنعام مقبلة

ومن نعام كأنها سفن» (20)

يتضح مما سبق أن بحر قابس كان به مرفأ موئلا للسفن وبالقرب منه منار للمراقبة. فكانت إذن المراكب في العصر الوسيط تصل إلى غاية ميناء قابس «الذي كان يعتبر نقطة الوصل الملائمة بين التجارة البرية والبحرية والتجارة الصحراوية».

ويؤكد التجاني ما قاله البكري عن موقع المنار وشهرته ومدى ارتفاعه: «وبشرقي قابس موضع يعرف بالمنارة، كان به منار مرتفع يظهر للآتي من جهة المشرق قبل وصوله إلى البلد بمسافة بعيدة، وقد سقط الآن فلم يبق له أثر. . (21). ويبدو أن موقعه هو نفس المكان الذي يسمى اليوم بالمنارة بجنوب شرقي المدينة، فتواصلت التسمية بعد اندثار المعلم. وهذا الموقع قريب من البحر مما يؤكد وجود المنارة لمراقبة السفن في البحر والدفاع عن سواحل إفريقية خاصة أن مصادر القرن الثالث عشر أشارت إلى وجود رباط البحر أو مسجد الصهريج على ضفاف البحر، الذي لا نعرف موقعه بالضبط، والذي كان يتصل مثلما هو الشأن في الإسكندرية وبطرية بمنار المنارة. ويبدو أن الرباط والمنار يعودان إلى الفترة الأغلبية للعديد من الأسباب: أولا أن أول من أشار إلى المنار هو البكري في القرن الخامس هجري، والمعروف عنه أنه استقى معظم معلوماته عن الوراق الذي عاش قبل هذا القرن. ثانيا أن حركة المرابطة والمرابطين وبناء الرباطات والمحارس والمنشآت الدفاعية العسكرية، على السواحل خاصة، بدأت منذ العهد الأغلبي (22). كما أشارت المصادر إلى وجود رباط أو قصر عيشون على بعد ثلاثة أميال جنوب قابس (23). يبدو أنه قرب وادي السراق بالمكان المعروف بهنشير الشقاف (24). ثالثا أن قابس عرفت نوعا من الاستقرار في العهد الأغلبي وصارت أهم بلد

في الناحية ومركز ولاية طيلة القرن الثالث هجري الذي يعتبر عهد سلام بالنسبة لها (25).

وتتجلى أهمية بحر قابس ومينائه أيضا عندما تطرق التجاني إلى الصراع الذي حدث بين أمير قابس رافع بن مكي بن جامع في بداية القرن السادس هجري وأمير المهدية علي بن يحيى بن تميم، مشيرا إلى اعتناء رافع بن مكي بالأسطول البحري في قابس وصنع سفينة كبيرة ساعده عليها والد هذا الأخير الأمير السابق للمهدية للدفاع عن ساحل المدينة. «وكان يحيى يحتمل لرافع أمورا منها: أن رافعا أنشأ بساحل قابس سفينة أعدها لما يعرض له في البحر من الأمر فلم يبد يحيى إنكارا لذلك بل أعانه عليها وأمده بما احتاجه إليها فيها، فلما ولي أنف عن ذلك وكره أن يقاومه أحد من أهل إفريقية في إجراء السفن في البحر، فأنفذ أسطولا إلى ساحل قابس لمنع هذه السفينة من الإقلاع وأخذها إن أقلعت...» (26).

نفهم من ذلك إذن أن مرفأ قابس لم يكن يأوي السفن الصغيرة والمتوسطة فقط، بل كانت ترسو فيه أو على الأقل بالقرب منه في خليج أعمق السفن الكبيرة.

ومما يسترعي الانتباه ما قاله الرحالة حول مسافة الغابة التي تفصل مدينة قابس عن البحر التي قدروها بثلاثة أميال. فهل أن الواحة كانت تغطي فعلا كل هذه المساحة لتبعد قابس المدينة كل هذه المسافة عن البحر خلال العصر الوسيط؟ ما نلحظه كذلك أن هؤلاء الرحالة لم يولوا اهتمامهم البحر مثل الواحة وهو ما نستشفه من خلال الحيز الذي خصصوه في أخبارهم عن الواحة الذي يفوق بكثير ما نقلوه عن البحر. يبدو أن ذلك مرده أولا تميز الواحة وكبرها وجمالها وطيبها، مما طغى على عدم اهتمامهم بالبحر وثانيا أن الرحالة كانوا يجوبون البر في طريقهم إلى الحج وعبروا قابس عن طريق ما يسمى بالطريق الدخلانية التي تبعد عن البحر وتشق الواحة. وثالثا لتشابه البحر الذي وصفوه في مدن أخرى أجابوها عدا بعض الخصوصيات التي تميز بحر صفاقس مثلا ظاهرة الموت والحياة والمد والجزر وطرق الصيد (27).

مهما يكن يتضح مما سبق من أخبار الرحالة، أن قابس خلال العصر الوسيط كانت وليدة الواحة والبحر معا، فواحتها كانت متسعة ومزدهرة، موفرة الزيتون والنخيل والموز والتوت والحناء والحرير وشتى المزروعات وبحرها قد وفر لها مرفأ لتصدير كميات ضخمة من إنتاجها، كما وفر لها غلاله، والمناخ الرطب الذي ساعد على وفرة الإنتاج لمختلف الفواكه والخضر، مما جعل التجاني ينقل قولا يعكس هذا الازدهار الاقتصادي وهذا التكامل، وهذا التناغم الذي عاشته هذه المدينة بين الواحة والبحر حيث قال: «يقال إنه لا يجتمع في مائدة صيد البر وصيد البحر وأصناف التمر إلا في مائدة من يسكن قابس» (28). ثم في معرض حديثه عن صفاقس يقول: «وفواكهها مجلوبة إليها من قابس» (29) مؤكدا بذلك ما قاله ابن حوقل: «...وفاكهتها من قابس...» (30). لم يكن للتقلبات المناخية والسياسية والثورات التي عرفتها المدينة تأثير سلبي دائم على الواحة والبحر، فما قيل عن تخريب الواحة سنة 474 هـ أيام تميم بن المعز لدين الله الصنهاجي عند حصاره قابس أو قطع الغابة وتخريبها تخريبا تاما أيام ثورة يحيى بن إسحاق الميورقي سنة 591هـ أو حرقها سنة 685 هـ عن طريق جيوش الثائر الأمير أبو زكريا الحفصي أو سنة 789هـ أو عند افتكاك عبد الوهاب بن مكي قابس من الوالي الحفصي وإرسال أبي العباس أحمد الثاني السلطان الحفصي (772-796هـ) جيشا جرارا وحاصر المدينة وقطع نخل غابتها وخرب واحتها تخريبا تاما (31)، يبدو أمرا مبالغا فيه، فأخبار الرحلة أكدت تواصل هذا الازدهار الذي عرفته واحة قابس منذ القدم كما ذكر بلين (23-79 م) الذي قال: «وفي بساتينها نرى الزيتون يصعد في ظلال النخيل وفي ظل الزيتون ينبت التين، وفي ظلال هذا نجد أشجار الرمان وتحت هذه يعرش العنب وتحت العنب يزدهر القمح وأنواع الخضر. كل هذا يثمر في سنة واحدة وكله في ظلال وبساتين ممتدة، ولهذا الخصب يبلغ ثمن المتر المربع الواحد من تلك الأرض دينارين فضة» (32). تواصلت أهمية الواحة ودوراهما في الحياة الاقتصادية

والاجتماعية حتى أثناء الفترات الصعبة التي مرت بها المدينة لكن بأقل وتيرة. ففي مطلع القرن السادس عشر يقول الحسن الوزان الذي زار تونس عام 1517 أن أهل قابس تفرقوا في الواحات وكانوا يحترفون الزراعة أو صيد الأسماك (33). غير أن هذا الأخير لم يشر إلى وفرة إنتاج الواحة وصادراتها عبر مينائها البحري. لكن هذا التراجع لم يدم طويلا، فلفتت الواحة أنظار الرحالة من جديد خلال العهد الحديث، كالورثلاني الذي زارها في القرن الثاني عشر هجري وقال عنها في كتابه نزهة الأنظار: «فيها مياه كثيرة وبساتين من نخل ورمان وعنب وتين وفواكه جمة... كثيرة المزارع كثيرة الحناء بحيث لا تساويها في ذلك بلدة» (34). أو جون سيرفوني وفردنون لافيت اللذان زارا قابس أواخر القرن التاسع عشر وتحديدا سنة 1888 حيث أسفرت رحلتهما إلى هذه المنطقة بتدوين ملاحظاتهما في كتاب عنوناه خليج قابس في سنة 1888 (35). وصف هؤلاء واحة قابس بدقة متناهية وأعجبا بها شديد الإعجاب لدرجة أنهما قالا من الصعب التعبير بكلمات عن إحساسهما وهما يدخلان واحة قابس، حيث اندهشا من خضرتها وجمال منظرها وتعدد فواكهها وغلالها وطريقة ريها وأنواع طيورها وطيب هوائها. وفي أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عبر محمود مقديش (1742-1813) في معرض كلامه عن صفاقس عن تعدد الفواكه بواحة قابس ونوعيتها الجيدة التي تجلب إلى صفاقس قائلا: «...يجلب إليها من قابس نفيس الفواكه، وعجيب أنواعها...» (36).

الهوامش والإحالات

1) ناجي جلول، الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1999، ص ص 174-175
2) البلدان، القاهرة، 1937، ص 208
3) نشر دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان 1979.
4) صورة الأرض، ص 72.
5) نشر دى خويه، ليدن 1909.
6) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 224
7) المسالك والممالك، بيت الحكمة قرطاج والدار العربية للكتاب، 1992، ج2، ص ص 665-666
8) تم نشر هذا الكتاب في إيطاليا، نابولي-روما 1974.
9) نسبة إلى روجار الثاني ملك صقلية النورماندي الذي استدعى الادريسي، فرسم له خريطة العالم على دائرة فضية مسطحة Planisphere ثم ألف له كتابا في وصف هذه الخريطة وهو كتاب نزهة المشتاق.
10) نزهة المشتاق، ص 109.
11) اسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 270
12) رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، 2005، ص ص 103-104
13) أكد المرزوقي في كتابه قابس جنة الدنيا، صفحة 27 وما بعدها، أن «مكان ساحة عنبر غريبي المنزل لأنه المكان الوحيد المعروف بهذا الاسم ولأن أجمل منتزهات الغابة موجودة في هذه الجهة».
14) التجاني، مصدر مذكور، ص 104
15) المصدر نفسه، ص 105.

16) البكري، مصدر مذكور، ص 666.

17) نزهة المشتاق، ص 109.

18) إسماعيل العربي، مرجع مذكور، ص270.

19) التجاني، مصدر مذكور، ص 103.

20) المصدر نفسه، ص 103

21) المصدر نفسه، ص 108

22) أنظر حول هذا الموضوع، ناجي جلول، مرجع مذكور، ص175

23) موقع عدد 147,102 بالخارطة الوطنية للمواقع الأثرية والمعالم التاريخية، تونس 1998، قابس 147، ص57.

24) بلقاسم جراد، قابس عبر التاريخ، قابس 2001، ص 59

25) Muhammad TALBI, "Kabis", EI2, pp 351.

26) التجاني، مصدر مذكور، ص 111.

27) مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، 1988، ج1، ص 108

28) المصدر نفسه، ص 103

29) المصدر نفسه، ص 68

30) صورة الأرض، ص73.

31) محمد المرزوقي، قابس جنة الدنيا، القاهرة، 1962، ص ص 42-46.

32) نفس المرجع، ص6.

33) محد الطالبي، مقال مذكور، ص 351.

34) نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، نشر محمد بن أبي الشنب، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، المجلة 192، ص 652.

35) Le Golf de Gabes en 1888 par Jean SERVONNET et docteur Ferdinand LAFFITE, Ecosud, Paris 1888.

36) نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مصدر مذكور، المجلد الأول، ص 108.

الجامع الكبير بمدينة توزر أو جامع بلد الحضر : دراسة تاريخيّة معماريّة

جهينة بوترعة

يقع الجامع الكبير أوجامع بلد الحضربالمركز القديم لمدينة توزر والمسمى بلد الحضر وهوما يثبته الواقع الأثري وما أجمعت حوله المصادر العربية والأوروبية التي تعرضت في وصفها إلى نواة المدينة الأصلي قبل تطورها التاريخي وتوسعها العمراني وما انجر عنه من تغير في نسيجها العمراني وموضعه. وتعتبر مدينة توزر من أهم مدن بلاد الجريد ومن أقدم المراكز العمرانية والحضارية حيث عرفت أقدم أشكال الإستيطان ابتداء من عصور ما قبل التاريخ ومرورا بعصور التاريخ القديم الروماني وصولا إلى العصر الإسلامي. ويبقى هذا الجامع بدرجة رئيسة أهم الشواهد المعبرة على العمارة الإسلامية خلال الفترة المبكرة، ويحتل المعلم الناحية الجنوبية الشرقية من المساحة المستطيلة لهذا المركز. وبه من الجهات الثلاث غير الشرقية بقايا الأبنية القديمة تتخللها أبنية حديثة الإنشاء ولا يمكن الحديث عن قرية بلد الحضر دون التعريج على أهم البناءات بها والمتمثلة علاوة على الجامع موضوع الدرس في أضرحة بعض العلماء والفقهاء أصيلي الجهة، مثل ضريح أبو الفضل النحوي وضريح الشقراطسي وأبنائه إلى جانب قبر ابن الشباط. وهذه المعالم تبتعد حوالي المائتي متر من الجهة الغربية للجامع وتنتهي بمقبرة في المنطقة المجاورة.

I - الدراسة التاريخية للجامع الكبير من خلال بعض المصادر والمراجع :

إن رصد وتتبع ما كتب حول الجامع الكبير من خلال المصادر والدراسات بمختلف أصنافها مكننا إلى حد ما من تسليط بعض الأضواء على تاريخه وعلى خصوصياته المعمارية والفنية، حيث قدم لنا الجغرافيون والرحالة العرب والأوربيون معطيات جاءت في مجملها مقتضبة أوفي شكل إشارات فضلا عن احتفاظ المصادر العربية بمعطيات معادة ومتطابقة رغم امتداد الفترة الزمنية التي تغطيها وذلك من جراء ظاهرة الإقتباس.

وتبقى أهم المصادر الأدبية التي أفادتنا حول عمارة وتاريخ المعلم تتمثل في نص البكري والعالم الأندلسي المعروف بالدلائي (أحمد بن عمر بن دلهاث الزغبي العذري العباسي) وأبوعمروعثمان بن حجاج - وهوفقيه وأديب وضع كتابا في التاريخ كما يذكر ذلك ابن الشباط والوزير السراج - وتكمن أهمية هذه

النصوص على كونها أقدم الشواهد المكتوبة على وجود المعلم علاوة على متانة عمارته التي لفتت اهتمام واصفيه(1).

كذلك نقف عند أهمية شهادة أصيل مدينة توزر ابن الشباط خلال القرن الثالث عشر الميلادي الذي يحمل نصه إشارات تحيلنا على الشبه بين الجامع موضوع الدرس ومسجد القيروان أول مسجد للمسلمين ببلاد المغرب وهو مدرسة معمارية وفنية اقتبست منها معظم المعالم الدينية (2).

ويبقى وصف كل من ابن الشباط وأبي عمر وعثمان بن حجاج على أهميته مقتصرا على عنصر المئذنة وسنة إقامتها وأسلوب بنائها ومادته إذ يذكر ابن حجاج: «إن ابتداء الصومعة بجامع توزر كان سنة ثماني عشرة وأربعمائة هجرية وتمامها سنة اثنين وعشرين وأربعمائة هجرية وقد اختصت بأربع قباب... يقول كل من رآها ممن جال شرقا وغربا، بعد أوقرب ما رأيت مثلها ولا عاينت في الأقطار شكلها» (3). ويضيف ابن الشباط معطيات دقيقة حول أسلوب بنائها ومادته فيذكر في هذا الصدد: «وأخبرني بعض شيوخ بلدنا أن الباني الذي بناها شرع في بنائها إلى أن انتهى إلى موضع منها بالقرب من أعلاها، وكان يبني كل ما بني (منها) بالصخر الكبير حتى انتهى إلى ذلك الموضع فحضرته الوفاة... وكل البناء بصخر دون الصخر الأول في العظم وهوالآن بيّن بنفسه» (4)... وبخصوص الجامع يقول عند شرحه لقول الدلائي: لها جامع شريف إنه أقيم على رتبة جامع القيروان إلا أنه بمقاييس أقل وإن قبة الباب الشرقي سقطت بعض دعائمها وبقيت معرضة لخطر السقوط إلى أن انهار بيت في تلك الأثناء وجدت به دعائم ملائمة للقبة فدعمت بها وذكر أنه اعتمد هذه المعطيات على إضافات بعض الثقاة من شيوخ بلده. ولم تشر المصادر السالفة الذكر إطلاقا إلى عنصر المحراب بالرغم ممّا ينطوي عليه هذا الأخير من طرافة استثنائية بالنسبة للمعلم باستثناء مصدر متأخر وهو نص الرحالة أبي بكر العياشي الذي تطرق إلى المحراب خلال القرن السابع عشر الميلادي في إطار حديثه عن المسجد «...ثم يوم رحيلنا دخلت إلى البلد القديم أيضا... ودخلت المسجد القديم ورأيت في محرابه منقوشا ما هذا صورته «نقشت هذه القبلة سنة كذا وتسعين وخمسمائة»...»(5).

بالرغم من اقتضاب ونقص المعلومات التي قدمتها المصادر العربية الإسلامية والتي من شأنها أن جعلت المعلم يتسم بالغموض فهي تبقى مفيدة بخصوص تاريخ تأسيس بعض عناصره وفي وصفها وتصويب ما جاء من أخطاء تاريخية حول أصول المعلم الرومانية في كتب بعض الرحالة المحدثين والمعاصرين، أمثال شارل تيسوالذي قدم وصفا لجامع بلد الحضر معتبرا إياه كنيسة، وهو يعتبر أول مؤسس لفكرة ارتكاز مئذنة جامع بلد الحضر فوق قاعدة رومانية هذه الفكرة التي سار عليها كل الذين جاؤوا من بعده خاصة قيران وديفيريي في منتصف القرن التاسع عشر. وتفرد سلادان عند حديثه عن مئذنة المعلم بفكرة إقامتها على قاعدة ضريح حيث يذكر ما نصه:

«لا نشاهد هنا سوى قاعدة مربعة المقطع يبدو أنها تابعة لضريح قديم سابق للفترة الإسلامية (6)». ولكن تكمن قيمة نص سلادان في تقديمه بعض الأوصاف لعناصر المعلم المعمارية مثل الأساطين والمحراب، فهو أول من قدم بعض الخطوط للمقارنة في مستوى صنف الزخرف الذي يكسو المحراب والمحاريب المغاربية. أما بوني (Penet) فقد سلط بعض الأضواء حول تراجع حجم المعلم الحالي، ويضيف أن لا طريف له سوى محرابه. وتبقى دراسة ج. مارسي من الأهمية بمكان لدقتها بخصوص وصف محراب معلمنا وتعرضها بإطناب لوحداته الزخرفية. ويميل مارسي إلى الاعتقاد بأن صاحب هذا المحراب هو «المغامر المرابطي يحيى بن غانية الذي أعطى الأمر إلى تحسين الجامع إلى فنانين أندلسيين أومغاربة»(7) على الرغم من عدم تصريح نص النقيشة باسم

صانعـها التي جاءت كالتالي «نقشت هـذه القبلة سنة تسعين وخمسمائة رحم الله مـن دعا لصانعها بالرحمة» وانتهى مارسي في كتابه حـول العمارة الإسلامية في الغـرب الإسلامي إلى تصنيف محراب جامع بلـد الحضر ضمن المحاريب المغربية المرابطيّة.

وهكذا تتكون لدينا صورة تقريبية حـول جـذور المحـراب تتمثل في كونـه ينتمي إلى النمط المغربي الأندلسي هـذا البعد المغربي أكد عليه بوانسو الـذي افترض أن تاريخ تأسيسه هو سنة 1194. ويذهب المرحوم سليمان مصطفى زبيس في وصفـه لعنصر القبة تقنية إنشائها لإلحاقها بقباب الجامع الكبير بالقيروان وسوسة وجامـع الـزيتونة بتونس. ويميل إلى تصنيف جامـع بـلـد الحضر ضمن الموروث المعماري الصنهاجي الذي تـرك بصماته في مستوى شريطين كتابيين في ركني إطاره.

II- جامع بلد الحضر: دراسة معمارية فنية:

أ - تخطيط الجامع:

يكتسي الجامـع في شكـلـه العام شكـلا غـيـر منتظـم حيث يحتل مساحــة منحرفــة تميل إلى الاستطالة بين الشرق والغرب أقصاها بين (37.75 X 17 م).

وتقدر المساحة المغطاة للمعلم ب:(418 م^2)، أما المساحة غير المغطاة فتقدر ب:(1942م^2) فتكون بذلك المساحة الجملية (2360 م^2).

يتألف الجامع من وحدتين معماريتين تقليديتين وهما بيت الصلاة والصحن.

- بيت الصلاة: تـتـسم بـصغر حـجـمها وأبـعادها ويـقدر متوسط ارتفاع بيت الصلاة ب: (5.50 م).

وقسمت الأساطين بيت الصلاة إلى خمس بلاطات عرضية موازية لجدار القبلة أكثرها اتساعا البلاطة الموازية مباشرة لحائط القبلة، وسبع بلاطات طولية أوسعها المجاز القاطع. إذن نجد أنفسنا بوضوح أمام التصميم المعروف حسب شكل التّاء اللاتيني أوالشكل المتصالب الذي تتميز فيه البلاطة المتعامدة مع جدار القبلة، أوكما اتفق على تسميته بالمجاز القاطع وهو تصميم اعتادت المساجد بالمغرب الإسلامي إبرازه لإضفاء ميزة خاصة لاتجاه القبلة علاوة على بعده العملي هـذاالشكل الذي أمدنا المسجد الجامع بالقيروان بأول نموذج له في إفريقية.

- الصحن: ضيّـق محدث على الجانب الشرقي لبيت الصلاة مساحته مستطيلة بين الجنوب والشمال وهوغير متساوي الأضلاع أقصى حدوده: (7.75 X16.50 م).

وينخفض متوسط ارتفاع الصحن مقارنة بمستوى بيت الصلاة ليساوي (3.50 م).

وتحتـل الجهـة الشمالية مـن الصحن ظلة عـمـقـها: (5.75م) يقسمها إلى رواقين بائكتين مـوازيـتـيـن للجدار الشمالي بكـل بـائـكة قوسان متجاوران يرتكزان على عمود إسطواني/اسطوانة في الوسط ودعامتان مقطعهما مستطيل في الطرفين.

ومما يثير استغرابنا موضع الصحن باعتباره يشـذ عـن التنظيم المعتاد في العمارة الدينية الإسلامية التي تستوجب صحنا للجامع وسيطا مكشوفا تقابله ظلة القبلة تبنى فيه عادة الصومعة. ويسمح لنا هذا الموضع بافتراض أن الفناء المكشـوف العاري مـن الجدار المقابل لبيت الصلاة حاليا كان صحن بيت الصلاة في القديم، وأن هـذا الأخير قد ألحق بها في فترة ما. إضافة إلى إحداث ملحقات ومنافع في داخـــل وخارج المعلم ليست لها صبغة أثرية مثل الميضأة والسور المحيط بالمعلم.

ب - العناصر والتفاصيل المعمارية:

1 - العناصر الحاملة و/ أو الأساطين.

تتكون كل البلاطات العرضية / البائكات باستثناء الأمامية المقابلة لجدار القبلة من ستة أعمدة إسطوانية الشكل وتنتهي في كل من طرفيها بعمود نصف اسطواني

مندمج في الجدار ومن سبعة عقود على شكل حدوة الفرس متجاورة أوما يصطلح على نعتها بالعقود الإفريقية لانتشار استعمالها بهذه المنطقة. وتعلوهذه الأساطين أكتاف تستوي أفقيا في الطرف الأعلى لحمل السقف.

وتختلف البائكة المستثناة بأن عموديها الأوسطين مربعا المقطع يتوسطهما عمودان ذوا شكل إسطواني كما تنفرد البلاطة الطولية الشمالية الجنوبية التي تفضي إلى المحراب بظاهرة الأساطين المتوأمة وهو هاجس سيطر على التصور الفني الإسلامي نلمس منه أسلوبا زخرفيا غايته إبراز قيمة المجاز الأعظم باعتباره اتجاه القبلة. وتغلب على أساطين جامع بلد الحضر البساطة فهي إجمالا متجانسة من حيث الشكل والأبعاد ومادة البناء وأسلوبه المعماري، وتنبت معظم الأعمدة من الأرضية مباشرة بينما يرتكز بعضها على قواعد حجرية مختلفة الأشكال وتتراوح بين المربع والمستدير، تتألف الأعمدة بأسلوبين إما من قسمين مركبين : قسم سفلي من الحجارة قليل الارتفاع وآخر علوي من قوالب الآجر المثلثة الشكل. وإن تتفاوت هذه الأعمدة في مستوى الطول بفروق ضئيلة فهي تبقى متجانسة في مستوى القطر وينتهي كل من الأعمدة إلى وسادة تتمثل هذه الأخيرة في قطعة مستطيل تختلف مادتها لتكون تارة حجرية وتارة أخرى من خشب المشمش أومن خشب النخيل، وتستجيب دائما للشكل المستطيل. تنتهي هذه الوسادات بتيجان ذات مقطع مستطيل مدرج من جهتين في اتجاه امتداد البائكة، سطحه الأسفل مربع أما الأعلى فمستطيل وذلك بسبب التدرج الذي يحدثه أسلوب تصميمها.

وتتكون هذه التيجان من قسمين، كل منهما مهيأ بواسطة قوالب الآجر يعطي انتظامهما شكلا مستطيلا وهونفس الشكل لكامل تيجان المعلم وتضطلع عقود الأساطين بمهمة حمل سقف بيت الصلاة وتتكون هذه الأخيرة من صنجات الآجر المنتظم بطريقة متناسقة تتعاقب فيها آجرة تتجه بطولها نحومركز القوس بآجرتين مركبتين تتجهان بعرضهما في نفس الاتجاه.

كما اعتمدت تقنية ربط أرجل الأقواس بأخشاب النخيل الصلبة وهوأسلوب يضمن تماسك المعلم.

ويتسم المعلم بعدم الانتظام في توزيع هذه الأساطين لغياب الدقة في المسافة الفاصلة بين منبت كل عمود عدم الإنتظام قد يجد تفسيرا له أيضا في تاريخ المعلم الذي احتفظت أرضيته الحالية بمخلفات بناء قديم.

2 ـ سقف جامع بلد الحضر :

يتميز سقف جامع بلد الحضر الخشبي المسطح بالطرافة التي تتجسد في طريقة توزيع وتنظيم جملة من مواد البناء المتألفة أساسا من أخشاب جذوع النخيل (الجائزة والربعي) (8)، ومن الطين الذي غيّر في مراحل لاحقة بالجير وهوملاط وطلاء في آن واحد إضافة إلى الرمل وكسر الآجر.

3 ـ قبة بيت الصلاة : طراز مقام على المقربصات في صورة حنايا أركان:

حافظت قبة بيت الصلاة المجددة على الطابع الأصلي للقبة الأولى حيث تتألف من ثلاثة عناصر : القاعدة المربعة المشيدة بحجارة ضخمة ومهندمة معادة الإستعمال، والرقبة المثمنة والطاقية الكروية، تهيئ مناطق الانتقال الركنية فيها مقربصات بشكل عقود مدرجة وهي عناصر معمارية تؤمن انتقالا سلسا من داخل القبة بين القاعدة والطاقية وتتخلل القبة جملة من الفتحات والكوى.

4 ـ المحراب :

يفضي المدخل الرئيس الذي يحتل الواجهة الشمالية لبيت الصلاة إلى محراب يتمركز بمحور جدار القبلة يتبع نموذجا مجوفا ضمن إطار مستطيل وبارز. يشكل محراب جامعنا إستثناء بالنسبة لمحاريب الجوامع الإفريقية بحيث لا يقتصر على الطاقة المجوفة بل يتجاوزها ليهيئ كامل الجزء الذي يوجد بجدار القبلة بين كتفي المجاز الأعظم.

5 ـ المئذنة : يبقى أهم عنصر بصحن المعلم على

الإطلاق هوالمئذنة التي توجد على بعد حوالي 40م. مـن الواجهة الشمالية الشرقية لبيت الصلاة وتتألف من قسمين يبلغ ارتفاعها حوالي 10.05 م. أما القسم العلوي المتمثل في الجامور فهـو مقطوع وهـو القسم الذي أفادنا حوله أصيل مدينة توزر ابـن الشباط وقدم لنا صورة واضحة حول تفرده بأربع قباب صغيرة، هـذا الجامور سوف يصبـح من مميـزات العمارة الواحية حيث نجده بجامع سيدي مزهود بنفطة وبمسجد أولاد ماجد بقرية دقاش.

III – خصوصيات الجامع الكبير بتوزر بين العمارة الإفريقية والمغربية الأندلسية :

يمثل جامع بلـد الحضر بأسلوب تصميمه وبعض جزئياته الزخرفية نسيجا بين الحضارة الإفريقية والحضارة المغربية الأندلسية، ولئن طبعت هــذه الأخيرة أسلوب تصميم عنصر المحراب وتوزيع عناصره الزخرفية واختيار مـواضيعها، فإن تأثير الحضارة الإفريقية يبقى واضحا في أسلوب تخطيط بيت الصلاة وهيكلة بعض عناصره المعمارية. مـن ذلك قبة المحراب وقاعدة المئذنة الأصلية وأسلـوب توزيع زخرفة الواجهة الجنوبية لبدن المئذنة المحـدث في فترة متأخـرة تتوافق مـع إحداث الميضاة وبيت الصلاة باستثناء جدار القبلة، فضلا عن الصحن الضيق الموجود بشرقي بيت الصلاة.

1 – تأثير المدرسة القيروانية في عدة مستويات إنشائية وتقنيات فنية :

أ – مخطط بيت الصلاة :

صممت بيت الصلاة وفـقا للأنموذج القيـرواني الأغلبي الذي أصبح مطردا في العمارة الإفريقية والمغربية إجمالا. وهو ما سبق التطرق إليه في العنصر المتعلق بتخطيط المعلم، كما نلمس التشابه بين المعلمين في بعض العناصر المعمارية مثل العقود التي تحاكي عــقود الجامع الكبير بالقيروان بكونها متجاورة. إضافة إلى احتفاظ المجاز القاطع بمبدإ يستمد أصوله من الجامع الكبير بالقيروان وهو إزدواجية الأساطين والذي إضافة إلى البعـد الجمالي الذي يضفيه على المجاز القاطع يخفي دورا معماريا يتمثل في تقوية المجال الحامل للقبة. وترسم هذه الأخيرة مربعا يقوم على عقـود متجاورة مثل ما هـوالشأن بالنسبة للجامع الأغلبي والجوامع الأولى التي استلهمت أسلوبه كالزيتـونة. وقد أشار مارسي إلى التشابه في روح العمارة بين جامع القيروان وجامع بلد الحضر (9).

ب – القبة :

يرى ج. مارسي أن قبة جامع القيروان فرضت شكلها حتى الفترة الحديثة على عــديـد القباب الإفريقية التي نـذكـر من بينها قبة جامـع سوســة وقبة جامع الزيتونة بتونس وقبة جامــع صفاقس. ولعل قبة جامــع بلــد الحضر، على الرغـم من بساطة تصميمها وزخرفتها هي الأخرى لم تشذ عن هـذه المجموعة حيث نلاحظ شبها هيكليا بين قبة جامع القيروان وقبة جامع بلد الحضر خاصة في الشكل الخارجي العام وشكل الرقبة المثمنة في كلتا القبتين التي تحقق الإنتقال من القاعــدة إلى الطاقية ونسجل التشابه في معالجة مسألة فنية وهي الانتقال مـن المساحة المربعة إلى المساحة الدائرية وذلك بواسطة حنايا أركان تأخذ صورة عقـود. وإن ذهب مارسي إلى كـون قبة جامع بلـد الحضر مقامة على عقود مستوحاة من قبة جامع القيروان فذلك لا يخفى وجود اختلافات جوهرية مـن حيث حجم القبتين والحلية الزخرفية لكليهما حيث تبرز الموازنة ضعف قبة جامع بلد الحضر من حيث الأبعاد والكساء الزخرفي ومادة البناء.

ج – المئذنة :

يجمع هذا العنصر المعماري بين نموذجين: نموذج يستمد أسلوبه من الجامع الكبير بالقيروان، ويعكسه الجزء القديم للمئذنة 418 – 422 هجري / 1027-

1030 الميلادي. أي القاعدة ونموذج ثان يستمد أصوله من نمط المنطقة نلمسه في الجامور.

ويعكس هذا النمط شكلا معماريا تمليه أذواق واتجاهات فنية محلية ورثتها الواحات وربما كانت لها جذور عميقة قبل الإسلام. ويتضح لدينا من الداخل انطلاقا من المسقط الأفقي أن قاعدة المئذنة ذات مخطط مربع المقطع يفضي مدخلها إلى مدرج ذي راحات يدور في اتجاه المشرق مع زاوية قائمة (أي بشكل مربع) انطلاقا من دعامة مركزية.

أما من الخارج فالشبه يكمن مثل ماهو الشأن بالنسبة إلى مآذن الجوامع الأولى التي بقيت وفية للإرث الأغلبي في بناء قواعدها بواسطة استعمال صخور ضخمة إضافة إلى كونها معادة الإستعمال مثل مئذنة الزيتونة وصفاقس.

د - صورة الرواق المزدوج بالجامع الكبير بتوزر :

إن إثبات انتقال تقليد معماري أغلبي مصدره الجامع الكبير بالقيروان متمثلا في تصميم رواق مزدوج بالصحن إلى جامع بلد الحضر استنادا إلى معلومات شفوية متواترة كان من قبيل المغامرة لولم تثبته أسبارنا التي أجريت في مواضع قريبة من المئذنة، والتي أفرزت نتائجها وجود بعض قواعد لأساطين الرواق المندثر (10).

2 - الخصوصية المحلية للجامع الكبير بتوزر :

وفي مقابل هذه التقاليد المستلهمة من جامع القيروان نلمس بعدا محليا واضحا في عدة تقنيات معمارية وتصورات فنية ومن بينها :

أ - الجامور : ابتكار معماري وذاتية قوية بمئذنة جامع بلد الحضر :

تتفرد مئذنة جامع بلد الحضر بجامور يحمل أربع قباب صغيرة عكس المألوف وقد اعتبر ابن الشباط ذلك من أغرب البنيان وبدائع الإتقان. وفي نفس هذا السياق يضيف ميرسيي (Mercier . M) بأن المجموعات البربرية الصحراوية مثل إباضية تاهرت أفرزت أشكالا معمارية طريفة ذات تعبيرات ثرية ومتنوعة ولعل أبرز نموذج لها يتمثل في مئذنة جامع غرارة الذي يتميز جاموره بشكل فريد «في صورة أربع أصابع منتصبة» (11) وهذا يذكرنا بهذه التأثيرات المحلية التي نجدها في المجالات الواحية الصحراوية.

ب - عناصر التهوئة والإنارة وأساليب تصريف مياه الأمطار :

نلمس خروجا عن قواعد العمارة الإفريقية في أسلوب تصميم الفتحات بأعلى واجهات المعلم وهي التي أطلقنا عليها إسم : «الكوى» استنادا إلى ضيقها الذي لا يسمح إلا بمرور النور والهواء. وهذا النظام من الفتحات العالية الذي ميز معلمنا وبصفة عامة المعالم التوزرية هوعلى غرار السائد في العمارة العربية الإسلامية الكلاسيكية.

كما نسجل إستثناء في مسألة اعتماد الموازيب وتهيئتها بواسطة جذوع النخيل، ونجد صدى لهذا النظام في عمارة خط الواحات المعروف بخط السوس من المغرب إلى مصر واليمن.

بلد الحضر وتطوّره في الفترة الإسلامية دراسة تاريخية أثرية. كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، 2001.

3 - محراب جامع بلد الحضر والبعد المغربي الأندلسي:

يتّبع محراب جامع بلد الحضر نموذجا لم تعهده محاريب الجوامع الإفريقية وذلك من حيث هيئته العامة وتفاصيله الزخرفية ومادة إنشائها والتي يوضح تحليلها تأثيرا مغربيا أندلسيا. ويتضح هذا التأثير بالنسبة للمستوى الإنشائي والفني في تجاوز المحراب للطاقة المجوفة ليمتد على كامل الجزء من جدار القبلة

المحدد بالمجاز الأعظم أفقيا ومربع القبة عموديا وهوما يعطي للمحراب هيئة الأبواب المعقودة على شاكلة المحاريب المغربية.

ويشكل القسم الأول حنية المحراب التي يكتنفها من جانبيها عمودان يحمل كل منهما تاجا ويحيط بعقد حنية المحراب إفريز من الزخرفة .

أما القسم الثاني فهومؤلف من إفريز تختلف مواضيعه الزخرفية وفقا لاختيارات الفنان، وأخيرا قسم علوي يمثل إفريزا زخرفيا ينتهي إلى مربع القبة. ويستمد محراب جامع بلد الحضر أيضا مبدأ تباين المواضيع الزخرفية التي تكسو فضاءه بين عناصر هندسية ونباتية وأخرى خطية من المحاريب المغربية بشقيها المرابطي والموحدي. يبرز كذلك الاتصال الوثيق بمحاريب المغرب الأقصى إلى جانب الشكل والمواضيع الزخرفية في أسلوب تنفيذ النقوش ومادتها حيث يجمع محراب معلمنا بين أسلوبين لتنفيذ زخارفه ينتميان إلى السجل الزخرفي المرابطي وهما المراوحة بين درجات الحفر عند تنفيذ السطح الزخرفي فضلا عن توخي صنف من النقش ينفذ بواسطة تفريغ أرضية العنصر الزخرفي يعرف بالنحت «المخرم» إضافة إلى هذه القواسم المشتركة مع المحاريب المغربية لابد من الإشارة أن كل هذه الزخارف منفذة بواسطة النقش على الجص.

الخاتمة:

وختاما لهذا العرض الذي قدمنا من خلاله بعض الملاحظات المتعلقة بتاريخ الجامع الكبير بمدينة توزر، إضافة إلى خصوصياته المعمارية والفنية نتنهي إلى كون العنصر الوحيد المتبقي من الجامع الحالي والذي جدد على أساس اختصار للوحدات الإنشائية لجامع سابق شيد على نمط جامع القيروان هو جدار القبلة الذي يحتوي بدوره على المحراب المغربي الأندلسي المضاف إليه في فترة لاحقة. هذا المحراب هوالعنصر الوحيد الذي يحمل تاريخ تأسيسه في نص منقوش بباطن حنيته وهي أقدم نقيشة نسخية بإفريقية تعود إلى إلى القرن السادس هجري / الثاني عشر الميلادي ولعلها الأقدم بالمغرب بعد نقيشة محراب الجامع الكبير بتلمسان المؤرخة سنة: 1135 الميلادي.

وتجدر الإشارة بأن الجامع الكبير بتوزر أو «جامع بلد الحضر» شكل بخصوصية عمارته تواصلا وقطيعة في الآن نفسه مع الأشكال المعمارية الإفريقية إذ لمسنا استناد وحداته وعناصره المعمارية إلى موروث معماري اقتبست منه أغلب المعالم الدينية بإفريقية وخارجها وهو الجامع الكبير بالقيروان الذي مثل مدرسة معمارية تميزت بطرازها المعماري. حيث أخذ جامع بلد الحضر عنه تخطيطه العام وبعض عناصره المعمارية مثل القبة وقاعدة المئذنة غير أن هذا التشابه لا يلغي الاختلاف الصارخ بين البناء، وضخامة المساحة والأساليب الزخرفية للمعلمين حيث يحتفظ المعلم بصورته الفقيرة بروح جامع القيروان.

في حين تجسمت سمات القطيعة في بعض العناصر المعمارية للمعلم وأساليبه الفنية في عنصر محرابه الذي أضفى بتركيبته العامة وبسجلاته الزخرفية بعدا مغربيا أندلسيا على المعلم.

أخيرا اتضحت إضافات المعلم في ابتكاره لأساليب تقنية وتصورات فنية محلية استمدت جذورها من موروث ثقافة الجهة. ونعني بذلك الأساليب التقنية المتمثلة في أسلوب تسقيف المعلم وإنشاء الأساطين والجدران فضلا عن مواد البناء المعتمدة التي تتألف أساسا من قوالب الآجر بمختلف أشكاله؛ المربع والمستطيل والمثلث وفقا للمواضع التي ستهيئها ومادة الجبس والجير والطين وأخيرا الأخشاب التي تهيئ سقف المعلم وسواكف الفتحات والمداخل وهي في مجملها مواد محلية. ومن العناصر الطريفة الملتصقة بعمارة المعلم نضيف عناصر التهوئة

والإنارة المستمدة من أصول العمارة الإسلامية الكلاسيكية إلى جانب أساليب تصريف المياه في شكل موازيب من خشب النخيل وهو تقليد مرتبط بعمارة الواحة .

كما تجسدت التصورات الفنية الطريفة التي اختص بها المعلم في الصورة الفريدة التي وصلتنا عن المئذنة أوبالأحرى عن جامورها الذي انتهى بأربع قبيبات مخروطية الشكل.

المصادر والمراجع

- ابن الشباط (محمد)، **صلة السمط وسمة المرط**، مخطوط المكتبة الوطنية، تونس، عدد 3208.
- البكري (أبو عبيد عبد الله) **المغرب في ذكر بلاد إفريقيّة والمغرب**، الجزائر، 1957 .
- التجاني (عبد الله بن محمد)، رحلة التجاني، تونس 1958 .
- العيّاشي (أبو عبد الله) رحلة العيّاشي ، ج . 2، فاس ، 1316 هـ / 1898 م.
- مجهول الاستبصار، الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد 1986
- الوزان (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا، ج .2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت 1983 .
- السراج (محمد بن محمد الأندلسي الوزير)، الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة، ج . 1 قسم 2 تونس، 1970، ص 396- 397 يذكر بخصوص الدلائي أنه عالم أندلسي إسمه أحمد بن عمر بن دلهاث الزغبي العذري العباسي المعروف بالدلائي، ولد بقرية دلاية (قرية من قرى الأندلس) سنة 393 هجري / 1003 ميلادي. توفي سنة 478 هجري / 1085 ميلادي.

- Guérin (V.), Voyage Archéologique dans la Régence de Tunis, 2 vol. Paris,1862.
- Marçais (G), Coupoles et plafonds de la grande Mosquée de Kairouan, Notes et Documents, T. VIII, Paris, 1925.
- Marçais (G), Le Mihrâb Maghrébin de Tozeur, Mémorial Henri Basset, T.XIII, Paris, 1928.
- Cagnat (R.), Saladin (M.), Voyage en Tunisie .
- Mercier (M.), Notes sur une architecture Berbère Saharienne, T.8 Hespéris, 1928.
- Penet (P.) Kairouan S beittla Le Djerid, Tunis, 1912.

الهوامش والإحالات

1) : البكري (أبو عبيد عبد الله) المغرب في ذكر بلاد إفريقيّة والمغرب ، الجزائر ، 1957 ص 48 يذكر حول الجامع الكبير بتوزر ما نصه... «...ولها (أي توزر) جامع محكم البناء...» .
- السراج (محمد بن محمد الأندلسي الوزير)، الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة، ج . 1 قسم 2 تونس، 1970، ص 396- 397 يذكربخصوص الجامع الكبير: «...جامع شريف ...» وفي الصفحة 433 و434 من نفس المصدر يذكر ما أورده أبو عمرو عثمان بن الحاج بخصوص عنصر المئذنة.

2) ابن الشباط (محمد) ، صلة السمط وسمة المرط ، مخطوط المكتبة الوطنية ، تونس ، عدد 3208 . ورقة 79 الوجه .

3) السراج (محمد بن محمد الأندلسي الوزير)، الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة، ج. 1 قسم 2 تونس، 1970، ص 433- 434

4) الشابي (خالد)، إفريقيّة والمغرب من خلال كتاب صلة السمت وسمط المرط في الفخر المحمدي لابن الشباط التوزري، أطروحة دكتوراه، 1977، الجامعة التونسية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص 54-55.

5) العيّاشي (أبو عبد الله) رحلة العيّاشي ، ج . 2، فاس ، 1316 هـ / 1898 م ص 408.

6) Cagnat (R.), Saladin (M.), Voyage en Tunisie .

7) Marçais (G), Le Mihrâb Maghrébin de Tozeur, Mémorial Henri Basset, T.XIII, Paris, 1928 P 46.

8) الجائزة : تتكون من جذع نخلة يقع شقها طوليا إلى نصفين كل منها على شكل نصف اسطواني وتهذيب الحافة الحادة في كل من جانبيه .

- الربعي : أخشاب قصيرة تقطع من جذع نخلة بنفس طريقة قطع الجائزة لكن تحوّل طوليا إلى ثلاث أوأربع أخشاب ويقع تهذيب جهاتها الأربع بعد أن تقطع عرضيا إلى أجزاء تكفي لمدها فوق ثلاث جوائز

9) -marcais (g.), l'architecture musulman d'occident, paris 1954, P. 77.

10) بوترعة (جهينة)، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في الآثار ومعرفة التراث بعنوان : الجامع الكبير بمدينة توزر أوجامع بلد الحضر وتطوّره في الفترة الاسلامية، دراسة تاريخية أثرية. كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 2001.

11) Mercier (M.), Notes sur une architecture Berbère Saharienne, T.8 Hespéris, 1928 P 52 - 50.

موقع مييننكس (هنشير القنطرة) جربة

علي درين

الموقــع :

توجد المدينة التاريخية القديمة مييننكس بالجنوب الشرقي لجزيرة جربة من جهة افريقيا أي المنطقة القارية وهي مطابقة لهنشير القنطرة الحالي نسبة الى الطريق او القنطرة المنسوبة للرومان التي تربطها منذ العصور القديمة بالمنطقة القارية في اتجاه مدن طرابلس والصحراء.

تاريــخ الموقــع :

خلال القرن السادس قبل الميلاد كانت مييننكس تحت نفوذ قرطاجة على غرار منطقة سرت الصغرى (المطابقة لخليج قابس) التي كانت تسمى أيضا بمنطقة الامبوريا Emporia، (مفرد امبوريون Emporion) وتعني «المراكز المصرفية والتجارية» وتنطبق هذه التسمية على مدن تاريخية مشهورة تطل على ساحل سرت الصغير مثل تاكابي Tacape (قابس)، جيقتي Gigthi (بوغرارة)، مييننكس Meninx (القنطرة)، زوخيس (Zuchis) (المدينة جنوب بحيرة البيبان). . .

وقد تركت هذه الفترة شواهد أثرية هامة من بينها معبد اكتشف بمدينة تالة (3 كلم شمال مييننكس) كان مخصصا لعبادة آلهتي قرطاجة تانيت وبعل حامون إضافة إلى مجموعات فخارية (صحون - جرار- أكواب - مصابيح. . .) وهي بونية الأصل. غير أن الوجود البوني بمييننكس وبضواحيها لا يقتصر على معبد تالة بل يشمل كذلك معالم أخرى لا تزال مطمورة لأن الحفريات التي أنجزت بهذا الموقع منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى الفترات الحالية (2006) اقتصرت على إبراز المعالم الرومانية التي شيّدت من الأرجح على أنقاض المعالم الراجعة إلى الفترة القرطاجية.

إثر الحرب الثانية بين روما وقرطاجة سنة 202 ق. م. استغل النوميديون وعلى رأسهم الملك ماسينيسّان ضعف قرطاجة فشرعوا في السيطرة على أراضي قرطاجة، ومن بينها منطقة الامبوريا وكان ماسينيسّان يخطط منذ أن بدأ في تكوين مملكته للاستيلاء عليها بسبب ثرائها مثلما تثبته مصادر تاريخية.

بعد أن وافقت روما ضمنيا على مخططه في الاستحواذ على هذه المنطقة، قام ماسينيسّان بغزو مدنها فسيطر عليها وأجبرها على دفع الضرائب لفائدته بعد أن كانت مخصّصة في السابق لخزينة قرطاجة. وإضافة إلى ثرائها كان لمنطقة الامبوريا أهّمية استراتيجية لأنها تعتبر همزة وصل بين الممتلكات الشرقية لماسينيسّان وأسلافه والقوى الهيلينستية التي كانت تسيطر على الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط.

وقد ترك النوميديون آثارا بجزيرة جربة تتمثل في بعض العناصر المعمارية التي تذكرنا بمعالم هيلينستية وإغريقية شرقية تأثر بها النوميديون تأثّرا كبيرا وقد لاحظ الآثاريّون هذه التأثيرات خاصّة على معلم ضريح بورقو ومعالم اخرى اكتشفت بضواحي مييننكس.

وقد خضعت منطقة الأمبوريا للنفوذ النوميدي خلال فترة طويلة تناهز القرن.

إثر انتصار يوليوس قيصر على خصومه من اتباع بومبي بواقعة تابسوس (رأس ديماس شمال مدينة المهدية) سنة 46 ق.م، أصبحت هذه المنطقة تحت النفوذ الروماني تابعة إداريا لمقاطعة إفريقيا البروقنصلية، وابتداء من القرن الرابع ميلادي أصبحت تابعة لمقاطعة طرابلس Tripolitaine.

مثلت مييننكس من القرن الثالث ق.م إلى القرن الثالث ميلادي المركز الأساسي للجزيرة التي اقترن اسمها بها وقد أشعّت خلال هذه الفترة بفضل علاقاتها التجارية المتطورة والمنظمة مع عدة مدن متوسطية. وبلغت أوجها في القرنين الثاني والثالث ميلادي فورد اسمها في مصادر أشهر المؤرخين والجغرافيين القدامى مثل بوليبوس (قرن 2 ق.م) وتيتوس ليفيوس (قرن 1 ق.م) الجغرافي استرابو (قرن 1.م.) ابلينوس الأكبر (قرن 1 ميلادي) وبطوليماوس (قرنان 1 و 2 م.)...

المعالــــم:

تمتدّ أطلال مييننكس على مساحة تفوق المائة وثلاثين هكتارا وتعدّ بالتالي من أكبر المدن الساحليّة القديمة بتونس: أوتيك (122 هكتارا) - لبدة الصغرى (88 هكتارا) - تينا (110 هكتارا) جيقتي (60 هكتارا)...

كان نسيجها العمراني متماسكا في القديم لكنّه فقد انسجامه عندما شيّدت ثلاث طرقات قسّمت الأرض الأثريّة إلى أجزاء متباعدة وهي التي تربط حاليّا منطقة القنطرة بأغير شرقا (MC 941) وحومة السوق شمالا (MC 117) وبقريتي قلاّلة وآجيم غربا (MC 944).

يرجع الإهتمام بآثار مييننكس إلى أواخر القرن التاسع عشر ميلادي منذ بدأ الحملة الفرنسيّة على تونس. وقد أجرى الضباط الفرنسيّون تنقيبات بدء سنة 1885 لكن معظمها كان غير منظّم وغير علميّ فهي أقرب إلى البحث عن الكنوز منها إلى التنقيب الأثري.

وفي الأربعينات من القرن الماضي بدأ الآثاريّون تحت إشراف المؤرخ P.Marie- Duval في تنظيم حفريّات علميّة تمكّنوا من خلالها من اكتشاف الساحة العموميّة Le forum والرّواق الذي كان يرتكز على أعمدة رخاميّة. وقد تميّز معلم الفوروم بضخامة عناصره المعماريّة وبجمالها التي لم يبق منها سوى قطع من الرّخام متناثرة على الأرض: ركائز وتيجان أعمدة وأطناف corniches...

غرب الساحة العموميّة توجد البازيليك أو قاعة المحكمة بينما يمتدّ كلّ من المسرح الأثري والكنيسة الشماليّة على الجزء الشمالي الشرقي للموقع، وبالجهة الغربية يوجد الحمّام إضافة إلى مجموعة من الخزانات كانت تزوّد بالماء بواسطة حنايا قادمة من موقع تالة (3 كلم شمال مييننكس) ونجد جنوب الساحة العموميّة السوق macellum وعلى مقربة منه بنيت قاعات الخزن Les horrea التي اكتشفناها حديثا (حفريّات 2002-2006) بالجهة الجنوبيّة الشرقيّة لهذه المدينة التاريخيّة، نشاهد آثارا للميناء الذي ينفرد بموقع استراتيجي هامّ فهو امتداد للقنطرة المنسوبة للرومان التي تربط الجزيرة بالمنطقة القاريّة.

ويوجد بأقصى الجهة الجنوبيّة الغربية معلمان هامّان: الأوّل الكنيسة الغربيّة التي نشرها المؤرّخ بول قوكلار في بداية القرن الماضي ومن أجزائها نذكر الرواق والمصلّى والمعموديّة Baptistère المعروضة حاليّا بمتحف باردو.

أمّا المعلم الثاني فهو مسرح الألعاب amphithéâtre التي لا تزال أجزاؤه مغطاة بكميّات هائلة من الردم وإلى جانب هذه المعالم نضيف مجموعة من الأحواض والصهاريج وأكوام من أصداف المرّيق Le murex المكسّر استعملت في صناعة الأرجوان التي اشتهرت بها مييننكس. تعتبر هذه المصانع من آخر المعالم التي استعملها سكّان هذه المدينة قبل اندثارها.

من جزيرة مييننكس إلى جزيرة جربة :

ابتداء من القرن الثالث ميلادي، نلاحظ أنّ اسم مدينة أو جزيرة مييننكس بدأ من الاختفاء تدريجيا في المصادر الأدبيّة مقابل بروز اسم مدينة جربة Girba. وفي هذا المجال نورد ما ذكره المؤرخ أوراليوس فيكتور (ق. 3 ميلادي) الذي يقول، «جزيرة مييننكس التي أصبحت تسمّى (حاليّا) جزيرة جربة». كما نسجل في هذا الشأن غياب اسم مييننكس في قائمة مدن الجزيرة التي وردت في لوحة بوتنجير (قرن 3 ميلادي) التي اقتصرت على ذكر جربة – تيبازا (آجيم) – هاريبوس (قلالة ؟)– أوكيوم (؟).

من بين المصادر التي تحدّثت عن مدينة جربة نذكّر بما ورد خاصّة في وثائق الكنيسة الإفريقيّة، وفي مصدر «بيان المناصب الرفيعة» (Notice des Dignités) المؤرّخ في بداية القرن الخامس ميلادي.

تبعا لاستئثار مدينة جربة بالمصادر التاريخيّة إثر اختفاء اسم مدينة مييننكس، اتفق المؤرخون على تحديد موقعها بمدينة حومة السوق الحالية الواقعة شمال جزيرة جربة، لكنّنا نستبعد هذا التحديد لعدّة أسباب :

– تتمثّل مهمّة وكيل صناعة الأرجوان بجربة الذي ورد في وثيقة «بيان المناصب الرفيعة» في مراقبة ورشات الصناعة التي توجد فعليّا بموقع مييننكس مثلما تؤكّده المصادر الأثريّة : (بقايا أصداف المريّق، أحواض...). وقد اتّسمت هذه المراقبة بالصرامة خاصّة بعد صدور القانون المؤرخ في 383 ميلادي في عهد الأباطرة قراسيان – فالنتينان وتيودوز الذي أصبحت بمقتضاه صناعة الأرجوان محتكرة كليّا من طرف الدولة الرومانيّة (un monopole impérial) لأنّها توفّر مداخيل هامّة لخزينة الأباطرة. لذا فإنّ موقع مدينة جربة لا يمكن أن يكون بعيدا عن موقع مييننكس.

– تبعا للمعلومات التي توفرها مصادر الكنيسة الإفريقيّة فإنّ جميع أساقفة جربة المعروفين ومن ورائهم الجماعات المسيحيّة كانوا يستعملون الكنيستين الموجودتين بموقع مييننكس (الكنيسة الشمالية والكنيسة الغربية)، مع العلم أنّنا لم نعثر على آثار أيّ كنيسة مسيحيّة أخرى بالجزيرة خارج مدينة مييننكس.

– خلال التنقيبات الأثريّة التي قمنا بها في صائفة 2006، عثرنا في إحدى قاعات الخزن بمدينة مييننكس على نقيشة لاتينيّة تذكر مدينة جربة، وهو ما يعني ضمنيّا أنّ موقعها لا يمكن أن يكون بعيدا عن موقع مييننكس.

هكذا نخلص إلى القول أنّه من المستبعد أن تطابق مدينة جربة الموقع الحالي لحومة السوق. وقد قرر الرومان في القرن الثالث ميلادي إحداث عاصمة جديدة للجزيرة لأن العاصمة الأولى مييننكس أصبحت متخصّصة في تصنيع المنتوجات البحرية (تمليح الأسماك – استخراج القاروم والصباغة) وهي من الصناعات الملوّثة، لذا فإن وضعها كمركز صناعي لا يتلاءم مع دورها كمركز أساسي (سياسي وإداري بالجزيرة)، وهكذا أحدثت مدينة جربة التي نرجّح وجودها على بعد كيلومترين شمال مدينة مييننكس أين اكتشفنا عدة آثار ربما لها علاقة بمدينة جربة.

تطوّر الصناعات البحرية بمييننكس– جربة:

1 ـ صناعة صباغة الأرجوان :

يعتبر استخراج الأرجوان من أصداف المرّيق أهمّ نشاط اشتهرت به مدينة مييننكس جربة في العصور القديمة.

ما هو الأرجوان ؟ La pourpre

الأرجوان هو نوع من الصبغة حمراء اللّون تميل في بعض الأحيان إلى البنفسجي يستخلصه الأقدمون من صدف المرّيق. تعتبر صناعة الأرجوان من الأنشطة الأساسيّة للمدن التاريخية المطلّة على البحر الأبيض المتوسّط، وقد تطوّرت بسواحل جزيرة كريت خلال الفترة المينّوية Minoenne (1900-1700 ق.م) وبرأس الشمرا شمال سوريا (1500 ق.م) وبالساحل الفينيقي وبالتحديد بمدينة سارفتة Sarepta أين عثر علماء الآثار على بقايا من الأصداف المكسّرة التي تستعمل في استخراج الصباغة. وفي الألفيّة الأولى ق.م أثبتت الشواهد الأثريّة وجود صناعة الأرجوان بمدينتي صور وصيدا. أمّا بإفريقيا الشماليّة فقد أجمع المؤرّخون على دور الفينيقيين في نشرها بهذه الجهة نظرا للكميّات الهائلة من أصداف المرّيق التي يحتويها الحوض الغربي للمتوسّط فازدهرت هذه الصناعة منذ الفترة البونيّة في مدن قرطاجة وكركوان وموجادور Mogador بالسّاحل الأطلسي بالمغرب، وبالمداينة جنوب بحيرة البيبان بالجنوب التونسي ومينكس ثم تواصلت أهميّتها في الفترة الرومانيّة بمدن صبراطة بليبيا ومينكس-جربة وقرطاجة.

المرّيـــق :

المرّيق نوع من الرّخويّات معديّات الأرجل mollusques gastropodes مغطّاة بصدفة شوكيّة (صنف brandaris) أو منضدة (صنف trunculus) كان الأقدمون يستخرجون منه الأرجوان وهي مادّة تصبغ بها الثياب النفيسة.

كيف يستخرج الأرجوان من المرّيق؟

لقد اعتمدنا للإجابة عن هذا السؤال على المعلومات التي أوردها كلّ من الفيلسوف الاغريقي أرسطو (قرن 4ق، ميلاد) وعالم الطبيعة إبلينوس الأكبر (قرن I. ميلادي) وفيها ذكر لمراحل استخلاص الأرجوان من المرّيق :

بعد اصطياد المرّيق تكسّر الأصداف الكبيرة لاستخراج الغدّة La glande من جسم الحيوان التي تفرز المادّة المنتجة للصباغة أما الأصداف الصغيرة الحجم فإنّها تسحق لإخراج نفس المادة.

ثمّ توضع الغدد في أحواض des cuves أين تنقع في الملح مدّة ثلاثة أيام إثرها تحوّل إلى وعاء من القلّز airain لتغلّى فوق النار مدّة عشرة أيّام إلى حين الحصول على الأرجوان الجاهز للاستعمال في صباغة الأقمشة. وقد تركت مراحل استخراج الأرجوان من المرّيق شواهد أثرية هامة لا تزال ظاهرة إلى الآن بموقع مينكس من بينها أكوام من المرّيق المكسّر الممتدّة على مساحة تفوق الـ 8 هكتارات غرب الموقع وأحواض وآثار للنار تتمثل في طبقات أثرية من التراب المحروق الممزوج بشظايا فخارية وببقايا من أصداف المرّيق.

إلى جانب المصادر الأثرية نضيف كذلك المعلومات التي توفرها النصوص التاريخية حول أهمية صناعة الأرجوان بمدينة مينكس جربة. يقول إبلينوس الأكبر في هذا الشأن «الأرجوان الجيّد يوجد بصور بآسيا، وبمينكس وببلاد الجدالة بافريقيا وبلاكوني بأوروبا» ويعتبر «بيان المناصب الرفيعة» للإمبراطورية الرومانية Notice des Dignités المؤرخ في بداية القرن الخامس ميلادي أهم مصدر أدبي عن صناعة الأرجوان بجربة. تحتوي هذه الوثيقة على جرد لكبار الموظفين (عسكريين وإداريين) للدولة الرومانية في الفترة الرومانيّة المتأخرة. من بين هؤلاء الموظفين تذكر الوثيقة تسعة وكلاء Procurateurs مسؤولين عن مراكز إنتاج الأرجوان بالعالم الروماني إثنان منهم يعملان بالمقاطعات الإفريقية :

- الأول يراقب صناعة الأرجوان بمقاطعة أفريكا Africa

- الثاني يراقب صناعة الأرجوان بجربة Girba وتقدّمه الوثيقة كـ«وكيل عن ورشات الصباغة بجربة (بمقاطعة

طرابلس» ممّا يشهد على أهمّية موقع مييننكس جربة في إنتاج هذه المادة وترويجها.

2 ـ تصبير الأسماك :

يعتبر تصبير الأسماك من أهمّ الأنشطة الاقتصادية لسكّان السواحل التونسية في العصور القديمة وقد عثر الفريق التونسي الفرنسي الذي قام في التسعينات من القرن الماضي باستكشافات أثرية على طول الشريط الساحلي التونسي من بحيرة البيبان إلى طبرقة على عدّة شواهد أثريّة تثبت تطوّر هذه الصناعة خلال الفترة الرومانية.

تتمثّل طريقة تصبير الأسماك في تفريغها من أحشائها ثم ترصيفها في الأحواض بين طبقات الملح. إثر ذلك تجفّف وتوضع في الجرار لحفظها أو لتصديرها. وقد عثرنا خلال الحفريات التي أجريناها بموقع مييننكس على بعض الجرار التي لاتزال تحافظ بداخلها على هياكل السمك بينما يحتوي الردم الأثري المحاذي للأحواض على طبقات هائلة من حراشف السمك.

3 ـ استخراج القاروم :

يعرّف عالم الطبيعة إبلينوس الأكبر القاروم قائلا: «هو مادّة سائلة مطلوبة جدّا تستخرج من أحشاء الأسماك أو من بقاياها وذلك بعد نقعها في الملح».

تتمثّل طريقة القاروم في تخليط أحشاء السمك ونقعها macération في الملح، إثر ذلك يوضع في أحواض قليلة العمق أين يسخّن طبيعيّا تحت أشعّة الشمس ليتخمّر لمدّة تتراوح من شهر إلى ثلاثة أشهر يفرز إثرها هذا الخليط سائلا أطلق عليه الرومان إسم القاروم. وقد استعملوه كتوابل تضفي نكهة جيّدة على الأطعمة وقد تأكّد ازدهار هذه الصناعة بموقع مييننكس من خلال اكتشافنا لعديد أحواض القاروم. والجرار ولبقايا السمك في الردم الأثري (حراشف هياكل).

4 ـ صيد الاسفنج :

يشير إبلينوس الأكبر إلى أن منطقة سرت اشتهرت قديما بصيد الإسفنج الذي يعتبر إلى جانب القاروم والثياب المصبوغة بالأرجوان من المنتجات البحرية التي كانت تروّج نحو المقاطعات الرومانية الأخرى مثلما أشارت إليه «تعرفة زاراي» Tarif de Zarai المؤرّخة في سنة 202 ميلادي. وقد تواصل هذا النشاط البحري خلال الفترة الحالية في عدّة مدن ساحليّة بخليج قابس مثلما تؤكّده دراسات حديثة.

من الأسئلة المطروحة على المؤرّخين سؤال يتعلّق بمصدر ثراء مدينة مييننكس جربة ومن ورائها كامل منطقة الأمبوريا.

توجد مييننكس جربة في منطقة تفتقر إلى المياه (تساقطات غير كافية - طبقة مائية غير صالحة) وإلى تربة صالحة للزراعة. أمام هذه النقائص التجأ سكّانها إلى البحر الذي وفّر لهم الثروة والجاه خاصّة أنّهم برعوا في استغلال منتوجاته التي ازداد عليها الطلب في العصور القديمة، فأصبحت مدينة مييننكس جربة من بين المدن التاريخية القديمة المشهورة بثرائها. ويبرز ذلك من خلال معالمها التي تميّزت بضخامتها وقد استعمل البنّاؤون لذلك إحدى وعشرين نوعا من المرمر المستورد من اليونان ومصر وصقلية وتركيا وشمتنو وقد أضفى المرمر على بناءاتها وخاصّة الساحة العمومية جمالا ورونقا لاسيّما إذا ازدانت الأطناف بعناصر زخرفيّة متعدّدة.

لذا فإنّ صناعة منتوجات البحر وترويجها كانت إحدى العناصر الأساسيّة في بناء اقتصاد مدينة مييننكس جربة، وفي إشعاعها في العالمين اليوناني والروماني. والدليل على ذلك هو ذكر هذه المدينة في إحدى وأربعين من المصادر التاريخيّة مؤرّخة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى بداية القرن السادس الميلادي.

المشهد الجنائزي في جزيرة جربة في العصور القديمة من خلال مثالي السوق القبلي ومرقان

سامي بن طاهر

مقدمة :

تعد المقابر- التي يبلغ عددها إلى حد الآن السبعة- من بين أهم الشواهد على الحضارات القديمة التي عرفتها جزيرة جربة. وهي تتوزع جغرافيا كما يلي: في الجنوب الشرقي للجزيرة نجد موقعي «السوق القبلي» (1) و«مينكس»(2)، في الشمال الشرقي نجد مقبرة «غيزن» (3)، في الشمال الغربي «عقة» (4)، «مليته» (5) و«مرقان» (6) وفي الوسط الغربي «ماجين» (7).

من خلال هذا البحث سنحاول أولا التعريف بالخصائص الهندسية والمعمارية لهذه المقابر، ثانيا دراسة بعض النماذج من الأثاث المأتمي لتأريخ هذه المعالم ولفهم الطقوس الجنائزية التي كانت تمارس سواء في زمن الإقبار أو بعده لنخلص في الأخير إلى تحديد المكانة التي يمكن أن تتنزل فيها هذه القبور ليس على مستوى جزيرة جربة فحسب بل أيضا على نطاق متوسطي.

مقبرة السوق القبلي :

يتميز هذا الموقع بقبوره المنقورة في الصخر. ومن أهم خاصيات هذه المعالم أيضا هو مثالها الهندسي المتشعب المتكون من ثلاثة عناصر وهي الآتي ذكرها: ممشى طولي، فناء داخلي وغرف جنائزية تحيط بهذا الأخير.

يحتوي هذا الممشى- الذي ينحدر من الخارج إلى الداخل - في بعض الأحيان على درجات منقورة هي الأخرى في الصخر على كافة عرض هذا الممر أو في جزء منه لتسهيل عملية النزول إلى القبر. وعلى سبيل المقارنة يمكننا ذكر عدد من المواقع حيث تم العثور على مماش طولية منقورة في الصخر شبيهة بما يوجد في السوق القبلي منها «القالة»، «جيجل» و«تيبازا» في الجزائر.

ويفضي هذا الممشى إلى فناء داخلي عبر فتحة تغلق بواسطة حجارة مهندمة يتم وضعها بعد الانتهاء من الدفن بين شقين جانبيين قدا في الصخر لغلق المنفذ إلى هذه الباحة. ويمكن أن يكون سقف هذه الأخيرة مغطى بمواد اندثرت اليوم كالخشب أو جذوع النخيل.

يتم من خلال هذا الفناء الولوج إلى الغرف الجنائزية عبر فتحة منقورة في الصخر ذات شكل مستطيل لا تتجاوز أبعادها التسعين صنتمترا طولا أما عرضها فهو عادة ما يكون دون الثمانين صنتمترا. ويتم غلق هذه الفتحات عن طريق حجارة مهندمة يتم نحتها في أطرافها.

تكون الغرف الجنائزية في أغلب الأحيان ذات مقطع مستطيل سقفها ذو سطح مسوى وفي البعض الآخر

يكون على شكل قبو أما أرضيتها فمستواها منخفض مقارنة بأرضية الفناء.

ومن خلال ما تم وصفه يمكن استخلاص وجود تصور متناسق للمجال الداخلي والخارجي من قبل الذين أشرفوا على إنجاز هذه القبور. ومما يؤكد ذلك هو المثال الذي يعتمد على أشكال هندسية منتظمة تتكون من فضاءات داخلية مستطيلة الشكل تتعايش مع فضاء خارجي هو الآخر منتظم. فلا وجود مثلا للغرف التي تبدو على شكل قبة نصفية كما هو الحال في بعض قبور الساحل التونسي والتي تحيلنا على تصور بدائي يذكرنا بصورة الكهف. معالم السوق القبلي على خلاف ذلك لها بعد رمزي يرتبط بمرجعيات اجتماعية ودينية محددة سنراها في بقية النص.

تتم داخل الغرف الجنائزية تهيئة بعض الفضاءات لتلعب أدوارا مختلفة زمن الدفن وبعده. من ضمن هذه العناصر يمكننا ذكر المشكاة التي تنقر عادة في عمق الغرفة الجنائزية وفي الجهة المقابلة للمدخل والتي تحتوي عادة على قناديل يتم استعمالها للإضاءة. كما يمكن أن نلاحظ وجود أحواض على شكل مستطيل هيئت لإيواء جثمان الموتى تحيط بها مصطبة من ثلاثة جوانب. أحد هذه القبور يحتوي على ثلاث أسرة جنائزية نحتت في الصخر اثنان منها تبدو في أحد أطرافها وسادة قدت هي الأخرى من الصخر، أما الثالث فهو على شكل فراش. وتحتوي هذه الأسرة على حواشي مرتفعة كان يوضع فوقها غطاء من الحجارة لغلقها بعد انتهاء عملية الدفن.

إن العثور على مثل هذه التوابيت من الصخر يدفعنا للتساؤل عن المعنى الذي يمكن إعطاؤه لها : هل هي مجرد أسرّة جنائزية كتلك التي عثر عليها في المقبرة البونية بالمهدية؟ إذا قبلنا بهذه الفرضية فيمكن اعتبارها أماكن ارتياح وسبات بالنسبة للموتى. إلا أنه يمكننا أيضا أن نقترح فرضية أخرى تقضي باعتبار هذه التوابيت كأسّرة أكل وشرب تستعمل في ظل أجواء المأدبة الجنائزية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الايديولوجيا ظهرت في الشرق القديم ثم انتشرت شيئا فشيئا في اتجاه الحوض الغربي للمتوسط في الحقبة الهلّنستية.

ومما يجلب الانتباه أيضا في أحد هذه القبور هو تهيئة ما يمكن تسميته باللّحد يتجاوز طوله المترين ويقارب عرضه الخمسين صنتمترا نقر على حساب إحدى جوانب الغرفة وليس في الأرضية كما اعتدنا على ذلك في عديد القبور البونية. هذا العنصر هو خاصية محلية قديمة تبدو غير موجودة خارج الجزيرة. ولابد هنا من أن نؤكد على أن تخصيص لحد داخل القبر مازال معمولا به إلى اليوم في حومتي «غيزن» و«فاتو» بجربة.

فيما يتعلق بالطقوس فقد لاحظنا وجود نمطي الدفن والحرق. يبدو أن النمط الأول هو الأقدم: هذا يبدو جليا من خلال اتساع فضاء الغرف الجنائزية التي نقرت في الأصل للدفن، بعد ذلك تم استعمالها لايواء العظام المحروقة.

بعض المؤشرات توحي باللجوء إلى الوضع الجانبي الجنيني بالنسبة لبعض الموتى، لعل من أهمها ضيق بعض الأحواض التي تم فيها الدفن إذ لا يتجاوز طولها المتر وعشرين صنتمترا. هذا ما يدل على أن سكان هذا الموقع هم لوبيون.

يتم وضع الجثمان إما مباشرة على الأرضية أو داخل صندوق أو تابوت خشبي لا تتبقى منه عادة إلا المسامير أو المقابض.

في حال اللجوء إلى النمط الثاني تتم عملية الحرق خارج القبر، بعد ذلك يجمع رميم العظام والرماد داخل جرة أو قدر من الفخار ليوضع داخل الغرفة الجنائزية. ومما يدل على ذلك غياب أي أثر للحرق داخل الغرفة الجنائزية سواء كان على الجدران أو على الأرضية.

و لقد مكنتنا الحفريات التي قمنا بها (8) من تأريخ هذه القبور التي عرفت استعمالات عدة يعود أقدمها إلى القرن الثالث قبل الميلاد وأحدثها إلى القرن الثاني ميلادي.

من أين يتأتى الآن هذا النوع الطريف من الهندسة الجنائزية؟

إن هذا الصنف من القبور المتكون من ممشى طولي وباحة تحيط بها غرف جنائزية يتراوح عددها بين الثلاثة

والأربعة تشبه من حيث المثال الهندسي قبور «البقالطة» و«رجيش» بالساحل التونسي. أما خارج البلاد التونسية فتذكرنا هذه القبور بما يوجد في اسكندرية كمقابر «سيدي جابر» و«مصطفى باشا» و«مرينة العلمين» حيث تم تأريخ أقدم القبور بها بالقرن الثالث قبل الميلاد. بالإضافة إلى إسكندرية يمكن ذكر مقابر «قورينا» بليبيا و«بافوص» بقبرص و«ماريسا» في فلسطين حيث أرخت هذه المعالم الجنائزية في ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والأول قبل الميلاد. وقد تكون هذه التأثيرات الهلنستية وصلت إلى جزيرة جربة عبر «قورينا» ثم «السرت الكبرى».

على المستوى الفكري يعكس هذا النوع من المعالم الجنائزية تصورا خاصا لعالم الموت حيث تبرز قبور السوق القبلي وكأنها نسخة من المساكن الموجودة في عالم الأحياء. هذه الايديولوجيا الهلنستية لا تجد ما يماثلها في القبور المعروفة في قرطاج وفي دوائرها الجغرافية سواء كانت مبنية أو منقورة في الصخر إذ أن القبور البونية تكون عادة مغمورة في باطن الأرض وذلك خشية نهبها أو تدنيسها وكذلك لاعتبارات أخراوياتية.

إن فكرة اعتبار القبر كمسكن آخر يأوي الانسان بعد مماته موجودة عند الأتروسكيين لكن في زمن أقدم بكثير من الحقبة التي تعود إليها قبورنا: هناك إذن تشابه بدون أن يعني ذلك وجود علاقة سببية.

فيما يتعلق الآن باللُّقى الجنائزية التي عثر عليها داخل هذه القبور فهي عديدة ومتنوعة ويمكن تقسيمها إلى نوعين: النوع الأول يتعلق بالأثاث الجنائزي الذي يوضع زمن الإقبار أما النوع الثاني فيخص طقوس ما بعد الدفن.

يتكون الأثاث الجنائزي عادة من جرار من النوع الإيطالي تحتوي على خمور كامبانية أومن النوع اليوناني بها خمور من جزيرة «رودس» أو من النوع البوني تحتوي على خمور محلية الصنع، بالإضافة إلى ذلك نجد أواني متنوعة تستعمل في الأصل للحياة اليومية للأكل والشرب والطهو كالصحون والأقداح والقدور. ولقد مكنتنا دراسة هذه الأواني من أن نتبين أن عددا كبيرا منها مستورد من الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط. فمن الضفة الشرقية للمتوسط وبالتحديد من البلاد الأيونية تم جلب ما يعرف بـ«الصحاف المقولبة ذات الزخرف الناتئ الهلنستية» في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، ومن نفس الجهة أيضا تم استيراد قناديل مقولبة تعود إلى نفس الفترة».

ومن الحوض الغربي للمتوسط تم اقتناء عدد من الأواني ذات الطلاء الأسود خصوصا من النوع الكامباني أو التي تصنع من طين جزيرة «إسكيا» في مدينة «نابولي» جنوب إيطاليا طيلة القرن الثاني قبل الميلاد وإلى حدود منتصف القرن الأول قبل الميلاد. يمكن أن نضيف إلى هذه القائمة مجموعة من الصحاف ذات الطلاء الأسود أو الأحمر في بعض الأحيان تم صنعها إما في جهة» «كالابريا» أو في صقلية. وتتميز هذه الصحاف التي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد بتنوع أنماط تزويقها وزخرفها واحتوائها في قاعها على أيقونات دائرية ناتئة تتعلق في بعض الأحيان بالأساطير اليونانية كالحصان المجنح الذي يعرف بـ«بيقاز» والكائن الأسطوري «إيروس».

إلى جانب القطع الخزفية توضع في بعض الأحيان دبابيس مصنوعة من عظام الحيوانات رأسها على شكل نصف كرة أو في صورة حبة صنوبر. وتستعمل هذه الدبابيس في الأصل إما لشد خصلة الشعر أو كركيزة لوضع شعر زائف أو مصطنع (9). كما عثر أيضا على بعض عناصر الزينة نذكر منها مسحوق التجميل على شكل مخروطي لونه وردي. ولقد أثبتت التحاليل المخبرية التي أجريت عليه أنه مصنوع من نبتة الفوه. أما فيما يتعلق بالحليّ النسائي فلقد عثرنا على بعض عناصر قلادة بونية.

وتعكس هذه اللُّقى معتقدات القدامى في حياة ما بعد الموت ولذلك يتم وضع كل هذه الأواني - التي تحتوي في بعض الأحيان على عظام حيوانية وبقايا أسماك - والجرار لتلبية الحاجيات الأساسية للميت

طيلة رحلته إلى اليوم الآخر الذي يستعين أيضا بالقنديل لإنارة الطريق أمامه حتى يصل إلى مبتغاه.

وغالبا ما نعثر بالإضافة إلى هذه اللقى على قنان عطر من الزجاج ومن الخزف أيضا يكسر فمها ليرش ما في داخلها على الميت وربما أيضا على أهالي الميت الحاضرين زمن الدفن، ولهذه الأسباب لا نجد هذه القنان داخل الغرفة الجنائزية فحسب بل نعثر عليها أيضا في الممشى الطولي أي قبل أن نلج إلى داخل القبر. إن كسر فم هذا الوعاء وإن كان يفسر كما ذكرنا بأسباب عملية لتوسيع الثقب لتسهل عملية الرش فإن لهذه العملية بعدا آخر وهو تخصيص هذا الوعاء للميت وحده دون غيره. لكن لابد أن نلاحظ أن عملية التخصيص هذه يمكن أن تتم إما عن طريق الكسر -كما ذكرنا وكما يمكن ملاحظتها في إطار آخر بالنسبة لحفل الختان اليوم- أو عن طريق الكتابة أو وضع بعض الرموز. وجود هذه القنان يبرز إذن أهمية الطهارة والنقاء لدى هؤلاء اللوبيين.

فيما يتعلق بطقوس ما بعد الدفن فقد عثرنا في أحد القبور على أنصاب حجرية مهندمة نقرت في البعض منها أحواض لاحتواء ما قد يهدى إلى الميت من طعام وفي البعض الآخر ثقوب تتوسط هذه الأحواض لإراقة السوائل الخمرية. وقد لاحظنا في واحد من هذه الأنصاب وجود ثقبين جانبيين لاحتواء إكليل من الزهور كهدية لروح الميت. إن تقديم الزهور للميت عادة دأبت عليها بعض الشعوب القدامى ولعل من أبرز تجليات هذه الظاهرة هو الجرار الجنائزية الهلنستية التي عثر عليها في جهة إسكندرية والمعروفة بـ«هدرافازن» والتي يتم تزيينها برسوم من إكليل الرند أو أنواع أخرى من النباتات تلف حول عنقها وذلك تذكيرا بالأكاليل الحقيقية التي كانت تحيط بعنق هذه الجرار.

مظهر آخر من مظاهر الطقوس بعد الموت يتجلى من خلال نصب آخر مكعب الشكل يحمل في أعلاه حوضين مستطيلي الشكل أحدهما مثقوب لإراقة الخمر وبجانبه حوض آخر أصغر حجما منه يحمل أثر استعمال النار وهو ما يعني أنه وظف كمبخرة. هذا الجمع بين الخمر والبخور كثيرا ما يقع كلما كان الأمر يتعلق بأجواء قدسية أو جنائزية في الحضارات القديمة.

كل هذه المعطيات تدل على وجود عادة زيارة الميت وتذكره في السوق القبلي منذ القرن الأول قبل الميلاد. نحن نعرف أن هذا النوع من الطقوس منتشر عند الرومان الذين يخصصون عددا من الأيام للاحتفال بالموتى (بين 13 و22 فيفري) تعرف بـ«البارنتاليا» تجتمع فيها العائلة أمام القبر وتقوم بتقديم القربان (10).

إن دراسة قبور «السوق القبلي» تجرنا للتساؤل عن طبيعة وهوية الذين دفنوا فيها. لا ريب أنهم من اللوبيين أي السكان الأصليين لهذه الجزيرة كما يبدو ذلك من خلال ما تركوه من خزف مصنوع يدويا ومزوق بأسلوب محلي. وتبرز هذه المقبرة مدى انفتاح هؤلاء السكان على التأثيرات المتوسطية سواء كان ذلك على مستوى الأسلوب الهندسي أو الأثاث الجنائزي. من دفن في هذه المقبرة هو من الأعيان الأغنياء الذين كونوا ثرواتهم ربما من التجارة البحرية نظرا لأن الموقع يشرف على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة.

على مستوى آخر يمكننا أن نلاحظ أن كل قبر متكون من غرف عديدة حفر برمته في نفس الوقت وهو ما يعني أن التصور المركب لهذه المعالم الجنائزية مخطط له منذ البداية، وهذا ما يجرنا للتساؤل عن مغزى ذلك وعن طبيعة العلاقات التي تربط بين الموتى المدفونين في غرف مختلفة من نفس القبر. قد تكون هذه القبور عائلية أي أن الغرف مخصصة للأسرة بالمعنى الضيق أو الموسع. هذا البعد الاجتماعي يبرز بصفة جلية من خلال مثال هذه القبور الذي يذكرنا كما رأينا بمساكن الأحياء وكأن الانتماء في الأصل إلى عائلة واحدة يتواصل حتى بعد الموت بالانتماء إلى نفس القبر.

ومن جهة أخرى يمكننا أن نلاحظ تساوي أو تقارب الغرف الجنائزية من حيث الأبعاد والشكل والمرافق المهيأة داخل الفضاء المأتمي ومن حيث الأثاث الجنائزي. لا وجود اذن لأي تراتبية داخل هذا الفضاء.

قبر مرقان :

اكتشف هذا القبر في شهر ديسمبر سنة 2006 بمكان يدعى مرقان على بعد الكيلومتر ونصف الكيلومتر من «مليتة». وقد شيد هذا القبر بحجارة رملية تنتمي إلى التكوين الجيولوجي المعروف بـ«الشيخ يحيى» الذي يتنأ على مقربة من الساحل الغربي للجزيرة.

يتكون هذا القبر من ممشى طولي، من مدخل ضخم، من قاعة وسطى ومن غرفتين مأتميتين. يتجاوز طول هذا الممشى- الموجه نحو الشرق - المترين أما عرضه فيقارب المتر ونصف المتر، توجد في آخره درجة تتقدم مدخل القبر وتقع أسفل حوض لإراقة السوائل.

يبلغ طول هذا المدخل مترا وعرضه يناهز الستين صنتمترا في جانبيه شقان تدخل بينهما حجارة ضخمة مهندمة ومنزلقة.

بالنسبة لحوض إراقة السوائل فيتكون من حجارتين مفرغتين متطابقتين، ويتجاوز طوله المتر وعرضه يقارب الأربعين صنتمترا أما عمقه فيناهز التسعين صنتمترا.

يتجاوز طول القاعة الوسطى الثلاثة أمتار أما عرضها فيبلغ حوالي المترين. أرضيتها متكونة من خليط من الحصى والجير وجدرانها مشيدة بحجارة مهندمة. فيما يخص السقف المسطح فقد بني بعدد من الحجارة الضخمة المهندمة هي الأخرى والمتجاورة يحملها إفريز ناتئ متكون من حجارة ذات حافة مشطوبة.

في عمق هذه القاعة توجد غرفتان مأتميتان متجاورتان شيدتا بنفس النمط وبنفس مواد البناء تتكون أرضيتهما من طبقة سفلى طينية حفرت في التكوين الجيولوجي الذي يعرف بـ«الميوبليوسان». نلج إلى هذين الفضائين الجنائزيين عن طريق مدخل مستطيل الشكل.

تم العثور في هذين الغرفتين على جرتين من النوع البوني تحتويان على بقايا عظام محروقة وبجانبها عدد من الأواني الفخارية متكونة من صحون وصحاف بعضها مطلي باللون الأسود والبعض الآخر باللون الأحمر وأباريق يبدو أنها صنعت محليا. ويمكن تأريخ هذه اللقى بالنصف الأول للقرن الأول قبل الميلاد. بالإضافة إلى ما ذكر اكتشف بكل غرفة نصب جنائزي نحت في الحجارة المحلية: الأول أسفله مسطح ورأسه محدب أمّا الثاني فيتميز بذروتين حادتين.

أعيد استعمال هذا القبر في المنتصف الأول للقرن الأول ميلادي كما تبين ذلك دراسة اللقى الخزفية التي عثر عليها في مستويات أثرية متطابقة داخل الغرف ومن بين مكونات هذا الأثاث الجنائزي نذكر عددا من الصحاف الرقيقة بالإضافة إلى نوع من الجرار المحلية التي اشتهرت بها الجزيرة آنذاك.

ومما يثير الاستغراب هو استعمال الفضاء الخارجي لهذا المعلم كقبر إذ تم اكتشاف جرة جنائزية تحوي عظاما محروقة إلى جانبها صحن صغير. وهذا ما يجرنا إلى التساؤل عن أسباب ذلك. هل هذا الاستغلال الخارجي للمعلم الجنائزي يعزى إلى انتماء هذا الميت إلى منزلة اجتماعية سفلى لا تخول له أن يقتسم داخل القبر مع بقية الموتى؟ أم هل هو غريب عن العائلة المقبورة أي لا تربطه بها أية صلة؟ هذا ما يطرح مشكل ملكية القبور بصفة عامة في العصور القديمة.

فيما يخص الشعائر المأتمية فقد لاحظنا وجود الحرق فحسب وغياب طقس الدفن سواء كان ذلك بالنسبة للاستعمال الأول للقبر أو للأحدث. ومما يجلب الانتباه هو كسر جزء من فم الجرار الجنائزية التي عثر عليها داخل القبر وخارجه. وكنا قد ذكرنا أن العملية نفسها سجلت في مقبرة السوق القبلي وهو ما يؤكد البعد الرمزي الشعائري الذي تكتسيه.

ولابد أن نذكر هنا أن ظاهرة الحرق غريبة عن اللوبيين وأن وجودها يفسر بتأثيرات متوسطية خارجية، فمن بين الشعوب التي تلجأ إلى هذا الطقس يمكننا ذكر اليونانيين.

أما فيما يتعلق بدراسة الطقوس التي كانت تمارس خارج القبر بعد الإقبار فيمكننا ذكر بعض القطع التي

وجدت داخل الممشى الطولي وتتكون من بقايا جرار من النوع البوني الحديث، من النوع الايطالي ومن النوع اليوناني هشمت بعد أن تم استعمالها بالإضافة إلى صحاف وأقداح استغلت لشرب الخمور.

إن وجود حوض مفرغ فوق مدخل القبر هو دليل قاطع على اللجوء إلى عادة إراقة الخمر للميت. يكتسي هذا الاكتشاف أهمية بالغة نظرا لأنه يعد من أقدم شواهد هذا الطقس في البلاد التونسية قديما كما يعتبر من حيث شكله فريدا من نوعه، إذ اعتدنا في المقابر الإفريقية الأخرى على طرق مختلفة في إراقة الخمر وتعتمد على أنابيب من الفخار تخترق القبر من أعلاه لتصل إلى قاعه حيث يوجد إبريق أو جرة لاحتواء السائل المسكوب. تبرز هذه الظاهرة مثلا في الفترة الرومانية في مدينتي «بلاّريجيا» و«بوبوت» أي الحمامات حاليا.

من بين ما عثر عليه أيضا داخل هذا الممشى قطعة نقود قدمت كهدية للميت. بالإضافة إلى ذلك يمكننا ذكر بعض الشظايا الخزفية التي تنتمي إلى قدر مصنوع في جزيرة «بانتليريا» قد يوحي بتنظيم مأدبة على شرف الميت بعد إقباره.

إذا أردنا الآن أن نلقي نظرة عامة على توزيع الأثاث الجنائزي داخل القبر فيمكننا أن نتبين أنه يتغير من فضاء الى آخر، ففي الغرف المأتمية لا نجد أي أثر لجرار خمرية بيد أننا نعثر عليها في الممشى الطولي فحسب. بالنسبة لقنان العطر لا وجود لها خارج الغرفة الوسطى. هناك إذن تنظيم وظيفي للفضاءات الجنائزية: في الممشى الطولي يتم تنظيم المأدبة وشرب الخمر وسكبه في الحوض المفرغ ولذلك نجد قطع الجرار الخمرية، بعد الوصول إلى الغرفة الوسطى يتم التطيب بالعطر وهو ما يفسر وجود مرشات العطر، وفي المرحلة الأخيرة وبعد الدخول الى الغرف المأتمية يتم وضع المرمدات التي تحوي رميم الموتى وبجانبها الأثاث الجنائزي الضروري لمرافقة الميت في رحلته إلى اليوم الآخر.

كانت توجد فوق القبر علامة على شكل تاج من الحجارة من النوع المحلي نحتت فيه رسوم على شكل حلزوني شبيهة بصورة رأس الآلهة المصرية «هاتور». إذا تأكدت هذه الفرضية فإن هذا التاج هو أحد الأمثلة النادرة المتعلقة بعناصر معمارية من هذا النوع في إفريقيا الشمالية. ففي قرطاج لا نجد إلا رسوما لهذا النوع من التيجان على أنصاب بونية (11). لم نعثر إلى حد الآن على تاج حقيقي في صورة «هاتور» هناك. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآلهة تحظى بإشعاع كبير في الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط فصورتها ترسم عادة على أباريق جنائزية عثر عليها في موقع «أماتونت» بجزيرة قبرص (12) أما في موقع «ترشيش» بجنوب إسبانيا فعادة ما تكون صورة هذه الآلة في علاقة بطقس إراقة السوائل (13).

في الأخير لابد أن نحوصل مجمل هذه التأثيرات التي عرفها هذا القبر والتي يمكن ردها إلى تيارات فكرية مختلفة:

فعلى مستوى المثال الهندسي العام وتنظيم فضائه يذكرنا هذا القبر بالمعالم الجنائزية الأتروسكية إلا أنه لابد أن نحدد أن هذه الأخيرة تعود إلى زمن أقدم بكثير من معلم مرقان.

فيما يخص تقنية البناء التي تعتمد على الإفريز الناتئ المتكون من حجارة ذات حافة مشطوبة فمردها تأثير هلنستي وفي نفس الإطار يمكن تنزيل الممشى الطولي والمعروف بـ«دروموس» وكذلك المدخل الضخم والذي يمكن تسميته بـ«ستوميون» والذي يجد مثيلا له في ضريح بورقو الشهير. إلى نفس هذا التيار الفكري يمكن إرجاع اعتماد عادة الحرق عوضا عن الدفن كما هو متعارف عليه عند اللوبيين القدامى.

رغم أننا في القرن الأول قبل الميلاد أي بعد حوالي نصف قرن من سقوط قرطاج فمازال سكان مرقان يستعملون جرارا من النوع البوني لاحتواء بقايا العظام

المحروقة وهذا مؤشر هام على تمسك هؤلاء السكان بالثقافة القرطاجية مع الانفتاح على التأثيرات الخارجية.

إلى جانب هذه التيارات لا بد من إضافة التأثيرات المصرية على الطقوس الجنائزية وهو ما يبدو جليا من خلال التاج في صورة الآلهة «هاتور».

إذا درسنا الأثاث الجنائزي وإذا استثنينا إبريقا فمه دائري من النوع البوني، فستتبين أن هذه الأواني رغم أنها مصنوعة محليا فهي مرومنة أو مترومنة منذ القرن الأول قبل الميلاد ويبرز ذلك بصفة جلية من خلال أشكالها وتقنية صنعها التي تذكرنا بالحضارة الايطالية. يمكن أن نذكر على سبيل المثال صحافا نصف كروية الشكل مطلية باللون الأحمر وصحونا مطلية بالأسود والتي تقلد نماذج كامبانية من الصنف أ.

هذا القبر الضخم يعكس ثراء العائلة التي أذنت بتشييده نظرا لتكاليفه الباهظة وللجهد الإنساني الذي تطلبه بدءا من عملية جلب الحجارة من مقطع يبعد بضع الكيلومترات عن مكان المعلم إلى تنظيم حظيرة البناء. هذا المعلم أريد له أن يكون متميزا سواء كان من خلال مواد البناء باللجوء الى الحجارة الكبيرة أو من خلال ضخامة الممشى الطولي الذي يهدف إلى تنظيم جنائز تفاخرية.

يبدو أن هذه العائلة تهدف إلى ترسيخ ذاكرتها في الوسط الذي كانت تعيش فيه ليس فحسب عن طريق ضخامة القبر بل وأيضا بواسطة ضمان طقوس تمارس لصالحها بعد الممات. وفي هذا الإطار يتنزل هذا الحوض الذي وضع فوق المدخل الذي يظهر من خلال علوه وموقعه الأمامي بالنسبة للقبر وكأنه طاولة ما يعرف باليونانية بـ«ترابيزا بومو» وهذا ما يضفي القدسية على هذا المعلم.

الخاتمة :

هذه الاكتشافات الأخيرة أثرت الخارطة الأثرية لجزيرة جربة في العصر القديم، هذا من جهة ومن جهة أخرى مكنتنا من تعميق دراستنا للمشهد الجنائزي للجزيرة الذي يبدو وكأنه فسيفساء متكونة من عناصر مختلفة حيث لاحظنا وجود اختلافات جلية خصوصا على مستوى الهندسة وتنظيم الفضاء المأتمي من موقع إلى آخر كما رأينا بالنسبة للسوق القبلي ومرقان. وهذه الملاحظة تنسحب أيضا على بقية المقابر في جربة: فما يوجد في موقع «غيزن» يختلف تماما عما هو متعارف عليه في «عقة» مثلا. من خلال هذه الدراسة يمكن أن نتبين أن لكل موقع خصوصياته وبالتالي ومن وجهة نظر هندسية يمكننا القول إن المشهد الجنائزي غير متجانس.

ما يمكن أن نستخلصه أيضا من هذا البحث هو انفتاح هذه الجزيرة على الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط وهو ما يبرز ليس فحسب من خلال البضائع المتبادلة في إطار الحركة التجارية، ومن بينها القطع الخزفية والخمور وإلى غير ذلك. بل وأيضا عبر تأثيرات واقتباسات فكرية متأتية من آفاق جغرافية متنوعة وتيارات «ايديولوجية» متعددة. مسرح كل هذا الأخذ والرد هو البحر المتوسط.

- cheid 1998 : J. Scheid, La religion des Romains, Paris, 1998.

- Béal 1984 : J.C. Béal, Musées de Vienne, France. Les objets en os et en ivoire, Vienne, 1984.

- Picard 1986 : C. Picard, Les activités du centre d'études archéologiques de la Méditerranée occidentale concernant la civilisation punique, dans Cahiers des Etudes Anciennes, XVIII, 1986, p. 115-140.

- Karageorghis 1981 : V. Karageorghis, Chronique des fouilles et découvertes archéologiques à Chypre en 1980, dans BCH, 105, 1981, p. 967-1024.

- Hermary 1997 : A. Hermary, Le "style d'Amathonte", dans V. Karageorghis et alii (éds.), Four Thousand Years of images on Cypriote pottery (proceedings of the third international conference of cypriote studies, Nicosia, 3-4 May, 1996), Bruxelles-Liège-Nicosie, 1997, p. 157-161.

- Padro i Parcerisa 1994 : J. Padro i Parcerisa, Hathor dans l'Hispanie pré-romaine, dans Hommages à Jean Leclant, vol. 3 (Etudes isiaques) (Bibilothèque d'étude, 106/3), Le Caire, 1994.

- Akkari-Weriemmi 1992-93 : J. Akkari-Weriemmi, Les hypogées de Meninx (Jerba), dans Africa, 11-12, p. 242-57.

- Akkari-Weriemmi 1995a : J. Akkari Weriemmi, La nécropole libyco-punique de Ghizène (Djerba, Tunisie), dans Africa, 13, p. 51-74.

- Akkari-Weriemmi 1995b : J. Akkari Weriemmi, Note préliminaire sur deux tombes phénic-puniques à Agga au nord-ouest de Djerba (Tunisie), dans Africa, 13, p. 77-82.

- Akkari Weriemmi 2004 : J. Akkari-Weriemmi, Le paysage funéraire libyco-punique de l'île de Djerba : les caveaux de Mellita, dans REPPAL, 13, 2004, p. 5-33.

- Ben Tahar : S. Ben Tahar : Nouvelle découverte dans la nécropole punique de Souk el Guébli (Jerba), à paraître dans Africa, Nouvelle série, Séances scientifiques, IV.

- Ben Tahar, Découverte d'une nouvelle tombe punique à Souk el Guébli (Jerba), à paraître dans Africa, Nouvelle série, Séances scientifiques, V

الهوامش والإحالات

1) انطلقت الحفريات في هذا الموقع منذ بداية الخمسينات من طرف متفقد تعليم ابتدائي فرنسي يدعى «راتيل قونتران» وتوقفت بعد ذلك بقليل.
شرعنا من جديد في الحفريات منذ سنة 2004

2) Akkari Weriemmi 1992-93.

3) Akkari Weriemmi 1995a.

4) Akkari-Weriemmi 1995b.

5) Akkari-Weriemmi 2004.

6) تم اكتشاف هذا القبر وحفره تحت إشرافنا في شهري فيفري وجوان 2007

7) اكتشف هذا القبر وحفر تحت إشرافنا في ديسمبر 2005.

8) Ben Tahar, Nouvelle découverte dans la nécropole punique de Souk el Guébli (Jerba), à paraître.
Ben Tahar, Découverte d'une nouvelle tombe punique à Souk el Guébli (Jerba), à paraître.

9) Béal 1984, p. 25.

10) Scheid 1998, p. 139.

11) Picard 1986, p. 138, fig. 26.

12) Karageorghis 1981, p. 1008. Hermary 1997, p. 158 et pl. LI.

13) Padro i Parcerisa 1994, p. 403.

المواقع الأثرية بصحراء الجنوب التونسي

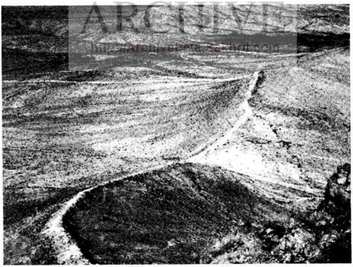
هاجر الكريمي

الصحراء، هذه الرقعة الجغرافية التي طالما كتب عنها الشعراء والفلاسفة واحترز منها المؤرخون . . ،

ماذا نعرف عن صحراء تونس في العصور القديمة؟ هل تناولتها المصادر بالدرس وإذا كان الأمر كذلك فبأيّ وجه قدّمتها؟ هل جلبت الصحراء انتباه القدامى ممن وطئت أقدامهم أرض شمال إفريقيا ونقصد هنا الفينيقيين، الإغريق والرومان ؟ من هم السكان الأصليون الذين اختاروا الصحراء كموطن وماذا نعرف عنهم؟

أسئلة ومحاور بحث لا يزال أغلبها تحت مجهر الدرس والبحث.

- إنّ اهتمامنا بالصحراء جاء عن طريق الصدفة ليصبح اليوم من أولوياتنا في مجال البحث لا سيما



خط دفاعي بحامة قابس



هنشير الميعاد بقابس

محور الصحراء التونسية في العصور القديمة ومدى تأقلم الإنسان معها.

- إن تعريف الصحراء يختلف حسب الاختصاص والظرفية. الصحراء في تعريف الجغرافيين هي باختصار، المناطق التي تقلّ فيها التساقطات بصفة عامة مما يؤدي إلى وجود مناخ عام جاف وشبه جاف يتبعه تطوّر نمط اقتصادي واجتماعي مميّز وملائم لهذا المناخ. صحراء البلاد التونسية كانت ولا تزال تتميّز بنسبة أمطار تقل عن 200 مم/ سنة وغير منتظمة.

من ناحية أخرى لا بد أن نميّز بين ثلاثة أنواع من المناطق الصحراوية بالجنوب التونسي :

1) المنطقة الأولى والتي تعتبر صحراوية بأتمّ معنى الكلمة والتي تتكوّن من هضاب ومنخفضات الجريد - نفزاوة وبني زيد.

2) تدريجيا نحو الشرق أو الساحل نجد سهول الأعراض والجفارة حيث يتقلب المناخ بين المتوسطي والجاف.

3) في اِتجاه الشمال نصادف تسلسل المنخفضات والجبال من النوع الأطلسي الممتدة ما بين قفصة والحدود الجزائرية من ناحية وخليج قابس من ناحية أخرى.

يجدر بنا أيضا التفرقة بين لفظ «الصحراء» كمصطلح جغرافي ولفظ «القفار» ذي المعاني الاجتماعية والاقتصادية.

هل توجد بالبلاد التونسية لا سيما الجنوب منها مناطق «صحراوية» أم يوجد «قفار»؟

الإجابة تكاد تكون واضحة نظرا لأنّ البلاد التونسية تتميّز بوجود صحراء أكثر منها بوجود قفار.

الصحراء إذن في المفهوم التاريخي هي مناطق يطيب فيها العيش والتأقلم وتختلف فيها أنماط العيش لأكثر من فئة بشرية وعبر حضارات مختلفة.

أما القفار فهو الخلاء وهو ما عبّر عنه بعض المؤرخين

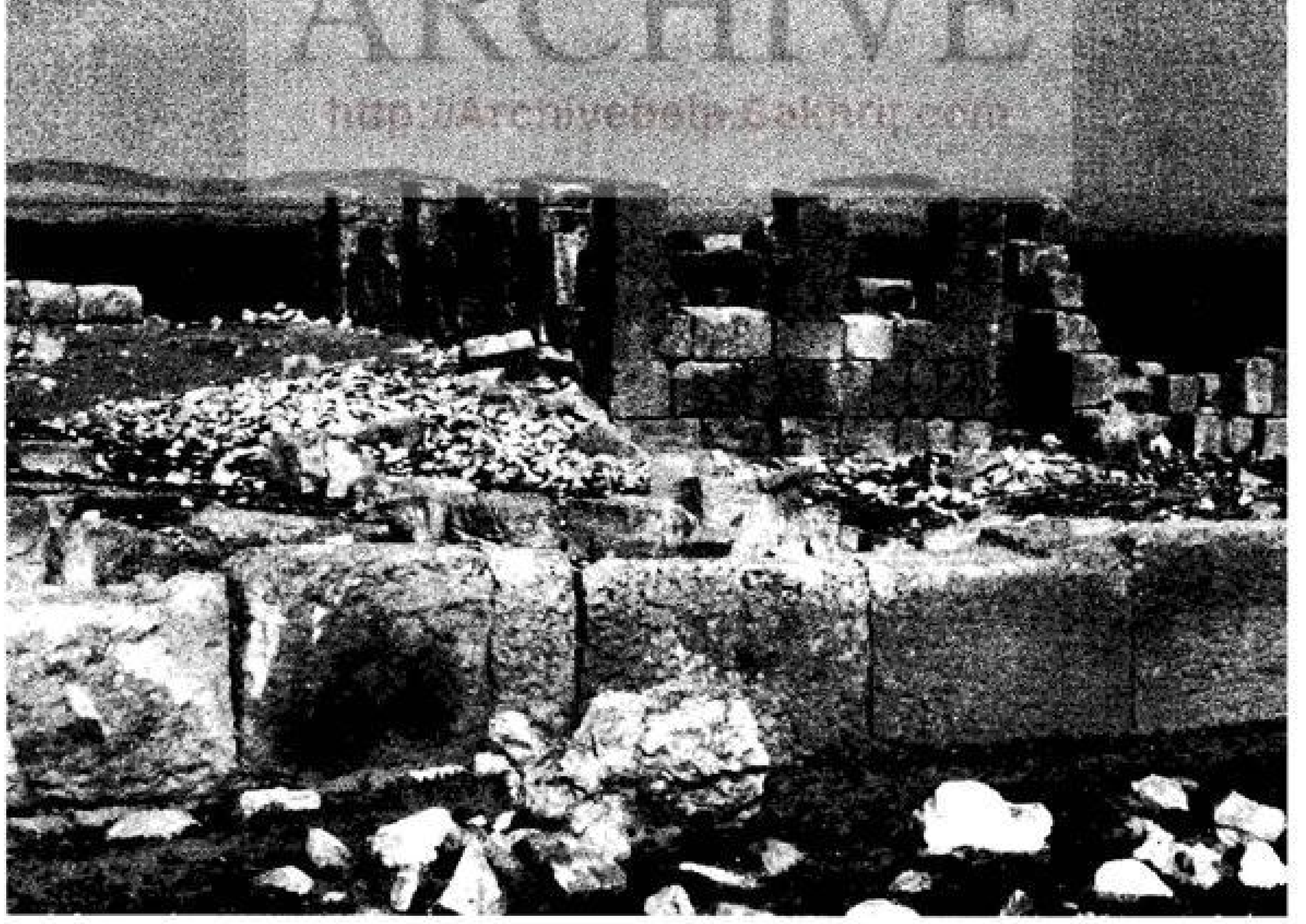
القدامى بمناطق «الوحدة والمجهول»
(Désert = Solitude et inconnu)

اِرتأيت إذن في هذا العمل المتواضع أن أقدّم نظرة الإنسان في عصور قديمة إلى الصحراء وكيف تعامل معها وذلك انطلاقا من معالم مختلفة شيدت منذ عدّة قرون وبقيت كشاهد لعلاقة هذا الإنسان بمحيطه الصحراوي. هذه المعالم التي تعد اليوم من أهم الكنوز التاريخية والثقافية ببلادنا.

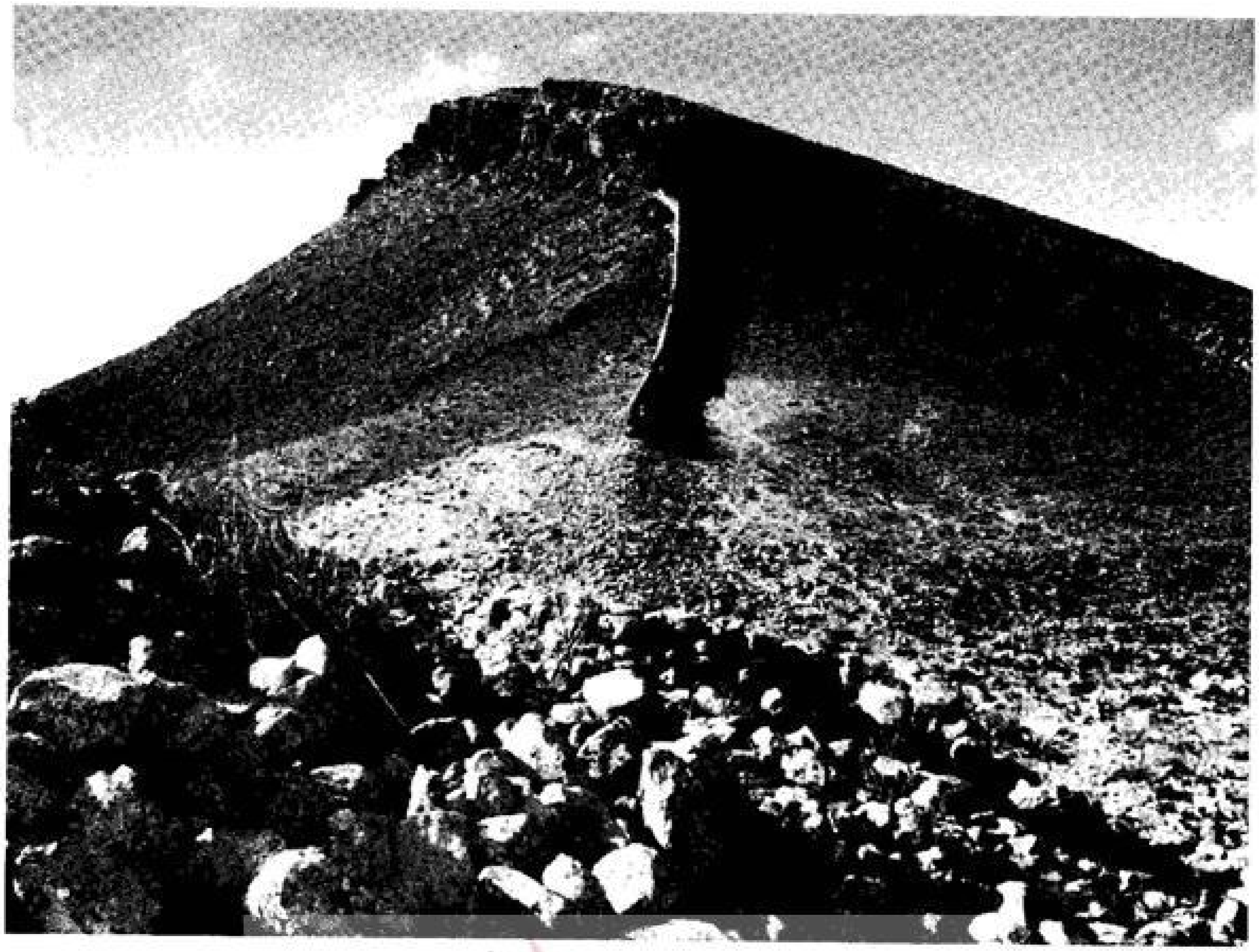
عندما نقرأ هيرودتس (1) -بلينوس الأكبر(2)- سترابون (3) أو غيرهم من الإغريق واللاتينيين الذين زاروا شمال إفريقيا أو كتبوا عنها نلاحظ فكرة سائدة، هي عدم الإطناب في الوصف أو الحديث عن المناطق الصحراوية. وبالتالي تصور لنا كمناطق يصعب العيش فيها بسبب مناخها، تضاريسها أو اِنعدام الأمن فيها بسبب "وحشية" سكانها الرحل.

هي ذي الصورة التي سادت عدّة قرون. أما اليوم ومع تقدّم الأبحاث التاريخية - الجغرافية - الأثرية والأنتروبولوجية أصبحت لنا فكرة مغايرة عن الصحراء. بديهي أنّ المناخ والظروف الطبيعية لم تتغيّر لكي تبقى المناطق الصحراوية مختلقة في مناخها ومحيطها الطبيعي مقارنة بالمناطق الساحلية والسهول الخصبة في الشمال. هذا الاختلاف لم ينف وجود فئة معينة اختارت منذ ما قبل التاريخ مرورا بالفترات البونية والرومانية تطوير نمط عيش صحراوي يتطوّر حسب منظومة اجتماعية سياسية واقتصادية ثرية تستحق الدّرس.

ربما لم يتمكن الفينيقيون والاغريق من تأسيس مستعمرات داخل الصحراء التونسية لكن فتحوا الطريق لمن تلاهم من الحضارات ليكتشفوا هذه الرقعة الجغرافية التي بدت منذ الوهلة الأولى كعائق طبيعي لتقدم الإنسان وتنقله من السواحل إلى الداخل نظرا لأنها تمثل المجهول



قصر بنية بحامة قابس



معلم مائي روماني ببئر أم علي بقبلي

بأتمّ معنى الكلمة. كما أنّ طبيعة التواجد الفينيقي والتوسّع البوني بصفة عامة كان متجها نحو المناطق الساحلية.

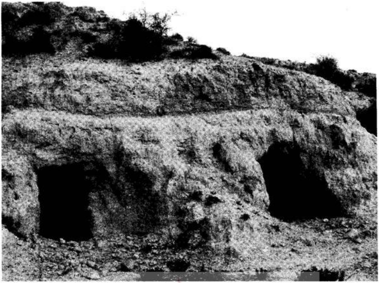
سنأخذ كمثال الحضور الروماني داخل الصحراء التونسية نظرا لأنّ هذه الحقبة التاريخية الممتدة من القرن I م إلى حدود القرن V م بكامل مراحلها تركت لنا شواهد عن تعامل الرومان مع الصحراء - فأيّ نوع من التعامل كان؟

لقد قرأنا كثيرا لفظي «تحدي وإخضاع» ممّا جاءنا في نصوص عديدة إمّا مصادر أو مؤلفات حديثة. الكلّ يتحدّث عن «الإنجاز العملاق الذي حققه الرومان منذ الفترة التوسعية الأولى وهو تحدّي حاجز الصحراء واقتحامها، التغلّب على السكان المتمرّدين ثمّ إخضاعهم».

و لطالما افتخر الرومان أباطرة ومؤرخين بالحملات الأسطورية التي شنتها الجيوش الرومانية منذ القرن I على القبائل الصحراوية - نذكر من ذلك حملة كرنوليوس بلبوس Cornelius Balbus أو في القرن II م، في عهد الأباطرة ترايا نوس وأدريانوس عندما وقع شنّ حملات تهدف إلى إخضاع وإقرار سكان الجريد التونسي.

أمّا القرنان III-IV م فقد شهدا نشأة أكبر إنجاز عسكري روماني وهي منطقة الليماس-Limes.

عندما نتجوّل اليوم في الصحراء التونسية كثبانها -جبالها- هضابها وواحاتها نلاحظ وجود معالم مختلفة. جلّ هذه المعالم المشيدة يرجع إلى الفترة الرومانية مثلما نرى في الصور، كذلك تبدو أغلب المعالم ذات طابع عسكري دفاعي. لكن حسب رأينا لا يجب الاكتفاء بقراءة واحدة للتاريخ : النصوص تتحدّث عن حملات عسكرية واكتساح للمجال الصحراوي وإخضاعه للسلطة الرومانية، المعالم من ناحيتها تشهد على وجود إستراتيجية عسكرية ما. يبقى الغموض قائما والسؤال مطروحا بخصوص الهدف من وراء إخضاع وتحدّي الصحراء والغاية من تشييد كلّ هذه المعالم في مجال



مغاور لوبية

أقلّ ما قيل عنه مجال الوحدة، المجهول والأخطار؟

كما سبق وقلنا، الصحراء بمختلف مجالاتها كانت ولا تزال على خلاف القفار منطقة ثرية وتحتوى على كنوز يجهلها البعض. الصحراء التونسية كانت آهلة بالقبائل الرُحل ونصف الرحل ممن تحدثت عنهم النصوص القديمة : نذكر على سبيل المثال :

ـ 1 ـ Les Arzuges ربّما هم أجداد المرازيق اليوم، القبيلة التي تنتسب إلى صحراء قبلي.

ـ 2 ـ Les Nybgenii ربّما هم أجداد النفزاوة اليوم سكان الجريد التونسي.

هؤلاء دخلوا في علاقة مع الرومان ومع حضارات وقبائل صحراوية أخرى. هم الذين أسّسوا وطوروا التجارة الصحراوية وفتحوا المسالك الأولى والطرقات الرابطة بين إفريقيا والشرق. أثمن المنتوجات (الذهب - حرير - عاج وغير ذلك. . .) كانت تمرّ بالمناطق الصحراوية قبل أن تصل إلى السواحل وإلى قصور الأرستقراطية القرطاجية أو الرومانية.

ما كانت الجيوش الرومانية لتخترق شطّ الجريد أو لتتوغل في الصحراء لتبني قصر غيلان أو غدامس لولا وجود طرقات سابقة وسكان أصليين فتحوا هذه الطرقات واستعملوها.

ـ يبدو أنّ الرّومان كانت لهم غاية أهمّ وهي الدّخول للتاريخ من باب آخر - الباب الصحراوي. بما أنّ حنبعل دخل التاريخ الغربي بتحديه جبال الآلب وإخضاع الشعوب الرومانية في طريقه، فإنّ روما كانت ترمي إلى مغامرة مشابهة. وفعلا دخل الرومان الصحراء وتركوا آثارا وشواهد على هذا الإنجاز العملاق بالنسبة لعصرهم.

ـ الرومان والصحراء : لم يكن التواجد الرّوماني تواجدا عسكريا بحتا كما عهدنا أن نعتبره. الجيوش الرّومانية

عندما استقرت ببعض المواقع لم تكن دائما في حالة حرب، وبالتالي كان اهتمامها يتجه إلى أعمال اقتصادية كالتجارة والحرف والفلاحة أو أعمال في علاقة مع البنية التحتية : طرقات - جسور - آبار- حنايا وصهاريج. كلّ هذه الأشغال كانت تبدو ممكنة ولا تتطلب مجهودا أكثر ممّا تتطلبه الأشغال في مناطق أخرى.

إن ما شيّده الرّومان في الشمال نجحوا في تشييده في الصحراء لذا لا يمكن اعتبار الصحراء عائقا دون التطوّر الاقتصادي والاجتماعي للحضارات.

في الختام يمكننا القول بأن الحياة في الصحراء كانت في متناول الرومان ومن سبقهم من السكان الأصليين. وأن مبدأ التحدّي والإخضاع هو مبالغ فيه. التاريخ لا ينفي وجود الصراعات ما بين حضارة وأخرى وما بين نمط عيش صحراوي ترحالي وبين نمط عيش حضري مستقرّ. تخليد الإنسان لنفسه يبدأ بالصّراع لينتهي بالتحاور والتبادل ثمّ البناء والتشييد وهي الصورة التي لمسناها من خلال المواقع الأثريّة التي تركها لنا الرّومان بالصحراء التونسية: معالم تحمل طابع الصّراع من الظاهر (معالم عسكرية) وعندما نتأمّل فيها نجد باطنها حوارًا بين حضارة البداوة وحضارة المستقرين: أسوار وبناءات شاهقة يقطنها سكان رحل ونصف رحل يتميزون بنمط عيش بدوي صحراوي.

الهوامش والإحالات

1) Hérodote, Histoires, VIII (historien grec, a vécu entre 420-480 av. J.-C.).

2) Pline l'Ancien, Histoire naturelle, V, 1-46 (historien latin, a vécu entre 23-79 de l'ère chrétienne).

3) Strabon, Géographie, XVII, V (Géographe grec).